

شيرين  
عمّاد  
رحلة  
الشااه كابور

ألف ميل في  
جنوب الهند



الرواق للنشر والتوزيع

رحلة الشاه كابور

شيرين عادل

الرواق للنشر والتوزيع

رحلة الشاه كابور

شيرين عادل

الطبعة الأولى ---- يناير 2022

الغلاف: كريم آدم

الإخراج الفني: ضياء فريد

المراجعة اللغوية: إسلام منتصر

رقم الإيداع: 2021/30722


الترقيم الدولي: 978-977-824-149-5


جميع حقوق الطبع محفوظة

186 عمارات امتداد رمسيس 2 - أمام أرض المعارض - مدينة نصر

هاتف: +20220812006

rewaq2011@gmail.com

 alrewaqpublishing

 alrewaqpublishing

www.alrewaqpublishing.com



للنشر والتوزيع

## مقدمة

في صالة المغادرة الصّغيرة الشبيهة بقاعات المستشفيات، بكراسيها المعدنيّة وأرضها الخالية من السجاد، أتخذُ مجلسًا متطرفًا بعيدًا عن ضجّة المسافرين المتململين، بعد وصولي إلى مطار دولة (البحرين)، في تلك الليلة الشتوية من شهر ديسمبر للعام 2019، كونها أول محطة تفصل بين رحلتي الأولى من مطار (القاهرة)، ورحلتي الثانية إلى مطار (نيودلهي) الدولي.

أقبعُ في سكون يخالف طبيعتي المتحفزة دائمًا لكل مُغامرة جديدة؛ فذكريات زيارتي الأولى للهند التي كانت في العام 2007 تغمر حواسي بألّة الزائر المتردّد على المكان، تاركة مساحة ضئيلة للغاية لأي توقعات أو تكهنات مُسبقة بشأن البلد البعيد. أعرف يقينًا أن الرحلة الجوية إلى (الهند) شاقّة إلى حدّ ما، بما يتخلّلها من محطات (ترانزيت) وفترات الانتظار المُملّة ما بين هبوط وإقلاع. لماذا اخترت الهند للمرة الثانية لتكون وجهة سفري؟ حسنًا، للموضوع أبعادٌ كثيرة. في المرة السابقة، كان السبب المباشرة لسفري إليها هو ولعي الشخصي بالثقافة الهندية، التي كان مدخلي إليها -بطبيعة الحال- هو الأفلام البوليدية الحديثة بما تحمله من ألوان ورَقصات وموسيقى مُبهجة، فضلًا عن شغفي بالطعام الهندي الذي ألفتُه في أكثر من مطعم هندي اعتدتُ التردّد عليهم في القاهرة. كانت نظرتي للسفرية كلها نظرةً رومانسية حالمّة، تدورُ حول الاستمتاع بكل أوجه تلك الثقافة الغريبة والغنيّة من لغة، وأكل، وديانة، وعادات وتقاليد، إلخ.

أما هذه المرة، فالأمر يختلف شكلاً وموضوعًا؛ فأنا في مهمة عمل رسمية، كلفني بها الصديق الرحالة (عمرو بدوي) لاستكشاف ورسم خريطة طريق لرحلة يود القيام بتشغيلها عن طريق وكالة السفر الخاصة به (ترافل سوا)، ليستقطب من خلالها -بشكل خاص- هُواة المغامرة والترحال من قائدي الموتوسيكلات المصريين والعرب. وهي ليست مهمة سهلة بالمرة، فهي تتضمن تنفيذ الرحلة المخطط لها بنفسي وبمفردي تمامًا، وهو الأمر الذي لم

أجرؤ على فِعلِهِ طوال السنوات الست الماضية التي زحرت برحلات الموتوسيكلات مع الكثير من الأصدقاء في شتّى المدن المصرية، لعلّ أطولها كانت رحلتي عام 2016 حول مصر التي قطعْتُ فيها مسافة ألفين وسبعمئة كيلومتر في تسعة أيام، مع خمسة من الرِّفاق، فَمنا من خلالها بدورة كاملة حول مصر، عَبَرنا فيها من ساحل البحر الأحمر لمدينة (مرسى علم)، مرورًا بمدينتي (الأقصر) و(أسوان)، إلى الواحات الأربعة الدنيا من الصحراء الغربية وهي (الخارجة) و(الداخلة) و(الفرافرة) و(البحرية)، عودة أخيرًا إلى (القاهرة). أكاد ألهُتُّ لمجرد ذكر تلك المسافات، على الرغم من ألفة أسماء المدن والأماكن التي طالما زُرتها من قبل، فكيف وأنا اليوم في طريقي إلى المجهول حرفيًا، أسافر على طُرُق لم أطرُقها من قبل قطُّ، معتمدة فقط على أبحاثي الخاصة التي أجريتها قبل الرحلة ما بين خرائط (جوجل)، ومنتديات السفر، ومراسلات لبعض الأصدقاء القدامى في الهند لتبين حالة بعض الطُرق والطقس في ذلك الوقت من العام. وأمتطي هذه المرة سهوة جواد ميكانيكي لم أختبره من قبل كعادة قادة الموتوسيكلات قبل السفر من التعود على الموتوسيكل أولاً، والتأكد من قوة تحمُّله وصيانتته وإمكانياته، فمن المعتاد حين يُصاب الموتوسيكل بعطب ما في أثناء الرحلة، إما يتطوع أحدُ الرفاق من ذوي الخبرة بإصلاحه في الحال إن كان الأمر هَيئًا، أو نستدعي سيارة لنقله إلى أقرب ميكانيكي. أما اليوم فأسافر دون أي دعم تقني للموتوسيكل، اللهم إلّا معلوماتي الضئيلة عن الميكانيكا، ودون إمكانية الاتصال بأي وسيلة إنقاذ، إلا بالكثير من دعوات الأهل والأصدقاء بأن يقف لي (أولاد الحلال) من السادة الهنود.

ما الذي يدفع المرء لمغامرة مثل هذه -بل مخاطرة- غير محسوبة تمامًا؟ هل هي اتفاقية العمل المشترك مع (عمرو بدوي) التي ألزمتني؟ هل هو حب السفر والاستكشاف؟ الحقيقة حبي للسفر والموتوسيكلات معًا أوجدنا في نفسي شغفًا خاصًا بحكايات الرحالة الذين يجوبون العالم باستخدام الموتوسيكل، فصرتُ أتتبع أخبارهم في الكتب والأفلام الوثائقية، وعبر صفحات الإنترنت. ووجدتُ منهم مَنْ قَطَعَ أكثر مسافات تعدّت الـ ٤٠ ألف كيلومترًا دفعةً واحدة، ومنهم من قطع دروبًا مشهورة منذ الأزل مثل طريق (القاهرة -

كيب تاون)، العابر للقارة الأفريقية بشكل عمودي من حدود (مصر) الشمالية إلى نقطة التقاء المحيطين الهادي والهندي بطرف (جنوب أفريقيا)، أو (طريق ٦٦) الذي يقطع رقعة الولايات المتحدة من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب. من هؤلاء المغامرين رجال مصريون ذاع صيتهم محليًا بين الأوساط المعنيّة بالموضوع مثل (عمر الفردي) و(علي عبده)، ومنهم الأجانب الذين يعدون أساطير حيّة بالنسبة لرحالة الموتوسيكلات مثل (تيد سايمون) و(ديف بار) المسجلين بموسوعة (جينيس) للأرقام القياسية بما قطعوه من مسافات خيالية، ومنهم سيدات تشرفت كذلك بمقابلتهنّ شخصيًا، مثل (ميل كوبلاند) الإنجليزية التي ارتحلت على موتوسيكل مع ابنتها الصغيرة من قلب (لندن) إلى (كيب تاون)، و(جو راست) المغامرة الجنوب أفريقية، التي صارت أول سيدة تدور حول قارة أفريقية بمفردها على عجلتين. ومنهن من أتبعهن في شغف حتى الآن مثل (كينجا) البولندية التي تسافر حول العالم باستخدام الموتوسيكل بشكل متواصل منذ سنوات، وأخيرًا هناك (كانديدا لويس)، الفتاة الهندية التي سافرت من الهند إلى قارة أستراليا على موتوسيكل هندي الصنع ماركة (باجاج)، وهو ما نعدّه في مصر من موتوسيكلات الدليفري!

وبعد كل هذا الشَّغف والإلهام، تأتي لي الفرصة للانتقال فورًا من مقاعد المتفرّجين، المتابعين لكل هؤلاء الرحالة متابعة نجوم السينما، إلى مقعد موتوسيكل، أنتقل به فعليًا في بلاد غريبة عني، بمفردي تمامًا، تمامًا مثل هؤلاء الأعراء. بالله عليكم كيف أرفض كل هذا الجنون؟!

1558 كيلومترًا بالتمام والكمال - وهو رقم متواضع للغاية مقارنةً بالرحالة السالف ذكرهم - هي المسافة التي قطعتها بجنوب القارة الهندية في عشرة أيام كاملة، وحدي تمامًا، لا يرافقي سوى موتوسيكل (رويال إنفيلد) سعة 500 لتر مكعب، المعروف شعبيًا باسم (**Bullet**)، قضيتها ما بين مدينة (بنجالور) ومقاطعة (جوا)؛ مرورا بمدينة (مايسور) التاريخية، ومحمية (بانديبور) للحيوانات المتوحشة، ومزارع القهوة والغابات الواسعة لمقاطعة (كورج)، وعاصمتها (ماديكيرى)، مرورًا بالخطّ الساحلي الغربي للهند المُطل على

بحر العرب في مدن (مانجلور) و(أودوبي) و(جوکارنا) و(فاسكو دا جاما)، وانتهاءً بمدينة (بانجيم) عاصمة مقاطعة (جوا) الشهيرة.

في الصفحات الآتية تُسافرون معي في تلك المغامرة المُميّزة، وهي مميزة جدًا بالنسبة لي بشكل خاص؛ لأنها جَمَعَتْ كل ما تمنيته وشغفت به في رحلة واحدة: سافرت وحيدة، في رحلة طويلة، خارج حدود بلدي، استضافني فيها ناسٌ غريبة عني تمامًا عرفتهم عن طريق تطبيق (الكاوتشسيرفينج)، وقُدْتُ وسط الغابات وفوق الجبال وبين المزارع وعلى شاطئ بحر العرب، باستخدام موتوسيكل كلاسيكي لم يتغير شكله أو تصميمه منذ 75 عامًا. أما هذا الكتاب، فهو مميز كذلك بالنسبة لي، أفلا يقولون: «اكتبِ الكتابَ الذي تودُ قراءته»؟ حسنًا فأنا أفتقد وجود أي ذكر للدراجات النارية بأي مرجع عربي؛ لذلك قررتُ أن أبادر أنا بكتابة مثل هذا الكتاب المُفتَقَد.

مرة أخيرة الشُّكر موصول لصديقي الرحالة (عمرو بدوي)، على دَعْمِهِ ورعايته للرحلة من الألف إلى الياء من خلال وكالة السفر الخاصة به (ترافل سوا)، فَلَوْلَاهُ لما وجدت من الشجاعة ما يحملني على القيام بها، ولما خرج هذا الكتاب إلى النور.

شيرين عادل  
القاهرة، 2020

**«عِشْ كَأَنَّكَ سَتَمُوتُ غَدًا  
تَعَلَّمْ كَأَنَّكَ سَتَعِيشُ لِلأَبَدِ»**

إلى  
روح أبي الطيّبة  
التي لم يحبسها عن التحليق يوماً  
جَسَدٌ فاني



# طائرات ملونة

أبو ظبي - نوفمبر 2007

نظر الرجل غليظ الملامح، ذو الزي البني المميز لرجال الأمن بمطار (أبو ظبي) الدولي إلى محتويات حقيبة سفري في ريبة أقرب إلى الذهول، قبل أن يتساءل في شك:

• شو هادا؟!

فجاء ردي في هدوء أحسد عليه:

• دول علب تونة وفول!

كانت -للدقة- خمس علب من التونة وعلبتين من الفول! تلاشت علامات الريبة من قسماات الرجل، ولانث ملامحه في تعجب لا يخلو من بعض السخرية، متسائلاً مرة أخرى:

• تونة وفول؟ ليش؟

• فقلت في مرح مصطنع أحسبه فشل في مداراة توتري وقلقي المفاجئ أن تنتهي الرحلة على حدود الإمارات بسبب بعض المعلبات اللعينة:

• عندك حق والله! قلت لي ليش.. والله وما لك علياً يمين يا شيخ أنا نفسي ما بعرف ليش! اسأل الست الوالدة ليش!

ثم ألقيت إلى أمي الواقعة بجواري نظرة لوم وعتاب، مُطالبة إياها بتوضيح أسبابها للرجل، فانبرت هي في تصميم تشرح للرجل:

• معلش يا ابني أصل إحنا رايعين الهند -بعيد عنك- ودول أكلهم...

- ثم التزمت الصمت، في بلاغة مصرية فريدة، مفادها أن (زي ما أنت عارف)، أو ربما فسرنا الرجل بـ (أستغفر الله العظيم)، أو أي شيء يفيد معنى المعاناة التي تنتظرنا ببلاد تركب الأفيال! نظر الرجل مرة أخرى إلى المعلبات -خمس علب تونة وعلبتين فول بالتحديد- وفي عينيه قرأت حيرته في تقرير إذا ما كنا نعاني خبالاً أم أننا مجرد امرأتين بائستين حتى النخاع، ثم تساءل عن الفترة التي نعتزم إقامتها في الهند، فجاءت إجابتي:
- عشرة أيام!

تساءل الرجل مرة أخرى، وإن فاحت نبرة صوتِه هذه المرة بسخرية لاذعة لا ريب فيها:

- وهادول راح يكفوا العشرة أيام؟!

ابتسمنا ولم نردِّ، كيف فاتني أن أواجه أمي بهذا المنطق البسيط، لربما كان كفيلاً بإقناعها أن تترك المعلبات بالبيت؟! قال الرجل أخيراً، وقد علث وجهه ابتسامة ارتياح، وبدا أن تشخيصه لحالتنا قد استقرَّ على نظرية الخبال، فقرَّر التلطف معنا:

- هو ممنوع، لكن ماشي.. تعدي!

لملمتُ الحقيبة سريعاً وأنا أتمتم في سرِّي:

- يا راجل ده أنا أقنعتها بالعافية، متجيش خيار وجبنة! هي سفرية باينه من أولها!

أقولها وأتذكر عددًا من الرسائل السماوية الخفية التي تلقيتها في أثناء رحلة الثلاث ساعات من مطار (القاهرة) إلى مطار (أبو ظبي). على سبيل المثال، فتحت إحدى الصحف المقدّمة لنا على الطائرة لأجد هذا الخبر الكارثي: «مصرع وإصابة عدد غفير في انفجار ثلاث قنابل قرب نيودلهي العاصمة بالهند». أطوي الجريدة في حرص، مُداريةً إيّاها عن عيون أمي التي لن تتوانى عن حُزّ تذكرة عودتنا من (أبو ظبي)

إذا لمحت هذا الخبر. ما إن طويت الجريدة حتى لمحتُ على الصفحة الخلفية مقالة لـ (أنيس منصور) تحت عنوان (لا تحاول الهزار مع الهنود!). يحملني فضولي على الاسترسال في القراءة، فأجدُ الكاتب يحكي عن مشكلة حدثت له في مطار الهند حين حاول ممازحة أحد مسؤولي الأمن، فأدَّت المزحة البريئة إلى الاشتباه فيه، وُحِجَزَ في المطار لساعات طويلة حتى تأكدوا من هويته! حقًا؟! في المطار؟! في الهند؟! (هي سفيرة باينه من أولها) أتمتم مرة أخرى وأنا ألقى بالجريدة تحت الكرسي وأدهسها بقدمي!

في تلك السنة البعيدة، وبينما أُحلقُ فوق السحابة التاسعة من فرط الحماسة واللهفة لاستكشاف تلك البلاد التي كانت وما زالت مصدر إلهام لحكايا الرِّحالة والمغامرين من مختلف بقاع الأرض على مرِّ العصور، لم تشاركني أُمِّي تلك الحماسة مُطلقًا؛ فقد كانت الهند بالنسبة لها مجاهل آسيوية بعيدة، وبلاذًا تركب الأفيال، ولا بُدَّ أن العديد من الكوابيس قد راودتها منذ نُوهِتْ لها عن نَيْتِي بالسفر. لا شك أنها رأنتني في إحداها وقد اختطفنتني جماعة من آكلي لحوم البشر، وقاموا بطهوي في قدر كبير ممتلئ بمسحوق الكاري وقرن الفلفل الأحمر الملتهب، أو لعلها رأَتْ جماعة من الهنود عراة الصدور، يرتدون سراويل بيضاء واسعة، وقد علت رءوسهم ريشات طويلة ملونة، يقومون بتقديمي كقربان آدمي، تحت أقدام فيل عظيم يَهْمُ بدهسي، بينما هم يرقصون وينحنون أمام تماثيل ضخمة ملونة تمثل آلهة في شكل أنثوي، ذات أذرع متعددة، وعيون ثاقبة، وملامح شريرة! كانت تلك الأفكار السوداء والتخيلات المدعومة بأساطير محلية كثيرة عن بلاد الهند والسند (ولا شك عندي أنها مستوحاة من فوازير رمضان لا أكثر) تجعل فكرة السفر بمفردي مرفوضة شكلاً وموضوعاً بالنسبة لأُمِّي؛ لذلك -وبعد فترة طويلة من المفاوضات- رضخت أخيراً لرغبتني، في مقابل تعديل بسيط في خطة السفر: أن تصحبني بنفسها في تلك الرحلة!

هكذا أجدُ نفسي بضُخبة أُمِّي، ندخل إلى صالة الوصول بالمطار بعد أن لمست عجلات طائرتنا أرض العاصمة (نيو دلهي) في سلام. مطار (أنديرا غاندي) شديد

الكآبة، الخالي من أي مظاهر ترحاب، اللهم إلا لافتة بائسة تحمل جملة (مرحبًا بكم في الهند). خلا المطار كذلك من المتاجر والمقاهي، اللهم إلا بعض مكاتب الخدمات مثل الصرافة والسيارات الأجرة. لم نجد في استقبالنا سوى عربات التروولي المخصصة لنقل حقائب المسافرين، وقد تناثرت هنا وهناك انتظارًا للركاب. حتى مكتب الجوازات، كان صغيرًا خاليًا، إلا من اثنين من ضباط الجوازات، في ملابس مدنيّة عادية، بخلاف المعتاد من الأزياء الرسمية في أغلب المطارات الدولية، وقد علّت وجهيهما أمارات الكسل والنعاس، وبدا كأن أحدهما قد انتزعهما من النوم في منتصف الليل، بالرغم من الساعة التي تشير إلى الثانية ظهرًا!

نيودلهي - ديسمبر 2019

كان الوقت يقارب الخامسة فجرًا حين حملتُ حقيبتي الصغيرة لأغادر أخيرًا الطائرة التي حملتني من مطار (البحرين) إلى مطار (نيودلهي)، بعد ما قارب الخمس ساعات من التحليق فوق آسيا الوسطى وبحر العرب. أسعى بين الممرات الطويلة للمطار الذي ما زال يحمل اسم رئيسة وزراء البلاد الأشهر (أنديرا غاندي). يا لهول ما أرى هنا من تغيير! بدا وكأن الزمن مرَّ بعصاه السحرية على ذلك المطار الذي وصلت إليه منذ اثني عشر عامًا كاملين، ليحول أروقه الباردة الخالية من الحياة وجدرانه الكئيبة المنقّرة إلى تلك الممرات والقاعات المُبهرة، ذات الأرضيات البراقة، التي تعج أركانها باللافتات والإعلانات الإلكترونية والمقاعد الحديثة، والمحال التجارية ذات الماركات العالمية! هل انتقلت إلى بُعد آخر بين عَشِيَّة وضُحاها؟ هذا المطار العصري لا يمت بصلة من قريب أو بعيد إلى ما رأيته أنا وأمي منذ اثني عشر عامًا، ولولا اللافتات التي تحمل حروفًا هندية مميزة إلى جوار ترجمتها الإنجليزية لحسبت أنني وصلتُ إلى أحد مطارات أوروبا!

نجحت خلال وقت قياسي في استلام حقيبتي المثقلة بتجهيزات رحلتي المقبلة، والتي احتلت نصفها أدوات ومعدات تخص الموتوسيكل لا تخصني شخصيًا. أتبع

اللافتات المضيئة لأصل بسهولة إلى قاعة الوصول. تشد انتباهي أولاً تلك الجدارية الضخمة، التي يتصدّرها عدد من المنحوتات الذهبية العملاقة تمثل أيادي في وضعيات رمزية مختلفة، قبل أن أحول بصري إلى الجهة المقابلة. يصدمني مرأى جحافل من البشر، يصطفون ككتائب جيش عظيم أمام مكاتب الجوازات، في انتظار التحقق من جوازات سفرهم والسماح لهم بالدخول إلى الأراضي الهندية! أسقط في يدي! فموعد طيارتي التالية بعد أقل من ساعتين، وعليّ إنهاء هذه الإجراءات أولاً قبل أن أتوجه إلى قاعة أخرى من قاعات المطار الخاصة بالطيران الداخلي، وتسجيل بياناتي على رحلة الطيران الداخلية التالية، وهو أمر يتطلب على الأقل ساعة أخرى. قررت استغلال البطاقة السحرية الفعّالة في تلك المواقف، ألا وهي بطاقة (الأجنبية المذعورة)!

أسرعت الخطأ بثقة متجاوزة الصفوف، إلى أن وصلت إلى قِمة الصف الأقصر من المسافرين. رسمت على وجهي أعتى علامات الذعر والاستعجال، ثم أشرت إلى أحد الموظفين المساعدين لضباط الجوازات طلباً للمساعدة. التفت إليّ في اهتمام فانبهرت لاهثة أشرح له أن موعد رحلتي الداخلية قد اقترب، ولا يسعني انتظار دوري في الصف وإلا فاتتني الطائرة. تناول مني جواز سفري وتذكرة الطائرة في هدوء، ثم أشار إليّ بأن أنتظر مكاني. هل فشلت المحاولة؟ أنتظر في نفاد صبر والدقائق تمر في بُطء السلحفاة إلى أن انتهى ضابط الجوازات من معاملته الأخيرة، فبادر الموظف المساعد إياه بتقديم أوراقه إليه، وأشار إليّ بالتقدم لإنهاء المعاملة. لم أصدّق أن حيلة (الأجنبية المذعورة) قد نجحت حقاً هذا النجاح الساحق ومن المرة الأولى! انتهت معاملتي في أقل من ثلاث دقائق، انطلقت من بعدها على الفور سعياً إلى صالة الطيران الداخلي.

نيودلهي - نوفمبر 2007

أنهى ضابط الجوازات بالمطار إجراءات الوصول في ببطء يعادل المعاملات الحكومية المصرية. توجهت بعدها لأحد مكاتب الصرافة القريبة لأقوم بتغيير بعض الدولارات بالعملة الهندية المحلية التي تدعى (الروبية) والتي تحمل على أحد جانبيها الوجه الهزيل المألوف لزعيم الهند الأشهر (غاندي). كانت السبع روبيات يومها تعادل جنيهاً مصرياً واحد، وهو أمر لو تعلمون عظيم، خاصةً مع تعدد زياراتي للدول الأوروبية، وإحساسي المتواصل بضالة الجنيه المصري أمام الغول الأوروبي المدعو (اليورو) وابن عمه (الدولار) الأمريكي.

ما إن خطونا، أمي وأنا، داخل صالة المطار الخارجية المؤدية إلى البوابات، حتى فوجئنا بـ (قينيـش) يُلوح لي من بعيد في حماسة وحبور. يقف بقامته القصيرة وشعره البني الناعم بجوار امرأة تماثله في الطول أو أقصر قليلاً، وقد أخذت تتأمل القادمتين نحوها في فضول. (قينيـش) صديقي العزيز الذي تعرفت إليه كونه زميل عملي في أثناء زيارة عمل له في مصر. تطوّعت وقتها مع بعض الأصدقاء بإرشاده في جولات سياحية قصيرة في القاهرة في أثناء فترة إقامته، كما استقبلته في بيتي فصار يعرف أمي جيداً. في الحقيقة أن أغلب الهنود الذين عرفتهم في حياتي يتمتعون بالكثير من الود والمحبة، إن أظهرت أي بادرة صداقة نحوهم اعتبروك فرداً من العائلة. يحرصون على إبقاء أواصر الود موثوقة، ولو فرقت بينكم السنين والمسافات. فرغم تلك السنوات الاثنتا عشرة التي مرّت على زيارته إلى مصر، ظل (قينيـش) على تواصل معي بشكل أو بآخر، يرسل إليّ التهاني دائماً في عيد ميلادي، ويتدّاد الأخبار حتى ولو مرة كل عام.

أتذكر يوماً كُنّا في جولة في القاهرة الفاطمية، وتحديدًا في شارع المعز جهة الأزهر والحسين، واشترت بعض المشغولات التي تُلبس حول المعصم مما يسمونها (حظّاطة). أعجب بها (قينيـش)، فعرضت عليه أن يأخذ واحدة منها، فما كان منه إلا أن ابتسم وطلب مني أن أربطها له حول معصمه. فلما لمح تساؤلاً صامتاً يعلو وجهي إزاء هذا الطلب الغريب تطوّعت بالتوضيح قائلاً:

• عندنا في الهند، لو الواحدة ربطت لواحد أسورة أو رباط أو أي شيء من هذا القبيل حول معصمه تصبح أختًا له؛ يعني أنتِ كده بقيتي أختي.

هذا العام، أصرَّ أخي الهندي (فينيش) على استقبالنا في المطار حين عَلِمَ بقدومي مع أمي إلى الهند. هكذا وجدته في انتظارنا مع زوجته في صالة المطار الخارجية. يُقبل على أمي أولاً فينحني ليلمس قدميها في تقليد هندي تنتفض له أمي فزعًا كل مرة ظنًا منها أنه سيسقط أرضًا! قدما لنا باقة كبيرة من الورد على سبيل الترحاب، ثم قادانا إلى خارج المطار، حيث تنتظرنا سيارة كبيرة بسائق خاص استعدادًا لنقلنا إلى مقر إقامتنا.

لم أحظَّ بمقابلة (فينيش) وزوجته خلال تلك الرحلة سوى مرة واحدة أخيرة، فُمنَّا خلالها بزيارة (معبد اللوتس) البهائي في قلب (دهلي). كان حديث الزواج، من فتاة عشرينية، عرفها في بلدته الأم كعادة أغلب الهنود التقليديين الذي ينتهي بهم الأمر في الغالب إلى زيجات تُرتَّب عن طريق العائلات، تمامًا كما نطلق عليه في مصر اسم (زواج صالونات)، وإن كان للأمر في الهند أبعاد اجتماعية أعمق جذورًا وأشدَّ جدية. التزمت (بهاقنا)، الزوجة الشابة، الصمت أغلب الوقت، طوال فترة لقائنا القصيرة، تتعلق بذراع زوجها كطفلة تخشى أن تفقد يد أبيها في الزحام، وحتى في اللحظات القليلة التي تكلمتُ فيها جاء صوتها خفيصًا ناعمًا يكاد لا يُسمع بالأذن المجردة، وقد علَّت ذلك بكونها فتاة خجولة لا أكثر، بينما علَّت أمي ذلك، بعقلية الأم المصرية -التي لا تختلف كثيرًا عن الأم الهندية في الواقع- بكونها تغار على زوجها الشاب الذي جاء في استقبال فتاة طارت إلى هنا من أقاصي الأرض!

بانجلور - ديسمبر 2019

رحلة طيران أخيرة، هي الثالثة منذ الأمس، حملتني من العاصمة (نيو دهلي) إلى مدينة (بانجلور) بجنوب الهند. مفاجأة عظيمة حملها لي صديقي (فينيش) قبل السفر بعدة أسابيع، حين أخبرني بأنه انتقل للمعيشة في تلك المدينة تحديدًا منذ

بضع سنوات، فاتفقنا على اللقاء بمجرد وصولي إلى هناك. من المريح أن أقابل وجهًا مألوفًا في بداية مغامرتي المجهولة. ربما يخفف ذلك من رهبة الموقف بالنسبة لي. هكذا ما إن نزلت الطائرة في مطار (بانجلور) حتى توجهت إلى أحد المكاتب الخاصة بشركات الاتصالات لأشتري خط تليفون، حتى أتمكن من التواصل مع زوجة (فينيش)، فقد كانت في انتظاري بالمنزل منذ الصباح.

• أين أنت؟

تسألني (بهاقنا) بصوت هادئ لم تفلح السنوات الاثنتا عشرة الأخيرة من عمرنا في تغيير هدوئه ونعومته، وإن كانت الثقة والحزم قد غلبت عليه الآن. أُجيبها في إرهاق: إنني في طريقي خارج المطار الآن، فتؤكد على العنوان الذي أرسلته مسبقًا عن طريق (الواتس آب)، وتقدر لي المسافة بين المطار ومنزلها بأنها تستغرق نحو ساعتين كاملتين.

ما إن خطوت خارج مطار (بانجلور) الدولي حتى انبهرت مرة أخرى بمدى التطور والتقدم الذي أصابته الهند في العقد الأخير. كنت أظن هذا التطور قد اقتصر على مطار العاصمة (نيودلهي) فقط، ولكن ها هو مطار (بانجلور) يفحمني مرة أخرى. لم يقتصر هذا التطور الفائق على الناحية الجمالية فقط، بل اهتموا اهتمامًا أكبر بالناحية العملية كذلك، فقاموا بتوفير كل ما يحتاج إليه المسافر لدى وصوله بشكل عملي أنيق، لا يخلو من جمال في التخطيط، من أول اللوحات الإرشادية المفصلة، والحمامات التي تحظى بأعلى مستوى من الاهتمام والنظافة، وخدمة الإنترنت المتاحة مجانًا للمسافرين في أرجاء المطار كافة، والكافتيريات والمطاعم التي اصطفّت في أكشاك حديثة المعمار أمام بوابة المطار مباشرة، وأماكن انتظار السيارات الخاصة والأجرة المُحددة بعناية وتنسيق، وحتى مستوى أداء العمالة المهذبة ذات الهندام الأنيق من موظفي المطار ومقدمي الخدمات ومرشدي مكاتب المعلومات.

فتحت الهاتف المحمول وقمّت بتحميل تطبيق (أولا) (OLA) للسيارات الأجرة، وهو تطبيق محلي مُشابه لتطبيق شركة (أوبر) العالمية. أرى من قريب عددًا من اللافتات تشير إلى مكان انتظار السيارات الخاصة بتلك الشركة. تتبعتها فقادتنني إلى رصيف يحمل علامة (OLA) ذاتها على بعض بلاطاته في إشارة لتتبع ذلك المسار حتى وصلت أخيرًا إلى نقطة التقاء السيارات. كانت أعظم ميزة لهذا التطبيق هي أن الأجرة تظهر لك في بداية الرحلة كتعريف ثابتة ولا تتغير أبدًا مهما كان الزحام أو وقت الانتظار الفعلي خلال الرحلة، مما يعفيني حرج الجدال مع السائقين حول التعريف، ويُقلّل فُرص النصب على سائحة مثلي.

نيودلهي - نوفمبر 2007

طلبتُ سيارة أجرة عن طريق إحدى الشركات التي أشارت إليّ بها صديقة هندية. في عصر ما قبل تطبيقات المحمول، كانت شركات الأجرة تُدير أعمالها عن طريق التليفونات. النظام هنا كالاتي: يمكنك استئجار سيارة وسائق لمدة ثماني ساعات وحتى مسافة ثمانين كيلومترًا في مقابل ستمئة روبية؛ أي ما يَقِلُّ عن مئة جنيه مصري في ذلك الوقت.

خرجتُ مع أمي من باب الفندق لنجد في انتظارنا سيارة فضية صغيرة من ماركة (تاتا) الهندية الشهيرة. يقف بجوارها رجل ضئيل الحجم، رتّ الثياب، يلمع شعره المتلاصق بفضل كمية سخية من (الغازلين) تحت شمس الظهيرة، بينما يتحدث في المحمول مُوليًا إيانا ظهره. دعوت الله ألا يكون هذا هو السائق الموعود، إلا أن دعوتي لم تكذب بلغة طبقة العوادم والدخان المهيمنة فوق سماء المدينة حتى استدار الرجل، وفتح لنا باب السيارة مع ابتسامة مخيفة تبرز صفيين متكسرين من الأسنان الصفراء تحت شارب كث لم يحفه مقص منذ أسابيع.

إن (الهند) تحمل سُمعة غير طيبة فيما يتعلق بالروائح. فما بين توابل الطعام النفاذة التي تأتي بمفعول قوي حين تتفاعل مع الجهاز الهضمي، وتخرج من الجسم عن

طريق المسام وفتحات أخرى لا داعي لذكرها، وبين الزيوت العطرية التي يحرص الناس هنا حرصًا يقارب التقاليد المقدسة على وضعها فوق الرؤوس والأجساد، تبدو الشوارع والتجمعات البشرية هنا وكأنها تظلمت بسحابة غير مرئية من الروائح النفاذة الغريبة. وفي تلك الأيام الأولى لي بـ(نيودلهي)، كنت أظن أن رائحة المدينة هي أسوأ ما ستتخفني به الأقدار في هذه الرحلة، إلى أن جاءت رائحة تلك السيارة الأجرة لتترك لي ذكرى لن أنساها ما حبيث. كانت رائحة التاكسي توحى بأن سائقها يباركها بدهان روث الأبقار كل صباح إن كان هناك شيء من هذا القبيل، أضف إلى ذلك أن هيئة هذا الرجل نفسه تدل على أنه لم يمس الماء منذ شهور إن لم تكن سنوات. سألنا عن وجهتنا، فناولته ورقة كنت قد كتبت فوقها كل الأماكن التي تستحق الزيارة في (دهلي). هز رأسه في حركة لا يفهم منها إن كان موافقًا أم معترضًا، ولكنه انطلق بالسيارة على كل حال. بعد دقائق صوب نظره إليّ عبر المرآة ثم سألني (إيسي مدام؟) لم أفهم. كرر السؤال (إيسي مدام؟)، ففتحت فمي ببلاهة وقلت له إنني لا أفهم، فأشاح بوجهه فاقدًا الأمل. تنبته فجأة إلى أنه أشار إلى فتحة المكيف في لوحة القيادة أمامه، فأنارت لمبة في عقلي أخيرًا (إيه سيبيي) (AC)! إنه يقصد المكيف! كيف سأتواصل مع هذا الرجل طوال ثماني ساعات إن كنت لم أفهم أول حرفين من كلامه؟!

بانجلور - ديسمبر 2019

تمكنت بسهولة من الوصول إلى السيارة التي خصصها لي تطبيق (أولاً) عن طريق لوحاتها المعدنية. كان السائق شابًا عشرينيًا، مهنم الثياب، سريع الحركة. حيّاني بابتسامة غير متكلفة، ثم ساعدني في إلقاء حقبتي الثقيلة على المقعد الخلفي وأفسح لي المجال للركوب، ولكنني فضلت الجلوس بجواره في المقعد الأمامي حتى أحصل رؤية أفضل للطريق. ما إن استقرّ في مقعدي حتى أشمشم في الهواء بحثًا عن رائحة التاكسي إيّاه من زيارتي السابقة، وحمدت الله حين وجدتُ بديلًا عنها

قنينة من الزيوت العطرية تتدلى من مرآة السيارة لتشيع رائحة لطيفة في الجو.  
أسعدني أن تطور أنظمة الأجرة في الهند لم يقتصر على التكنولوجيا فقط!

مدينة (بانجلور)، التي يُطلق عليها السكان المحليون اسم (بانجلورو) Bangluru بدلاً من اسمها المتعارف عليه عالمياً والذي يعنى (مدينة الحُرّاس) في إحدى اللغات المحلية القديمة، هي مدينة مترامية الأطراف بحق، لا سيما وهي ثالث أكثر المدن الهندية ازدحاماً بالسكان بعد مدينتي (مومباي) و(نيودلهي)، حتى استغرقنا الأمر أكثر من ساعتين كاملتين حتى نصل إلى بيت الأصدقاء في الطرف الآخر من المدينة، وهو ما يعادل الانتقال من مطار (القاهرة) إلى مدينة (٦ أكتوبر) عن طريق وسط القاهرة في ذروة الزحام الساعة الثالثة ظهرًا. لعل السبب في ذلك هو كونها مركزاً رئيسياً للأعمال في الهند، بل يُعدّها البعض (السليكون فالي) أو مركز تكنولوجيا المعلومات للبلاد، حيث تستقر فيها الكثير من المقرات الرئيسية لكبرى شركات التكنولوجيا الهندية والعالمية، على غرار مثلتها في (سان فرانسيسكو) بالولايات المتحدة.

كان (قنيش)، الذي يعمل في إحدى تلك الشركات، في رحلة عمل خارج المدينة، وقد رتّب الأمر بحيث أصل إلى منزله في ضيافة زوجته لتناول الغذاء، وتلقي واجب الضيافة، على أن نلتقي في اليوم التالي حال عودته إلى المدينة. تقترب السيارة من مجمع سكني صغير، تقف أمامه سيدة ثلاثينية العمر، بجوار طفلة في التاسعة من عمرها، تشبهها إلى حد كبير، وتكاد تقاربها طولاً. تتوقف السيارة فتتقدما مني متبسمتين في ترحاب.

سألنتني ابنتي (صوفيا) ليلة مغادرتي للقاهرة:

• مامي، أنهي طيارة هتوصلك أسرع؟ البنك ولا البلو؟

ابتسمت للمنطق الطفولي الذي ربط في ذهنها الصغير ذي السنوات الأربعة لون الطائرة بقدرتها على سرعة الوصول، وأخبرتها بأن على ركوب ثلاث طيارات مختلفة،

تتنوع ما بين (البينك) و(البلو)، وربما (الريد) كذلك حتى أصل إلى وجهتي، فهزت رأسها الصغير في تفهم قائلة:

- دانتي هتسافري كثير أوي يا مامي!

تسع ساعات من الطيران المتقطع يا حبيبتي، قضيتها في سماء العالم، على متن طائرات ملوَّنة، بين وجوه ملوَّنة من كل جنس وعِرْق، وما يقرب من تسع ساعات أخرى، قضيتها ما بين الانتظار الممل في قاعات المسافرين، وبين هرولة سريعة في الطرقات سعيًا بين وصول ومغادرة من مطار إلى آخر. بحلول الساعة الثالثة من ظهر ذلك اليوم، وقد وصلت أخيرًا إلى العنوان المنشود لمنزل (قينيئش)، كان الإرهاق قد بلغ بي مبلغه، وهو إرهاق من النوع الذي يصيب المرء بمشاعر حنين قوية إلى المألوف من حياته، حتى ليشعر بأنه قضى شهرًا في الترحال لا بضع ساعات! لذلك فإنني لا أتذكر حقًا أنني شعرت يومًا بالسعادة للقاء إنسان قدر سعادتني في تلك اللحظة بلقاء (بهاقنا)، زوجة (قينيئش) الصموتة الهادئة -وربما الغيورة إذا صدق حدس أمي- يكفيني هذا الوجه المألوف المبتسم، حتى وإن كنت لا أعرف الشخص ورائه تمام المعرفة!

كانت السنوات الاثنتا عشرة التي مضت قد وضعت بصماتها بوضوح، لا على وجه (بهاقنا) الذي فقد الكثير من نضارة شبابه فقط، بل على شخصيتها كذلك، فأصبحت أكثر تكلمًا ومرحًا وترحابًا من ذي قبل. لقد صارت كذلك أمًّا لفتاة جميلة ذات تسعة أعوام، تدعى (قاري)، اتقدت عيناها فضولًا وسعادةً لدى رؤيتي؛ فأنا العمّة التي جاءت لتزورهم دون سواهم من بلاد الفراغنة العظام!

كان منزلًا صغيرًا، أعجبتني بساطته الواضحة غير المتكلفة التي حرصت ربة المنزل على إبرازها في كل ركن منه. ناولتني (بهاقنا) منشفة كبيرة ثم أرشدتني إلى غرفة النوم، حيث يوجد حمام كبير، قبل أن تتركني لأغتسل وأستعيد بعض من آدميتي التي تضاءلت تحت رُكام من تراب السفر. خرجت إلى الصالة مرة أخرى لأجد المائدة

قد تلوّنت بمختلف الأطباق. دعنتني سيدة البيت وابنتها إلى الغذاء الهندي الشهي،  
منوّهة بأنها تعمدت طهو كل الأصناف دون التوازل الحارة المعتادة؛ لأنها تعرف أنني  
لن أتحمّلها.

كنت في غاية الامتنان للأكل الدافئ الذي أضعه في فمي للمرة الأولى منذ ليلة أمس.  
شوربة العدس، والبطاطس بالبازلاء المُبهرّة، والسبانخ المطهوه على طريقة هندية  
تختلف شكلاً وموضوعاً عن مثيلتها المصرية، والأرز البسمتي الأبيض، وأخيراً خبز  
(الباراتها) الهندي الشهي، وأنا أعشق الخبز الهندي في كل أنواعه وأشكاله -وقد  
أحصيت منهم عشرة حتى الآن! كانت عائلة (قينيّش) نباتية كما هو واضح من قائمة  
الطعام، مثلهم في ذلك مثل الغالبية العظمى من الهندوس، وإن كان بعض الهندوس  
يتناولون بعض المنتجات الحيوانية مثل البيض واللبن، ولكن اللحوم محرمة تماماً  
لقدسية الروح في معتقداتهم، لا سيما روح البقرة التي يعدّونها رمزاً للحياة- ربما  
لدورها المهم في حياة الفلاح الهندي منذ الأزل.

واجب عليّ هنا تصحيح ذلك الخطأ الفادح الذي يقع فيه غالبية الناس ممن لم  
يحتكوا قطّ بالثقافة الهندية، وهو الظن الخاطئ بأن الهنود يعبدون الأبقار! وهو ظن  
خاطئ ومثير للسخرية في ذات الوقت، فالمسلمون -على سبيل المثال- لا يقربون  
لحم الخنازير وهم بالقطع لا يعبدونها، واليهود لا يقربون المحار البحري وهم بالقطع  
لا يعبدونه، والإنجيل مثلاً يُحذّر من تناول الأرناب والخنازير، وفي فترة من الزمن  
صدر مرسوم باباوي يمنع المسيحيين من تناول لحم الخيل، وهم لا يعبدون أيّاً من  
تلك الحيوانات. لذلك يحيرني كثيراً أمر تلك الشّمة التي اكتسبها الهنود عن عبادتهم  
للبقرة، رغم أن جُلّ ما في الأمر أنهم يعدّونها رمزاً مقدساً لا يجب أذيته بأي شكل من  
الأشكال، حتى إنهم لا يجرّون على نهرها أو حملها على الحركة من مكانها، ولو  
احتلت قارعة الطريق وعطلت المرور، وهو مشهد رأيته بأم عيني في أثناء زيارتي  
الأولى لمدينة (نيودلهي)، حين قررت إحدى الأبقار أن تفترش أحد الطرق الرئيسية  
في كسل، فما كان من المارة إلا أن وجدوا لأنفسهم طريقاً آخر، تاركين البقرة تنعم

بغفوتها المسائية بسلام! يحنقني أحياناً أن يتحدث أحدهم بسخرية عن مدى جنون ما يفعله الهنود في مثل تلك المواقف، وكأنّ أذيتك لحيوان بالنهر أو الضرب أحياناً لمجرد أن أحد تصرفاته، مثل الجلوس على قارعة الطريق، تتعارض مع إرادتك في العبور من نفس الطريق، لهو عين المنطق والإنسانية! في رأيي هو نفس المنطق الذي أفرخ عندنا أطفالاً يطاردون كلاب الشوارع زقلاً بالطوب بغرض اللهو، أو يمسكون القطط من أذيالها ليطوحونها في الهواء بغرض التسلية!

بالحديث عن الأطفال، كانت (قاري) كما توسمت فيها لدى رؤيتها، متشوقة للسمع عن مصر والأهرامات ومقابر الفراعنة؛ لذلك فقد أهديتها مجموعة من القصص المصورة، بعضها عن حضارة مصر القديمة، والبعض الآخر من الفولكلور الشعبي المصري. طارت هي بهم فرحاً حتى أظنها أنهت قراءة أحدها في أثناء تبادل أطراف الحديث مع والدتها! في المقابل أهدتني هي بالنيابة عن والديها مجموعة كبيرة من الألوان الشمعية، وكتب التلوين لابنتي (صوفيا) التي تصغرها بعدة أعوام فلا تستطيع القراءة بعد.

غادرت منزل (فينيش) في سيارة مستأجرة مرة أخرى، وقد تعدت الساعة الخامسة مساءً، وبدأت الشمس رحلة المغيب. بحلول المساء توقفت السيارة أمام منزل قصير من دورين، في حي متوسط الازدحام يقع في الجنوب الغربي من المدينة. كانت (سانجيتا) تقف في انتظاري أمام البوابة. سيدة لطيفة في الثلاثينيات من العمر، سمراء البشرة، طويلة القامة مقارنة بمتوسط الطول المعتاد لبني جنسها، ينير وجهها تماماً كلما ابتسمت، وإن لم تفلح ابتسامتها الوضأة في إخفاء مسحة حزن عميق تعترى روحها.

عرفت (سانجيتا) عن طريق تطبيق (الكاوتشسيرفينج) Couchsurfing، وهو منصة تواصل اجتماعي تجمع بين المسافرين وهواة الترحال من كل أنحاء العالم. يمكنك عن طريق إنشاء حساب على هذه المنصة وتغذيته ببعض بياناتك وصورك

الشخصية أن تستقبل طلبات استضافة من المسافرين العائدين إلى مدينتك من شتى بقاع العالم، وبالمثل يمكنك إرسال طلب استضافة إلى أحد القاطنين بالمدينة أو الدولة التي ترغب في زيارتها. الأمر لا يتضمن أي مُقابل مادي؛ فالمقابل هنا هو معنوي بحت، ألا وهو التبادل الثقافي والمعايشة الحياتية بين المسافرين والمقيمين بهدف معرفة ثقافات الآخر والانغماس في تجربة الحياة الحقيقية بالمدينة بعيدًا عن الفنادق السياحية التي لا توفر تجربة مماثلة لنزلاتها، فما هي إلا أماكن خدمية تفتقر إلى عامل التواصل على المستوى الإنساني.

اخترت (الكاوتشسيرفينج) في هذه الرحلة لسببين. أولاً: لأنني لست واثقة تمامًا من مواعيد وصولي إلى المدن المختلفة، وهناك فرصة كبيرة أن تتغير خطتي جزئيًا وربما كليًا في الأيام المقبلة. وثانيًا: لأنني لا أنتوي البقاء في أي مدينة أكثر من ليلتين، وهو وقت غير كافٍ بالمرّة لمعرفة أي مدينة، وبالتالي فوجودي وسط أهل البلد يمنحني فرصة التعرف بشكل أعمق وأقوى على الثقافة الهندية، بعيدًا عن الأماكن السياحية المعتادة والتي أنوي المرور بها مرور الكرام فقط.

هكذا عثرت على الصفحة الشخصية لـ(سانجيتا) في أثناء بحثي عن من يقبل استضافتي في مدينة (بانجلور)، وتحدثنا عبر (الواتس آب) في الأسابيع القليلة السابقة لسفري، حيث تبادلنا أطراف الحديث عن عملها فهي تعمل طبيبة للتخدير في أحد المستشفيات القريبة، وفوجئت ما إن أخبرتها عن الهدف من وراء رحلتي أنها أيضًا تهوى ركوب الموتوسيكلات، بل وتمتلك أيضًا نفس نوعية الموتوسيكل الذي أنوي استئجاره هناك (الرويال إنفيلد)!

تعيش (سانجيتا) في الدور الأرضي من المنزل الصغير، فما إن عبرنا البوابة الحديدية القصيرة حتى وجدت الموتوسيكل (الرويال إنفيلد) أسود اللون يربض في الساحة الأمامية الصغيرة للمنزل. لما سألتها عنه في وقتٍ لاحقٍ من تلك الأمسية أخبرتني بأنه كان ملكًا لزوجها الراحل، الذي توفي بشكل مفاجئ في السنة الماضية،

فقد كانا يرتحلان معًا، كل على موتوسيكل، فلما توفي قررت أن تباع الموتوسيكل الخاص بها، وتحفظ بموتوسيكل زوجها لقيمتها العاطفية بالنسبة لها. امتنعت عن الاستفسار عن تفاصيل أكثر احترامًا للأسى الذي اكتسى به صوتها وهي تحكي عنه، وانتقلت إلى الحديث عن خطة سفري المقبلة والمدن التي أنتوي زيارتها، فشاركنتي ببعض الأفكار عن الأماكن التي زارتها بنفسها، وأبدت استعداداتها لاصطحابي في أول بضعة كيلومترات خارج المدينة على الموتوسيكل الخاص بها.

وفرت (سانجيتا) لي حجرة خاصة، تتوسطها مرتبة صغيرة على الأرض، كسرير بدائي مرتجل للنوم، وبها مكتبتان في جهتين مختلفتين من الحجرة، مما يوحي بأنها تستخدم كغرفة مكتب في بعض الأحيان بدلاً عن المكتب الذي يستقر الآن في صالة المنزل الصغير. هناك حجرة أخرى بالمنزل تحتلها (سانجيتا)، ومطبخ مفتوح على الصالة على الطراز الأمريكي. بعد أن ارتشفتُ رشفتين من أثقل شاي تذوقته في حياتي، إكرامًا لمضيفتي التي أعدته للترحاب بي، استأذنتها في الخلود إلى غرفتي للنوم، فقد كان اليوم مرهقًا بحق وعنده استعدادات مهمة يجب تدبُّرها في الغد. يتساءل البعض: كيف يغمض لي جفن في منزل غريب لم أقابل أصحابه قبل أقل من ساعة واحدة؟ حسنًا، إن نفس التساؤل يدور في ذهني كذلك، ولكن لا طاقة لي بالبحث عن إجابة بعد ثماني عشرة ساعة من السفر! الشيء المؤكد هو أنني نجوت بالتأكيد، والدليل أنني أكتب لكم هذه السطور الآن!

# في حضرة الشاه كابور

بانجلور - ديسمبر 2019

صحوث في تمام السابعة والنصف مُصابةً بذلك الارتباك المصاحب للاستيقاظ في مدينة جديدة بعد رحلة مُرهقة بدنيًا. المرة الأخيرة التي نعمت فيها بغفوة قصيرة كنت أطيّر فوق بحر العرب في طريقي إلى شبه القارة الهندية، وها أنا ذا أستيقظ في بيتٍ غريب في صُحبة سيدة غريبة في مدينة أُغرب. تأملت الحجرة غير المتكلفة من حولي. كانت الشمس تبعث بضوء خفيف يكفي لإنارة عتمة الغرفة. استغرقت بعض الوقت لأستجمع أفكارى وأراجع خطة اليوم، إلى أن شعرت بحركة خفيفة في الصالة، فارتديت ملابسى وخرجت لأجد (سانجيتا) في كامل هيئتها استعدادًا للخروج.

استقبلتني (سانجيتا) في الصباح بابتسامتها الرائعة متسائلة إن كنت نعمت بنوم هادئ، فتذكرت على الفور تلك المخلوقات العملاقة، وقد اصطفت طوال الليل وراء الشبكة الحديدية التي تغطي إطار النافذة المجاورة لمرقدي، وهي على أهبة الاستعداد لافتراسي حية. لم يكن هذا كابوسًا يا سادة، تلك المخلوقات كانت موجودة بالفعل وتدعى (البعوض). وقبل أن تسترجع ذاكرتك صور ذلك البعوض لطيف المعشر في حجمه الدقيق الذي نعرفه في بلادنا الحبيبة، دعني أثري خيالك بمعرفة فصيل مختلف تمامًا من البعوض الهندي، يصل حجم البعوضة منها إلى بوصة كاملة، مما يثير الهلع حقًا، شكلاً وموضوعًا، لا سيما إذا كنت تُعاني حساسيةً ضد قرصات بعض أنواع البعوض والحشرات مثلي!

نعم عزيزتى (سانجيتا)، لقد نمت ملء جفني في منزلك المحاط بالنباتات الجاذبة بطبيعتها للبعوض، وإنى لشاكرة حقًا لصلابة تلك الشبكة الحديدية التي دَعَمَت بها نوافذ المنزل، فلولاها لما صمدت أمام لدغة واحدة أخرى، تكفيني تلك القضة اللطيفة التي تحتل منتصف ذراعي الأيمن، مُخَلَّفَةً ورمًا دائريًا قطره ثلاثة سنتيمترات -لا بد أنني تعرضتُ

لتلك الهجمة الغاشمة في أثناء دخولي إلى المنزل في المساء- وتكفيني كل الكوايس التي أنارت مخيلتي في أثناء الليلة عن احتمالية أصابني ببعض إن لم يكن كل الأمراض التي ترصدها موسوعة طب المناطق الحارة من أول الملاريا وحتى الشيكونجونيا!

مددت ذراعي المصابة إلى (سانجيتا)، فهي طبيبة على كل حال حتى وإن كانت طبيبة تخدير، فتركنتني وغابت في حجرتها للحظات ثم عادت لتناولني زجاجة بيضاء صغيرة لمستحضر طبي طارد للبعوض، ونصحتني بشراء عبوة مماثلة والاحتفاظ بها معي لبقية الرحلة تحسبًا لأي هجمات أخرى. احتفظت باسمه وقررت البحث عنه في أول صيدلية أمرُّ بها في الأيام المقبلة، من يدري لعلها تنقذ لي ذراعًا أو قدمًا من قضمات البعوض العملاق يومًا ما. لاحقًا اكتشفت أن هذا المستحضر -اسمه (أودوموس)- هو هدية الهند للبشرية جمعاء دون أي مبالغة! فهو لطيف الرائحة، مناسب للأطفال ولا يضر بالبشرة، ويطرد البعوض من حولك لمسافة أميال، وكأنه طاقة إخفاء، ما إن تضعه فوق جسدك حتى يُداري رائحتك عن أنوفهم المتعطشة للدماء!

ارتديت ملابسني في عجالة، فقد عرضت على (سانجيتا) أن تصحبني في سيارتها، وهي في الطريق إلى العمل، إلى السوبر ماركت القريب من المنزل، وذلك بعد أن حكيت لها في المساء عن معاناتي مع الطعام الهندي الحار. كان عليّ التزود ببعض البسكوت والمقرمشات الخفيفة لتسد جوعي إلى حين أعتري على غذاء مناسب. ترجلت من السيارة على الجهة المقابلة من السوبر ماركت الصغير، و(سانجيتا) تسألني: «تتعرفني لوحدك؟». فابتسمت قائلة في استنكار: «أنا من القاهرة!». بالرغم من ثقتي أنها لم تزُر القاهرة ولا تعرف حالة المرور الجحيمية هناك، إلا أنها كانت إجابة أفضل من «ده أنا من شبرا» على أي حال!

نيودلهي - نوفمبر 2007

في أول يوم لي بالهند، وقعت أمامي واقعة أصبحت منذ ذلك اليوم من فرط سخافتها وعبثيتها هي الحادث المعياري أو ال benchmark الذي أقيس عليه كل الحوادث

المرورية التي شهدتها بعد ذلك في شوارع العالم بوجه عام والشوارع المصرية. ذلك أننا كُنَّا نمر بالسيارة من أحد الشوارع الجانبية في العاصمة (نيودلهي)، فإذا بـ(توكتوك) يسير في طريق مستقيم على الجهة اليمنى من الشارع، وتقبله في الاتجاه المعاكس سيارةً تسير على نفس الطريق ولكن جهة اليسار، وفجأة، يصطدم التوكتوك بالسيارة مباشرةً، رأسًا لرأس، دون أي أسباب منطقية واضحة! كان الأمر أشبه بنطاح الثيران لا بعربات تسير في شوارع ذات إشارات واتجاهات وحارات، وكل ما إلى ذلك من تخطيط المدن الحديثة. أنه لأمر يهز وطنيتك ذاتها، بعد أن ترعرت كونها مواطنة مصرية على ثقافة العشوائية والغوغائية المرورية، حتى ظننت أن المرور في مصر قد بلغ من العبث منتهاه، وأصبح يُضربُ بنا المثل في ذلك مقارنة ببقية العالم المعمور، أن تكتشف بين عشية وضحاها أن ذلك ليس صحيحًا بالمرّة، وأن هناك دولة ما على كوكب الأرض تفوق بني جلدتك عبثًا وعشوائية!

الحقيقة أن الحركة المرورية في الهند تتمتع بسُمعة عالمية، وهي ليست بالسُمعة الجيدة للأسف. ففضلاً عن تفرُّدها ببعض من أكثر مدن العالم ازدحامًا على الإطلاق، مثل (نيودلهي) و(بانجلور)، كانت نوعية المركبات التي تنطلق في الشوارع هنا تختلف كثيرًا عن تلك المستخدمة في البلدان الأخرى. فعندك على سبيل المثال (الركشة)، وهي عربة تشبه عربة الحنطور، إلا أن من يجرها هنا ليس حصانًا، بل دراجة هوائية يقودها أغلب الأمر رجل نحيف الجسد، متداعي الأوصال، يكاد يُصاب بأزمة قلبية مع كل دورة لعجلاتها من فرط الإجهاد وسوء التغذية. وهذا النوع من المركبات في سبيله للانقراض على كل حال؛ إذ حلَّ محله التوكتوك، الذي يطلق عليه هنا (الأوتو-ريكشه)، وهو يعد من وسائل المواصلات الرئيسية هنا، يمرون كالزواحف بين السيارات عن اليمين وعن اليسار في كل الشوارع، سواء الرئيسية أو الفرعية منها، وهم دائمًا يتصدرون الصفوف الأولى في كل إشارة، لا ينافسهم في ذلك سوى الدراجات النارية، التي تجوب الشوارع في أعداد رهيبه لا تُعدُّ ولا تحصى. يقال: إن كل هندي يمتلك دراجة نارية من نوع ما، حتى لو كان يمتلك

سيارة، فالسيارة تناسب العائلة، أما مشاويره الفردية فيفضل أن يستخدم الدراجة النارية للتغلب على الزحام.

في يوم آخر من أيامي في العاصمة (دهلي)، صادفني مشهد آخر بلغ معه العبث المروري منتهاه. كنت أستقل سيارة أجرة تسيّر بي في أحد الشوارع الرئيسية الكبرى، حين بدأ ظل رهيب يخيم على السيارة من جهة اليمين. في البدء ظننته حافلة أو سيارة نقل ضخمة تقترب بمحاذاة سيارتنا، وتجاهلت الأمر تمامًا، هذا إلى أن أدت رأسي فجأة جهة الظل العملاق فقط لأرى زلومة فيل تتدلّى بمحاذاة نافذتي!

نعم يا سادة، الأفيال هنا جزء من المشهد المروري في الهند، وإن كان مشهدًا غير معتاد كثيرًا، ولكن حظي السعيد قادمي إلى رؤيته بأمر عيني في ذلك اليوم. يحق لكم أن تسألوني إذن عن القرد: هل رأيت قردًا في الهند؟ نعم، كانت تعبر نهر الطريق أمام السيارات في وضوح النهار بمنتهى الثقة والأريحية، حتى تخيلتها ترتدي السراويل والقمصان! ماذا عن الأبقار؟ حسنًا، الأبقار بطيئة نوعًا إن كنت لا تعرف، لذلك يشكل وجودها مُعضلة مرورية حقيقية، ولكن للأسف هي مُعضلة لا نستطيع فعل أي شيء حيالها سوى الانتظار؛ فالأبقار المقدسة هنا لا يجوز نهرها أو حثها على الحركة من مكانها إن لم تُرد هي ذلك طواعية. النتيجة؟ انتظر البقرة حتى تمر. هذه أيضًا ستمر! الدنيا لن تطير (يار)! (كلمة هندية تعنى «يا رفيق!»).

بانجلور - ديسمبر 2019

خرجت من السوبر ماركت، الذي هو أقرب إلى بقالة كبيرة نوعًا، محملة بصيد ثمين: علبة من الجبن المطبوخ، التي نطلق عليها في مصر اسم (جبن مثلثات)؛ لأنها تُعبأ في شكل مثلثات مغلقة، إلى جانب كيس من الخبز، وقطع الموز المجفف. لماذا هو كنز ثمين؟ لأنني من اثني عشر عامًا لم أتمكن من العثور على أي أثر للجبن في الأسواق الهندية، وهو أمر غريب حقًا، خاصةً أن هذه البلاد تُعدُّ من أكبر منتجي ومُصدّري الألبان في العالم! ولكنهم لا يصنعون الأجبان، على الأقل الأنواع المعروفة بالنسبة لبقية دول العالم؛ فمن المثير أن

الهنود لا يعرفون سوى نوع واحد فقط من الجبن المحلي، يُسمَّى (بانير) (Paneer)، وهو جبن صلب القوام، لا يذوب أبدًا، يُصنَّع بالمنزل، لذلك قلما وجدته بصورة تجارية مغلّفة، وهو يُستخدم نفس استخدام البروتين، فيُطهى مثله مثل قطع الدجاج مع الصلصلة بأنواعها وألوانها المختلفة، لا سيما في الأطباق النباتية. لذلك كانت فرصة عثوري على نوع ما من أنواع الأجبان في السوبر ماركت هي نفس فرصة عثوري على طبق من لحم الخنزير على مائدة رحمن في ساحة مسجد الحسين! أقول: «نوع ما من أنواع الأجبان»، وأقصدها حرفيًا؛ لأنني حين تذوّقتها لاحقًا لم أتمكن من تحديد الفرق بينها وبين ممحاة القلم الرصاص!

استكملتُ الطريق سيرًا على الأقدام في محاولة للعثور على محطة المترو. يشير تطبيق ال (GPS) على هاتفي إلى أنها تقع على بعد كيلومتر ونصف تقريبًا. كنت أرى الجسر الخاص بالمترو المعلق يمر من فوق الشارع الرئيس. كان هذا الطراز من القطارات التي تجري على قضبان معلقة يميز مدينة (دبي) على سبيل المثال، على عكس المدن الأوروبية مثلًا التي يغلب فيها مترو الأنفاق أو الترام الأرضي، وإن كان عندي شك عظيم أن يكون المترو هنا في مثل أُنّاقة ونظافة مترو (دبي). ولكن الهنود مرة أخرى خيبوا توقعاتي.

ما إن عبرتُ بوابة التفتيش الصغيرة على مدخل المحطة حتى انتقلت مرةً أخرى نقلة حضارية مُبهّزة، تعادل تلك النقلة التي واكبت وصولي لمطار (إنديرا غاندي). أبهرتني نظافة واتساع المحطة، واللافتات اللامعة، والخرائط الموضحة لمسارات المترو، الشاشات الإلكترونية التي تعرض بالتناوب خطة السير، واسم المحطة التالية، وتنبهات السلامة، يصاحبها صوت أنثوي ناعم يعلن اسم كل محطة حال الوصول إليها. أما عربات القطار الحديثة، فقد حَلَّتْ جدرانها من رسائل حب (أحمد) و(منى)، وشعارات (يسقط النظام) المجاورة لملصقات (إلا صلاتي) وإعلانات (أكاديمية السباحة) التي تزخرف عادةً عربات مترو (القاهرة). جلست في مكاني بحبور منقطع النظير، أستمتع بمساحتي الشخصية التي لا تخترقها نظرات التحديق والفحص والتمحيص التي اعتدت استقبالها ببلادة تامة في بلادي، ولا يعكر صفوها احتكاك (فخد) الجالس بجواري بجانبني؛ في الغالب أفسر ذلك

بوجود علةً تشريحية تصيب الذكور المصريين بشكل خاص، ولا يعلم سببها إلا الله تمنعهم من صَم أرجلهم في سلام! أنتظر في ترقُب، طوال مدة الرحلة، الدخول المفاجئ لأحد الباعة الجائلين، ليَشْفُ آذان الموجودين بصوته الجهوري مُناديًا على بضاعته من الفلاية التي تصطاد مئة قملاية، إلى الكريم السحري الذي يفرد الشَّعر ويُنعَم البَشرة، ويقتل الصراصير في آنٍ واحد. تمر المحطة وراء المحطة ولا يظهر منهم أحد. عجيب أمركم أيها الهنود!

مرّت عشرون محطةً بالتمام والكمال، نقلتني من أقصى جنوب مدينة (بانجلور) لأقصى شمالها، حتى وصلت أخيرًا إلى محطة تدعى (Peenya industry)، وهي أقرب محطة تمكّنتُ من رصدها على الخريطة تُقَرِّبني من موقع (راچيف). لم أتصوّر أن المسافة ستكون بهذا البُعد، ولو كنت أعرف ذلك لما اخترتُ الإقامة في ذلك الحي البعيد الذي تقطنه (سانجيتا). لقد استغرق الأمر أكثر من ساعة ونصف، وهذا بالمترو على سرعته وخُلو طريقه، فما بالك لو كنتُ اخترت وسيلة مواصلات أخرى؟!

الحقيقة أن الاختناق المروري في (بانجلور) عظيم الشأن، يعاني منه كل سكانها أيًا كان موقعهم، بل إنها تحتل المرتبة الأولى بين مدن العالم أجمع كأكثر المدن ازدحامًا، حتى إن آخر الإحصائيات تشير إلى أن متوسط عدد الساعات التي يقضيها المواطن البنجالوري في المرور في ساعات الذروة فقط دونًا عن الأوقات العادية يصل إلى 243 ساعة سنويًا؛ أي ما يزيد عن عشرة أيام كاملة. قارن ذلك بالقاهرة مثلًا، فالقاهريون يقضون نصف هذا الوقت فقط في الزحام، وهي تحتل المرتبة الـ36 في نفس التصنيف. تذكرت ذلك في المرة التالية التي علّقت فيها فوق كوبري (أكتوبر) بالقاهرة فلفحتني نسمات بالامتنان والإيمان بقضاء الله.

طلبت سيارة أجرة من تطبيق (OLA) مرة أخرى، حملتني إلى العنوان الذي أرسله لي (راچيف) قبل أسابيع كمكان للقاءه. دلفت السيارة إلى طريق خاص تحاوطه أشجار كثيرة، ليتكشف أمامنا رويدًا رويدًا مجمع سكني فاخر من ثلاث بنايات شاهقة. ما إن توقفت

السيارة أمام المبنى المحدد على الخريطة، حتى لمحت رجلًا خمسينيًا، أشيب الشعر، أنيق الثياب على بساطتها، يقف على الجهة المقابلة للمبنى، ويتبادل الحديث مع زوجين من الأجنب. التفت لينظر إليّ بينما أترجل من السيارة، ثم انفرجت أساريره عن ابتسامة مُرَحَّبَة وهو يستأذن من مرافقيه في الانصراف، ليتقدم منّي ويعرفني بنفسه:

• أهلاً (شيرين)، أنا (راچيف)!

أشار إلى مدخل البناية، فتبعته إلى الداخل، وجلسنا في البهو الفاخر المشابه لصالات استقبال الفنادق. عرفت (راچيف) قبل أربعة أسابيع فقط، عن طريق بعض أصدقائي من قائدي الموتوسيكلات. كان يدير نشاطًا سياحيًا منتشرًا في الهند، ألا وهو تنظيم رحلات للموتوسيكلات من نوعية (الرويال إنفيلد) الهندية للهنود والأجانب على حدّ سواء، كما يؤجّر الموتوسيكلات لمن يرغب في الترحال وحيدًا دون الانضمام إلى رحلة منظمة. تواصلت معه إلكترونيًا، فأخبرته برغبتي في القيام برحلة بمفردي في جنوب الهند، وحددت له نوع الموتوسيكل ومواصفاته، ثم أتممتنا الاتفاق على تفاصيل استلام الموتوسيكل من حيث الزمان والمكان، وقيمة الإيجار لعدد أيام الرحلة، إلخ. كل هذا كان عن طريق الرسائل الإلكترونية فقط، دون حتى أن نتحدث هاتفياً، حتى إن الأمر برمّته بدا لي خياليًا بعيدًا عن المنال. ولكن ها أنا ذا، أجلس أمامه بشحمه ولحمه، على بُعد خطوات من الموتوسيكل الموعدود!

تحدّثنا قليلاً عن خط سير الرحلة، وتفاصيل تسليم الموتوسيكل لدى انتهائها، كما زوّدني مشكورًا ببعض المعلومات عن الطرق والأماكن التي تستحق الزيارة على مسار الرحلة، ثم دعاني أن ننتقل إلى الجراج الخاص بالمبنى لمعاينة واستلام الموتوسيكل. كانت تلك لحظة محورية في الرحلة، لحظة لقاء رفيقي الوحيد في الأيام المقبلة. حين يُردّد البعض مقولة «اختر الرفيق قبل الطريق» أشك أن أحدًا منهم فكّر يومًا في أن يكون هذا الرفيق جمادًا من حديد. ولكن من قال: إن قائد الموتوسيكلات يرى الموتوسكيل -أي موتوسيكل- كتلة صماء من حديد؟! نحن معشر

(البايكرز) - كما يُطلق علينا- نرى الموتوسيكل فردًا مستقلًا بذاته، فإن له -بالنسبة لنا على الأقل- شخصية، حتى وإن لم يمتلك روحًا. قد نصف الموتوسيكل بالعنف أو اللين في معاملته معنا، بالطواعية أو الشدة في استجابته لنا، نحبهم حب الأفراد، نعدهم فردًا من العائلة -وهو ما يثير الكثير من الغيرة أحيانًا، ونخاف عليها من السرقة أو الإتلاف كأولادنا.

ها هو هناك، يقف في شموخ، بحارة مستقلة بالجراج، تبدو عليه أمارات التمرس في السفر، لا سيما مع الحقيبتين الضخمتين المتدليتين من جانبه على غرار حقائب السرج التي استخدمها رعاة البقر قديمًا في أثناء أسفارهم الطويلة على أظهر الجياد. قليلًا ما يفكر المرء في أن الموتوسيكلات هي الامتداد العصري للجياد، فالكثيرون يرونها مجرد تطور ميكانيكي للدراجات الهوائية، وهو أمر صحيح تمامًا، فإنما صُنِعَ الموتوسيكل الأول في العالم بعد إضافة محرك صغير لدراجة هوائية. ولكن من الناحية الثقافية، وأقصد هنا الثقافة المتعلقة بالطقوس والتقاليد المصاحبة لقيادة الدراجات النارية وأصحابها؛ فهي أقرب في ذلك لثقافة ركوب الخيل. فالموتوسيكلات تقوم اليوم بذات المهمات التي اختصت بها الجياد في العصور السابقة، تحمل الأمتعة على جانبيها، وتنطلق بسرعات عالية، تتغذى كل فترة معينة -إنما ندعوها اليوم محطات الوقود- ويمسك بزمامها الفرسان كما نمسك اليوم بمقودها في حزم.

كان الموتوسيكل يغلب عليه لون كريمي هادئ، متماشياً مع الحقائب الجانبية خاكية اللون، وقد حمل جانبي خزان الوقود لوناً أحمر داكناً، مختوماً بشعار (رويال إنفيلد)، وهو الاسم الذي منحته له بلدة صغيرة قريبة من لندن تدعى (إنفيلد)، ومصنع للسلاح الإنجليزي يدعى (مصنع السلاح الملكي) أو (Royal Small Arms Factory). كانت الشركة الإنجليزية والتي تغيّر اسمها في وقت لاحق إلى (رويال إنفيلد) تمد الجيش الإنجليزي إبان الحرب العالمية الأولى ببعض القطع المستخدمة في تصنيع السلاح، ثم اتجهت لتصنيع الدراجات الهوائية، ومن بعدها الدراجات

النارية، حتى أصبحت بين عشية وضحاها المورّد الأول للموتوسيكلات المستخدمة من قبل الجيش الإنجليزي طوال فترة الحربين العالميتين الأولى والثانية.

كان الموتوسيكل في وقفته وهيئته يبدو وكأنما الزمن توقّف به في العقد الأول من القرن السابق. إن شئت الدقّة، لقد توقّف به الزمن عام 1931م تحديدًا، فهو العام الذي أنتج فيه أول موتوسيكل من تلك الفئة التي يطلق عليها اسم (بوليت) (Bullet) أو الطلقة في إنجلترا. من المثير أن تصميمه الخارجي لم يتغير إلا قليلاً منذ ذلك العام، لذلك فهو الموتوسيكل الوحيد في العالم الذي يُصنّع بشكل متواصل منذ 75 عامًا أو يزيد، لم يتوقف إنتاجه يومًا واحدًا، حتى إنه شارك بفاعلية في الحرب العالمية الثانية مع الجيش الإنجليزي كونه وسيلة للمواصلات والنقل، كما شارك مع القوات الجوية الملكية، فكان يُنزل باستخدام المظلات خلف خطوط الأعداء، فضلًا عن فوزه بعدد كبير من السباقات المحلية والدولية. وحتى مع انتقال الشركة المالكة له من إنجلترا إلى الهند، ظل إنتاج (البوليت) في تزايد مستمر حتى أصبح الموتوسيكل الأحب في الهند، بل وأصبح له ما يشبه الطائفة أو (cult) من قائدي الدراجات في الهند، فصارت مكانة (الرويال إنفيلد) للهنود في نفس مكانة (الهارلي) للأمريكان.

تسبب هذا التصميم الذي يجعله ظاهرًا يبدو متهاكًا عتيق الطراز في أول مشكلة لي. فحين أرسلت صورته لأبي في مصر أصابه الذعر، معتقدًا بأنني قد استأجرت موتوسيكل خُرْدة لن يتحرك عشرة كيلومترات قبل أن يتوقف على جانب الطريق. وكان المشكلة هنا هي عمر الموتوسيكل، لا كوني سأنتقل به من مدينة إلى مدينة بمفردتي دون أي دليل سوى تطبيق جغرافي على هاتف محمول!

بعد أن قمتُ بفحص سريع للموتوسيكل، تأكّدتُ معه من عدم وجود أي تسريبات زيت أو أصوات غير مريحة مع دورة الموتور، وتأكّدت من سلامة الفرامل والمساعدين والإشارات الأمامية والخلفية، فتح (راچيف) الصندوق المعدني الصغير

الموجود تحت الكرسي، ليريني الأوراق الخاصة به من تسجيل وتأمين، وعُدّة أدوات صغيرة من مفكات ومفاتيح وخلافه، ثم أغلقه بالمفتاح وناولني إيّاه. هل هذا هو كل شيء؟ سألته ماذا أفعل في حالة حدوث عطل على الطريق؟ فأخبرني بأن عليّ أولاً أن أتصل به، فربما كان العطل بسيطاً ويستطيع أن يساعدني في إصلاحه عن طريق خطوات بسيطة يملئها عليّ في التليفون. أما الحل الثاني المقترح فهو أن أبحث عن طريق ال (GPS) عن أقرب ورشة (رويال إنفيلد)، وهناك العديد منهم في كل مدينة على طريقي، وسيتواصلون معي للمساعدة. ساورني الشك تجاه هذا الاقتراح الأخير، فنحن في الهند على كلّ حال، بل في جنوب الهند على وجه التحديد! ولكن أوان التراجع قد فات. هكذا تناولت المفتاح في تردّد، واكتفيت بالدعاء في سري ألا أتعرض لأية أعطال جسيمة خلال الرحلة.

تركّث الموتوسيكل مكانه، بعد أن نقدت (راچيف) أجره، وأعاد هو على مسامعي تفاصيل تسليمه في إحدى بلدات إقليم (غوا) بعد عشرة أيام بالتمام والكمال، ثم انطلقنا معاً في سيارته الخاصة في رحلة قصيرة إلى معرض (رويال إنفيلد) قريب، حتى أقوم بشراء خوذة جديدة وسترة حماية. في الطريق سألت (راچيف) عن عمله في الموتوسيكلات. أخبرني بأن رحلات (الرويال إنفيلد) تحظى بشعبية واسعة في الهند، سواء للأجانب عن طريق الشركات السياحية مثل شركته، أو للهنود عن طريق مجموعات فردية من قاندي (الرويال إنفيلد) وما أكثرهم في الهند. تلك الرحلات لها مسارات محددة، ثلاثة منها تقع في شمال الهند، حيث يتسلّق الدراجون جبال الهيمالايا العظيمة بداية من العاصمة (دهلي) ووصولاً إلى بلدي (مانالي) Manali و(ليه - لاداخ) Leh-Ladakh الشهيرتين. ومنها مسار يقطع صحراء (راچاستان) Rajasthan في وسط الهند، وأخيراً ذلك المسار الجنوبي الذي اخترته أنا لملاءمة ظروف الطقس في هذا الوقت من العام. أما (راچيف)، فقد كشف لي أن عمله الأساسي في الواقع هو مدير إقليمي لأحد متاجر الأثاث العالمية الكبرى، وهو منصب كبير، يتيح له العيش في تلك الرفاهية التي شهدتها بمحل إقامته ونوع سيارته، كما

يتيح له سعة من الوقت تسمح له بإدارة هذا النشاط السياحي الجانبي الذي ورثه عن عائلة تعشق الموتوسيكلات أبًا عن جدّ.

خرجتُ من متجر الـ(رويال إنفيلد) محملة بخوذة رأس جديدة، في لون خاكي يتماشى تمامًا مع حقائب السرج المعلقة على جانبي الموتوسيكل، وسترة شتوية ثقيلة مبطنه بدروع حماية الظهر والأكتاف والكوعين كعادة سترات القيادة المخصصة. كانت الأسعار رخيصة بطبيعة الحال؛ لأنها مُصنَّعة محليًا في مصانع (رويال إنفيلد) بمدينة (شاناي) الشهيرة، فلا يتحمّل الشاري هنا عبء الضرائب التجارية الضخمة التي نتحملها في مصر لشراء أي مسمار يتعلق بالموتوسيكلات، كما أن الخامات كذلك ذات جودة عالية.

عُدنا إلى الموتوسيكل مرةً أخرى، فساعدني (راجيف) في تثبيت حامل للموبايل على المقود، وهي خطوة مهمة جدًّا؛ لأنني دون الموبايل وتطبيق الـ GPS لن أتمكن مُطلقًا من العودة مرةً أخرى إلى منزل (سانجيتا) على الطرف الأقصى من المدينة. ودعت (راجيف) للمرة الأخيرة، ثم أدرت المفتاح للمرة الأولى وأنا أمتطي صهوة الموتوسيكل. توقفت للحظة لأفكر في اسمه على نغمات صوت الموتور الرتيبة. لقد اعتدتُ أن أُنح كل موتوسيكل اسمًا، تمامًا كما يمنح الفرسان أسماءً لجيادهم، لتضيف عليهم قربًا وحميمية. في العادة تمنحني هيئة الموتوسيكل وشكله فكرة الاسم. هذه المرة فكرت في أن أسميه (شاه)، وهو لقب ملكي في اللغة الفارسية، امتدَّ عبر وسط آسيا ليصبح لقبًا عائليًا منتشرًا في عدة بلاد آسيوية لا سيما في الهند وباكستان، مما يتماشى مع معنى (رويال) في اسمه الأصلي، ثم قررتُ أن أضيف له اسم (كابور) بدلًا عن (إنفيلد)، للدلالة على أصوله الهندية، فـ(كابور) هذا من الأسماء المنتشرة في الهند لا سيما بين مشاهير النجوم في السينما الهندية مثل (شهيد كابور) و(أنيل كابور) و(كارينا كابور). عشاق السينما الهندية يحفظون تلك الأسماء عن ظهر قلب. هكذا صار اسم الموتوسيكل بالنسبة لي من اليوم هو (الشاه كابور)!

في صحبة (الشاه كابور) انطلقت للمرة الأولى في شوارع (بانجلور) المزدحمة. التجربة الأولى لقيادة أي موتوسيكل هي الأهم على الإطلاق، فإما أن تقع في غرامة، ولا تريد أن تتركه بعدها أبدًا، أو تنفر منه إلى الأبد. هذه المرة، وجدتُ الموتوسيكل عجيبيًا، صوت تكات المحرك يتردد داخل قلبك ذاته، هو أشبه بصوت طائرة هليكوبتر إن شئت الدقة! صوته المرتفع يكاد يُخدر عقلك مثل التنويم المغناطيسي من فرط رتابته. وزنه سهل ممتنع، ثقيل، شديد الثبات على الطريق مثل الموتوسيكلات اليابانية أو الأمريكية الضخمة فئة (الكروزر)، لكنه في نفس الوقت مرن، سهل المناورة، وكأنه سكوتر صغير الحجم. يبدو أنني سأقع في غرام هذا الموتوسيكل بسهولة. وحدها الأيام المقبلة ستؤكد ذلك.

قضيت ساعتين كاملتين في الطريق، أتبع الخريطة عبر طرق سريعة وشوارع ضيقة وتقاطعات متعددة وازدحام خانق، حتى وصلت أخيرًا إلى المنزل وقد قاربت الشمس على المغيب. ساعدتني (سانجيتا) على صف (شاهكابور) بجوار أخيه (البوليت) خاصتها، فاستقرا جنبًا إلى جنب في مدخل البناية يحميها السور الخارجي من السرقة.

تناولت قسطًا من الراحة بعد استحمام سريع لإزالة آثار الطريق، ثم طلبت سيارة أجرة لتحملني إلى ذلك المطعم الذي أرسل لي (قينيشر) عنوانه لتقابل هناك في المساء. ما إن خرجتُ من باب المنزل حتى اكتشفت أن السماء تمطر بغزارة لم أعهد لها سوى في أعتى نوات الإسكندرية، رغم الجو الدافئ المعتدل، فهرولت مرة أخرى إلى الداخل لأستعير من (سانجيتا) مظلة تحميني.

وصلتُ إلى العنوان المحدد بعد نصف ساعة تقريبًا لأجد مطعمًا فاخرًا، لم يسبق أن رأيتُ مثله في الهند. يبدو أن المطاعم السياحية هنا لا تشمل تلك الأماكن الفاخرة التي تتردد الطبقة العليا من الشعب! استقبلني (قينيشر) استقبال الفاتحين، فقد مرّ اثنا عشر عامًا كاملة مذ رأيتُه للمرة الأخيرة أمام بوابة معبد اللوتس في (نيودلهي)!

لم يتغير (فينيش) كثيرًا، ما زال يتحدث بنفس الحماسة والانبهار عن كل شيء وأي شيء. سرعان ما انضمت إلينا زوجته (بهاقنا) وابنته (قاري)، فقضينا أمسية عائلية لطيفة، تذكرونا خلالها أيام زيارته في مصر، وزيارتي السابقة للهند، وحدثوني عن حياتهم في (كينيا) التي قضوا فيها ثماني سنوات، وتبادلنا أخبار مَنْ نعرفهم من أصدقاء مشتركين في الهند ومصر.

امتدت السهرة حتى العاشرة والنصف، لم تتوقف الأمطار خلالها للحظة واحدة، ولم يتعطل المرور أو تتوقف الحياة كذلك، بل خرجت لأجد الزحام المعتاد لشوارع (بانجلور) قد هداً كثيراً، حتى إنني عدتُ إلى المنزل خلال ربع ساعة فقط لا غير. كانت (سانجيتا) ما زالت مستيقظة، فاتفقنا على موعد الرحيل غداً قبل أن أتمنى لها ليلة سعيدة وأدلف إلى غرفتي. لملمت حاجاتي وتأكدتُ من خطة الغد والاستعدادات اللازمة لليوم الأول في رحلتي الحقيقية التي تبدأ غداً في صحبة (الشاه كابور)، ثم رحْتُ أغط في نوم عميق.



# هاري كريشنا

بانجلور - ديسمبر 2019

استيقظت في تمام الساعة في نشاط أحسد عليه، فالיום هو بداية رحلتي الحقيقية، واليومان السابقان ما كانا إلا تحضيرًا وإجراءات لا بُدَّ منها للوصول إلى تلك اللحظة الفارقة، حين يسقط الدبوس فوق أول نقطة على الخريطة، ثم يتلوَّى منه خط دقيق يقطع الطرق والوديان وصولًا إلى دبوس آخر ومدينة أخرى.

لملمت متعلقاتي في أقل من رُبْع ساعة، وفتحْتُ باب الغرفة لأجد (سانجيتا) في منتصف الصالة، بشعر مُبعثر مبتل، وأسنان تصطك من فرط البرودة. للوهلة الأولى هالتي فكرة أن هطول الأمطار لم يتوقف منذ البارحة. كنتُ على استعداد تام للقيادة وسط الأمطار، فقد تزودت بطاقتي متكامل من الملابس المضادة للمياه تحسبًا لأية مفاجآت، لكنني بالتأكيد لم أتوقع أن يصاحب بداية رحلتي سيل منهمر لم يتوقف منذ الليلة الماضية، فهي بداية غير مُبشِّرة على الإطلاق!

تعودتُ قبل سفري، لا سيما خارج القطر المصري، أن أتحرَّى بدقة ظروف الطقس والحالة المناخية العامة للبلاد. وكان هذا الأمر شديد الأهمية بالنسبة للهند بالذات؛ نظرًا لمناخها المداري القاري المختلف تمامًا عمَّا نعرفه في الشرق الأوسط بل المختلف عن أغلبية دول العالم بالأساس، فبينما تشهد معظم دول العالم أربعة أنواع من الفصول؛ أي الشتاء والصيف والربيع والخريف، لا تعترف الهند سوى باثنتين منهما، وهما الصيف والشتاء، وفيما بينهما هو موسم ثالث، ذو طبيعة خاصة، يدعى (المونسون)، يتميز بالأمطار الموسمية الغزيرة التي تُغرق الهند كلها بين شهري يونيو وسبتمبر من كل عام. ومن فضول القول أن المنطقة الجنوبية من الهند، حيث تدور رحلتي، تحظى في العادة بنصيب الأسد من هذه الأمطار!

ولكننا في ديسمبر يا سادة، حيث نسبة سقوط الأمطار هنا لا تتعدى يومًا واحدًا في الشهر، هل صادف حظي العاثر أن يكون هذا اليوم الوحيد هو اليوم الأول لي في الرحلة دونًا عن كل الأيام؟ الحقيقة أن (سانجيتا) انتشلتني من أفكارى السوداء بتنويها بأنها قد عادت للتو من تدريب السباحة اليومي، وأنها بحاجة إلى ربع ساعة فقط لتكون على استعداد للتحرك معي. لقد ابتل شعرها بسبب تمرين السباحة إذن! في السادسة صباحًا!

استغلّيت تلك الربع ساعة الأخيرة في تحميل أمتعتي فوق الموتوسيكل. عملية رصّ الحقائق وربطها باستخدام الأحبال المطاطية ذات الأطراف الخطافية هي مهارة تعلمتها مع كثرة رحلاتي داخل مصر، وهي ليست دائمًا بالأمر السهل، والإهمال فيها قد يعرضني للمتاعب في وقت لاحق إذا ما انحلت الأربطة في أثناء سيرى على الطريق، لا سيما مع السرعة العالية والاهتزاز العنيف المصاحب لحركة الموتوسيكل. يجب أن تكون الأربطة محكمة تمامًا حول المتاع، والخطاطيف موزّعة بحكمة فوق نقاط إستراتيجية من هيكل الموتوسيكل بحيث لا تتحرك من مكانها مع الاهتزاز المتواصل، كما يجب أن تبتعد الحبال عن مصادر الحرارة مثل العادم والمحرك وإلا انقطعت. هكذا خرجت (سانجيتا) لتجدنا أنا والحبال مندمجين في صراع مقاومة، مع محاولاتي البائسة لإحكام ربطها حول حقيبة الظهر القماشية الضخمة التي تحمل أغلب أمتعتي، ثم محاولة أخرى لربط حقيبة الظهر الأصغر حجمًا من فوقها باستخدام شبكة البضائع المطاطية الصغيرة (cargo net). أخيرًا تمكنت من تأمين الثبات الكافي للحقيبتين فوق المقعد الخلفي للموتوسيكل، ثم قمّت بتثبيت حامل الموبايل وحامل الكاميرا الصغيرة على المقود. صار الموتوسيكل بكل ما يحمله من متاع وأجهزة أشبه بمركبة استكشاف صغيرة! تأكدت مرة أخيرة من الفرامل والزيت والذي منه. كل شيء في موضعه؟ إذن فقد دقّت ساعة الانطلاق في رحلة داخلية أخرى بين المدن بالهند، بعد سنوات من رحلتي الأولى بها، وإن اختلفت وسيلة المواصلات هذه المرة!

جايبور - نوفمبر 2007

كانت أول رحلة داخلية قمْتُ بها في الهند هي رحلة برية (Roadtrip) من (نيودلهي) إلى مدينة (جايبور)، في ضُحبة أحد الأصدقاء ويدعى (سانچاي)، تصحبنا زوجته (ميهر) ووالدتي. كل شيء في تلك الرحلة يُذكّرني برحلات العائلات المصرية النموذجية إلى (الإسكندرية) أو (رأس البر) في مطلع العقد الأخير من القرن الماضي، بداية من سيارة (سانچاي) الحمراء الصغيرة تسعينية العمر، إلى قائمة الأغاني الإنجليزية الثمانينية التي تدوي من كاسيت السيارة العتيق، إلى ثرثرة (سانچاي) اللانهائية عن الهند واقتصادها وماضيها وحاضرها ومستقبلها، إلى (ترموس) الشاي والساندويتشات التي أُصرت (ميهر) على تجهيزهما في الصباح كأى زوجة هندية أصيلة!

كان (سانچاي) رجلًا أربعينيًا ضخم الجثة، شديد السمرة، انتابني مشاعر ألفة غريبة في المرة الأولى التي وقع فيها نظري عليه، وقضيت أيامًا أحاول أن أربط بينه وبين كل من أعرفهم فلا يتبادر اسم معين إلى ذهني، إلى أن لفت نظري خبر على أحد المواقع المصرية يصاحبه صورة الرئيس المصري السابق حسني مبارك، فضربت جبهتي براحة يدي في غير تصديق! إن التشابه المريب بين (سانچاي) و(مبارك) في الملامح والقسمات لا تخطئه العين، حتى لتظنه توأمه الهندي المفقود. كيف غاب ذلك عن بالي طوال تلك الفترة التي قضيتها معه في الهند؟!

يعمل (سانچاي) في التجارة بشكل أساسي، وإن كان من الصعب كما هي العادة مع الكثير من الهنود أن تعرف ماهية تجارته بالتحديد، فقد عهدت الهندي لا يضع البيض كله في سلة واحدة، بل يستثمر في أكثر من نوع من التجارة. قد يكون موظفًا عاديًا بشكل أساسي إلا أنه يمتلك (بيزنيس) خاص -وربما أكثر- يشارك فيه آخرون، هم في الغالب من الإخوة أو أولاد العم.

يتحدث (سانچاي) عن كل شيء في الهند باعتزاز وفخر كبير. يربت على مقود سيارته وقد انتفخت أوداجه وهو يعلن أنها من ماركة (تاتا)، إمبراطورية الصناعات الهندية التي

تقدم منتجات وخدمات في كل المجالات تقريبًا من كيماويات واتصالات وأجهزة إلكترونية وسيارات وملابس وأغذية، إلخ.

## • Number on in India! Number one!

يضيف (سانجاي) في إعزاز، مؤكدًا أنها السيارة الأولى -أو الأفضل- في الهند على الإطلاق. يقولها وهو يهز رأسه محررًا ذقنه من اليمين إلى اليسار عدة مرات، في حركة متذبذبة لا تعرف معها إن كان موافقًا أم مُعترضًا على الكلام -حركة ال (head wobbling) الهندية الشهيرة. نمر بأحد الأسواق فيخبرنا بأن به أفضل محال الأقمشة والمجوهرات في البلد، فهو السوق (نامبر وان في الهند). أشتري بعض الخبز فيؤكد أنه أفضل خبز يمكنني تذوقه على الإطلاق، فهو ببساطة (نامبر وان في الهند).

أما الزوجة (ميhero)، فكأنما اجتمعت فيها صفات الزوجة المصرية والهندية معًا؛ ذات وجه دائري طيب الملامح، وعينين حانيتين كحيلتين، ترتدي الكثير من الحلي في صدرها وذراعيها، وما يعادلهم من المكياج فوق شفاها ووجنتيها. تلبى طلبات زوجها دائمًا بحماس في أي أمر يتعلق بمأكل أو مشرب، وتلمي عليه طلباتها بنفس الحماسة حين يتعلق الأمر بالشراء أو المشاوير. تعتبر (ميhero) كتالوج متحرك للعلاقات الاجتماعية، تعرف أخبار كل العائلة القريبة منها والممتدة، والتي قد يصل عدد أفرادها بسهولة إلى 1400 شخص ما بين قريب ونسيب، وتحفظ مناسباتهم وتجاهلهم فيها دائمًا فردًا فردًا ولو بمكالمة تليفون.

المدينة الوردية، كما يطلق على (چايبور)، وهي عاصمة واحد من أكبر أقاليم الهند ألا وهي ولاية (راچاستان) التاريخية، كانت حقًا اسمًا على مسمى، حيث يطغى اللون الوردى على غالبية أبنيتها. أسرتني المدينة من اللحظة الأولى، فقد بدت في شوارعها الفسيحة المستقيمة، وبنائاتها قليلة الارتفاع، وردية اللون، مزخرفة الجدران، كمدينة موصوفة في حكايات السندباد، حتى شعرت أنني أركب بساطًا طائرًا يطفو فوق سمائها، لا سيارة (سانجاي) التاتا الحمراء الصغيرة! سرعان ما تأكد لدي ذلك الإحساس ما أن توقفت بنا السيارة أمام مبنى عظيم المعمار، يرتفع إلى خمسة طوابق من الحجر الرملي الأحمر

الوردي، تتشكل واجهته بالكامل من مجموعة دقيقة من النوافذ يبلغ عددها 953 نافذة، يقال إنها كانت تُستخدم من قبل النساء أو (الحريم) لمراقبة الحياة اليومية في الشوارع دون أن يراهم المارة، في غاية مطابقة تمامًا لفكرة المشربيات في المعمار الإسلامي. كان هذا هو (هوا محل)، أو (قصر الهواء)، في إشارة لدور تلك النوافذ الدقيقة في تمرير الهواء بجميع أنحاء القصر ليظل باردًا حتى في أشد الشهور حرارة ورطوبة!

إلى جانب (هوا محل) تتمتع مدينة (چايبور) بعدد كبير من المزارات السياحية، تسجل منظمة (اليونسكو) الكثير منها على لائحة التراث العالمي، منها على سبيل المثال (چال محل) أو (قصر المياه)، وهو قصر غارق وسط بحيرة صغيرة تقع إلى شمال شرق المدينة، يتمتع بمشهد رائع إذ تنعكس صورة الطابق الأخير، والوحيد الظاهر فوق سطح المياه، على مياه البحيرة فيبدو للناظرين كسراب أو وهم من خيال، لا سيما حال إضاءته في المساء. هناك كذلك مجمع فلكي يطلق عليه (چنتر منتر)، وهي لفظة هندية بالرغم من طرافة نطقها بالعربية، إلا أنها تعني حرفيًا (أداة الحساب)، ذلك لأنه يضم عددًا من الأدوات الحسائية الأثرية التي كانت تستخدم للقيام بحسابات فلكية وزمنية معقدة، وكذلك في مراقبة حركة الشمس والقمر والنجوم.

كانت المسافة ما بين (چايبور) و(دهلي) تتعدى الثلاثمئة كيلومتر؛ لذلك مثل أي رحلة عائلية تهيمن عليها روح الأمومة بنجاح، كانت (ميهورو) على أتم الاستعداد لتوفير الطعام الخفيف والشاي على فترات متباعدة طوال الرحلة سواء في الذهاب أو العودة. وفي طريق عودتنا إلى (دهلي) بالمساء، وقد بلغ منا التعب مبلغه، يميل (سانچاي) على زوجته ليطلب منها شيئًا ما باللغة الهندية، فتلتقط من حقيبة الأكل الكبيرة كيسًا صغيرًا أزرق اللون يشبه كيس (الشيبسي)، تفرغ بعض محتوياته في كفه، فتتساقط حبيبات صغيرة بنية اللون كالحصى، يلقيها في فمه دفعة واحدة، ثم يواصل القيادة وهو يلوكها في استمتاع. مدت لي (ميهورو) يدها بالكيس تدعوني لتناول البعض. سألتها في براءة عن ماهيتها، فقالت لي إنها أعشاب للمضغ تساعد -أي زوجها- على التركيز والانتباه. ما إن مددتُ يدي لأتناول الكيس حتى انغرس شيء ما في ساقي بجدة. جفلت ونظرت إلى

ساقى، فإذا بيد أُمي (تَزغدي) مع نظرة مرعبة على وجهها جمدت يدي في مكانها قبل الوصول إلى الكيس. سألتها باللغة العربية في صوت حاولت أن يبدو طبيعيًا عن السبب فقالت كلمة واحدة: (مخدرات!) طبعًا كدت أن أسقط على الأرض من فرط الضحك، ثم مددت يدي وأخذت قطعة صغيرة من الحبيبات وتذوقتها بلساني، في حين كانت أُمي تجز على أسنانها من الغيظ. كان طعمها لا يختلف كثيرًا عن الحصى في الواقع، فاكتفيث بمضغ القطعة الصغيرة، ولم أشأ أن أدخل في جدال مع أُمي حول الموضوع. لكن الحقيقة أنني شعرت بعد تلك المضغ بوضع دقائق بشعور مفاجئ من الانتعاش يصاحبه دوار طفيف برأسي. هل هو الإيحاء أم أنني قد تناولت لتوي نوعًا من المخدرات بالفعل؟ عرفت بعد عودتي من تلك الرحلة أن هذه الحبيبات تدعى (جوتكا) (Gutka)، وهي نوع من أنواع الطباق يتناول بالفم، وله تأثير مهدئ ومُحفِّز في نفس الوقت! إنه (نامبر وان في الهند)، كما سيؤكد (سانچاي) إن سألته عن الأمر حتمًا.

أجرا - نوفمبر 2007

بعد رحلتنا إلى (چايبور) بيومين، جاءت رحلتي الثانية على طرق الهند الداخلية. تحملنا سيارة (سانچاي) الحمراء العتيدة مرة أخرى، في صحبة كُُلِّ من (ميهرود) وأُمي. كانت وجهتنا هذه المرة هي مدينة (أجرا) (Agra). في الحقيقة أن المدن الثلاث (دهلي) و(أجرا) و(چايبور) ترتبط ارتباطًا وثيقًا، على الأقل هذا ما يحاول أن يقنعك به كل من يعمل في السياحة بالهند، فهم يشكلون معًا مثلثًا مكتمل الأضلاع على الخريطة، يطلق عليه (المثلث الذهبي) في كل الدوريات والنشرات السياحية. فبزيارة (أجرا) تكتمل لنا أضلاع المثلث الثلاثة.

(أجرا)، تلك المدينة الصغيرة، التي كانت يومًا ما عاصمة للبلاد تحت حكم أباطرة السلطنة المغولية في الهند، يأتيها الناس اليوم من كل بقاع الأرض فقط ليلقوا نظرة على درة المباني الهندية قاطبة، وقبلة السائحين، والعجيبة السابعة من عجائب الدنيا السبعة الحديثة، وأيقونة الحب الأبدي، المعروفة بـ(تاج محل) (Taj Mahal)، أو (قصر التاج) إن

شئنا الترجمة الدقيقة. من العسير أن يصدق المرء أن هذه التحفة المعمارية شاهقة البياض، المصنوعة من الرخام العاجي الجميل، ما هي إلا ضريح عظيم الاتساع، يصل إلى 0.17 كيلومتر مربع تقريبًا، ويضم رفات امرأة ثلاثينية، عرفت باسم (ممتاز)، تمكنت خلال تسعة عشر عامًا من زواجها من إمبراطور البلاد (الشاه چاهان) من إنجاب ثلاثة عشر طفلًا، وماتت عن عمر الثامنة والثلاثين وهي تنجب الطفلة الرابعة عشرة.

القصة المتداولة عن ظروف بناء (تاج محل) هي أن وفاة الزوجة المحبوبة قد أصابت الإمبراطور بالحزن الشديد، فأمر في نفس العام بتشيد ضريح عظيم، استغرق اكتماله ستة عشر عامًا كاملة، ثم مضت خمسة أعوام أخرى قبل أن تكتمل الأبنية المجاورة للضريح، من مسجد وبيت ضيافة وأسوار وحدائق، في تكلفة تكاد تقارب بمقاييس اليوم مليار دولار دفعة واحدة! وهو مبلغ لا يمثل رقمًا مهولًا؛ إذا عرفت أن (الشاه چاهان) كان يُعدُّ أغنى رجل هندي في التاريخ، يكفي أنه كان يمتلك ماسة (كوهينور)؛ واحدة من أكبر وأشهر الماسات في العالم، والتي كانت تُقدَّر قيمتها حينذاك بما يعادل ربع إجمالي الناتج المحلي لكوكب الأرض كله!

استهوانني أن أقرأ فيما وراء قصة الحب الشائعة تلك، فمن هو الشاه (چاهان) حقًا؟ وماذا كان يفعل المغول المسلمون هنا في تلك البلاد؟ حسنًا، إن الشاه (چاهان) هذا هو خامس الحكام المغول في الهند، وحفيد (چلال الدين أكبر)، الذي كانت له قصة رومانسية شيقة مثل حفيده، وإن لم يترك لنا معمارًا يخلدها، بل خلدتها السينما البوليفية في فيلم ضخمة الإنتاج عُرف باسم (چودا-أكبر). أما كيف استولى المغول على الحكم؟ فهذا يرجع إلى جد (أكبر)، وكان يدعى (بابر)، الذي كان بدوره من أحفاد (تيمور لنك) شخصيًا!

(تيمور لنك) حفيد (هولاكو) و(چنكيز خان)؟ هؤلاء الأشرار الذين اجتاحوا بلاد الشرق الأوسط، فلم يتركوا فيها حجرًا فوق حجرًا! نعم يا سادة، إن جُل ما درسناه في المدرسة الإعدادية من تاريخ المغول الممتد يقتصر تقريبًا على قصة (وإسلاماه)، التي تحكى بطريقة روائية مثيرة للمشاعر عن اجتياح المغول بقيادة (هولاكو)، حفيد (چنكيز خان)

الملقب بـ(الخان الأعظم)، لبلادنا والبلاد المجاورة في معارك دموية قاسية ارتكبت فيها المجازر الوحشية. كم بكينا جميعًا ونحن نشاهد الأستاذ (أحمد عبد العزيز) في دور السلطان المملوكي (قطز) هازم التتار أو المغول وزعيمهم الأستاذ (أحمد ماهر) في دور (هولاكو)، قبل أن يُقتل الأول على يد صديقه الصدوق (بيبرس). ثم رَوَتْ لنا كتب التاريخ عن اجتياح الحفيد (تيمور لنك)، لدمشق وبغداد مرة أخرى وارتكابه للكثير من الفظائع حتى وصل إلى أعتاب مصر، قبل أن يصدده السلطان (الظاهر بيبرس) -الذي صار الآن بطلاً مغوارًا ومحرر للبلاد بعد أن كان أمس فقط الصديق الغادر القاتل!

ما لم تنقله لنا كتب تاريخنا المتداولة هي أن (تيمور لنك) ذاته كان مُسلمًا، تولَّى عرش البلاد في آسيا الصغرى، وزعم أنه من نسل (چنكيز خان) نفسه، وأسس المملكة التيمورية في بلده الأصلية، وهي ما يُعرف اليوم باسم (أوزبكستان)، وهي نفس البلاد التي أنجبت نخبة كبيرة من أشهر العلماء المسلمين على الإطلاق، يكفي أن نذكر منهم (البخاري) و(الخوارزمي) و(البيروني) و(النسائي) و(الزمخشري) و(الترمذي) و(ابن كثير) و(ابن سينا). سعى (تيمور) منذ أن تولَّى العرش إلى توسيع رقعة دولته كما فعل أسلافه من المغول، ونجح في تحقيق ذلك بالفعل، فامتدت حدود إمبراطوريته من الصين والهند شرقًا إلى دمشق وبغداد غربًا. تاريخ دموي بالتأكيد، ولكن هذا التاريخ -الموازي لتاريخنا- يحكي عنه كذلك أنه كان رجلًا واسع المعرفة، يتحدث عدة لغات، يحب الأطباء والفلكيين والفقهاء، جمع الصُّنَّاع المهرة من كل أنحاء الدنيا في عاصمته (سمرقند)، وشيّد حضارة عظيمة حتى صار يُعدُّ لدى الشعوب التركستانية وعند الأوزبك بطلاً قومياً، ورمزًا للشجاعة والعدل ومراعاة المبادئ الإسلامية، يُعرف عصره بعصر (النهضة التيمورية)! كذلك ترك أحفاده في الهند آثارًا عظيمة وبنوا حضارة مميزة يتفاخر بها اليوم أهل الهند أنفسهم. عجيب حقًا أمر هذا التاريخ، الذي يختلف باختلاف زاوية نظرك إليه، بل بمجرد اختلاف محل ميلادك!

بانجلور - ديسمبر 2019

في تمام الثامنة والنصف كُنَّا ننطلق في شوارع (بانجلور) الهادئة صباح يوم العطلة الأسبوعية. ها هي رحلتي الثالثة على طُرق الهند الداخلية تبدأ أخيرًا. هذه المرة على موتوسيكل لا سيارة هندية حمراء صغيرة. فتاة مصرية وأخرى هندية، استقرتا فوق موتوسيكلين توأمين من ماركة (رويال إنفيلد)، في سبيل الخروج من المدينة إلى طريق (بانجلور - مايسور) السريع.

مهلاً، لا يبدو لي هذا الطريق سريعاً على الإطلاق! إنه أقرب إلى شارع رئيسي مزدحم لا أكثر. أدركت فجأة، بعد نحو النصف ساعة من القيادة خلف (سانجيتا)، ونحن نتلوى بين السيارات وعربات النقل والسكوترات والموتوسيكلات والتكاتك المنتشرة في كل متر مربع من الأسفلت، أن المسافة بين المدينتين يقطعها طريق ضيق يتكون من حارتين مروريتين فقط لا غير. يمر بنا بين أراضي زراعية شاسعة ممتدة على جانبيه. تعترضه كل عشرات الكيلومترات قرية أو مدينة صغيرة، فيزداد عند كل منها الزحام وتظهر على جانبي الطريق فجأة المحلات الصغيرة، وتنشقُّ عندها الأرض عن المارة والعابرين، يقطعون الطريق في هرولة محمومة أمام السيارات. يتحول المشهد في تلك اللحظات القليلة العابرة أمام القرى إلى سيرك متنقل، يعج بأصوات النفير العالية، وقفزات المارة، والحركات البهلوانية لأنواع متنوعة من المركبات لتفاديهم، وأنا أحاول أن أتجاوز كل ذلك دون خسائر في الأرواح أو الممتلكات. فجأة ينتهي التقاطع الهستيري كما بدأ، ولا يلبث الطريق من بعده أن يعود إلى رتابته المعهودة الخالية من الأحداث، وأتنفس أنا الصعداء محاولة استعادة رباطة جأشي في مواجهة السيرك المروري الهندي المثير للهلع.

على بُعد حوالي 60 كم من مدينة (بانجلور)، نتوقف أمام لافتة كبيرة تحمل اسم (جانابادا لوكا) Janapada Loka، وهي (قرية فلكلورية) كما كُتب تحت الاسم بخط رفيع. تجاور القرية كافيترية كبيرة، فاقترحت (سانجيتا) أن نتناول بها الإفطار أولاً قبل أن ندخل القرية. كان المكان مزدحمًا بالزوار رغم الساعات الأولى من الصباح، حتى اضطررنا لتسجيل أسمائنا على قائمة انتظار. المكان يُعدُّ استراحة للمسافرين، واحد من آلاف الاستراحات المماثلة التي تنتشر على شبكة الطرق الهائلة التي تغطي شبه القارة الهندية

كلها على اتساعها. يطلق على تلك الاستراحات اسم (ضبا) Dhaba؛ وهي كلمة تنتمي إلى إقليم (البنجاب) بشكل خاص؛ ولذلك فهي في الغالب مشتقة من كلمة بنجابية تعني (صندوق الغذاء)، في إشارة إلى الطعام الذي يُؤكل في مكان العمل أو على الطريق. لتلك الاستراحات تاريخ طويل يعود الفضل فيه بشكل خاص إلى سائقي سيارات النقل ووقفاتهم على جانب الطريق طلبًا للراحة والغذاء في أثناء رحلاتهم الطويلة الشاقة.

في استراحتنا المبكرة، التي طلبناها بعد ستين كيلومترًا فقط من بداية الرحلة، تناولت مع (سانجيتا) إفطارًا جنوبيًا مميزًا، يتكون من العيش البوري Puri، وأقراص (القادا) Vada الشبيهة بحلوى الدوناتس الأمريكية، وإن كانت الأولى مصنوعة من البطاطس وربما الفول الأخضر، و(الماسالا دوسا) Masala dosa، وهي تعتبر الطبق الرئيس في مطبخ جنوب الهند، وتتكون من رقاقة عظيمة الحجم، لا يقل قطرها عن ثلاثين سنتيمترًا، مصنوعة من عجين الأرز والعدس، تُحشى بخليط من البطاطس المهروسة مع حبات الخردل وجوز الهند والكسبرة وعصير الليمون، ولا ننسى بالطبع المكون الرئيسي لأي طبق هندي: الفلفل الحار! كل هذا يقدم بصحبة مجموعة من الصوصات المتنوعة يطلق عليها اسم (شوتني) Chutney. ما تمكنت من تذوقه منها هو الزبادي المُبهرّ بالنعناع، أما بقية الصوصات فلونها الأحمر ورائحتها التي تُلهب العين بمجرد اقترابي منها أزهتني فيها تمامًا.

هناك حقيقة مهمة يجب أن تعرفها بشأن الطعام الهندي، وهي أنه ببساطة لا يوجد طعام بالهند يخلو من الفلفل الحار. لا يوجد، مهما حاولوا خداعك لا تسقط في هذا الفخ، ومهما نصحوك بأن تطلب (بيبي فوود)، أو طعام للأطفال الرضع، لا يوجد طعام خال من الفلفل. إن الهنود يرضعون الفلفل الأحمر مع لبن أمهاتهم، ويتناوله صغارهم كنوع من التحلية عزيزي القارئ! حتى لو أخذت قزصة أولى من طعام ما فاستسغته وبدا غير حار، اعلم تمامًا أن القزصة الثانية أو الثالثة أو حتى الأخيرة ستكون حارة حتمًا. هكذا هو الطعام الهندي، جريء دائمًا ومخادع في كثير من الأحيان. للأسف أدركت هذه الحقيقة المُرة بالتجربة العملية خلال زيارتي السابقة للهند، ودعمتها أكثر بتجربتي هذا الصباح، حين استسغت طعم (القادا) اللذيذ، وأخذت ألوکها في استمتاع شديد، قبل أن أشعر فجأة بنار

موقدة تنتشر في فمي على حين غرة، فإذا بي قد قضمت قطعة صغيرة من الفلفل الأخضر الملتهب وقد اندسّت في خبث وسط العجين. هنا حدث انهياران طبيعيان، انهيار شلالات من الدموع من مُقلتيّ، وانهيار (سانجيتا) من الضحك العنيف إزاء وجهي الملتهب ودموعي الجارية!

تطلب الأمر ثلاثة أكواب كاملة من المياه لإخماد ذلك اللهب المستعر بفمي، وتمكنت أخيرًا من استعادة السيطرة على قنواتي الدمعية. لسبب ما ذكرني هذا بمشهد من أحد الأفلام الهندية الشهيرة، كان البطل والبطلة يتباريان فيه من سيتناول الكَمّ الأكبر من (الباني بوري) أو ما يعرف في بعض مناطق الهند باسم (الجولجابا) Golgappa؛ وهي واحدة من أشهر أكالات الشوارع، عبارة عن خبز مقلي دائري الشكل، يُغطس في سائل حار المذاق. ضحكت (سانجيتا)، وأعلنت أنني لن أصمد لخمس ثوان في مثل هذه المباراة! هكذا انتقل الحديث بنا فجأة إلى الأفلام والسينما.

لديّ شغف خاص بالسينما الهندية والمعروفة مجازًا باسم (بوليوود)، بدأ في السنوات السابقة لزيارتي الأولى للهند منذ اثني عشر عامًا، ولم تنجح تلك الزيارة في وأد هذا الشغف بصورة كلية رغم خيبة الأمل الكبرى التي سببتها لي. تعرض لنا (بوليوود) صورة محسنة ومنقحة من الهند، عن حياة براقة زاهية الألوان، ممتلئة بالرقصات الجماعية المبهرة الأداء، والملابس المزركشة ذات الألوان الأخاذة، والأغاني الرومانسية المليئة بالشجن، والمشاهد المتكررة في كل الأفلام الهندية تقريبًا، التي ترتدي فيها البطلة (الساري) الهندي الحريري، وتجري بين الحقول، فتعبت النسמת بشعرها المجدول وأطراف الساري، بينما البطل يقف من فوق تبة قريبة ماسكًا بقلبه في ميلودرامية مفرطة وهو يُردّد كلمات أميز منها ما يشابه كلماتنا العربية مثل (دنيا) و(عشق) و(هوى) و(زمان)! ولكن هذه الحياة للأسف هي محض خيال مؤلفين ومخرجين لا أكثر، تدور أحداثها وراء جدران استديوهات (بوليوود) المغلقة في مدينة (مومباي) فقط، ولا تمثُ لواقع الحياة الهندية اليومية بصلة. أما خارج الاستديو، في أي شارع من شوارع الهند، تجد الفتيات يرتدين ملابس عصرية عملية، ولا يعرفن السواري سوى في المناسبات والاحتفالات. أين السيارات الفارهة التي يركبها أبطال

(بوليوود) من التكتاك والموتوسيكلات الشعبية والأتوبيسات المزدحمة؟ وأين الشوارع الهادئة النظيفة من أتربة المدن الهندية وعوادم سياراتها الخائقة؟ فضلاً عن أن الهنود لا يرقصون في كل حي وشارع على أنغام الطبول كما صورتهم!

الحقيقة أن واقع الحياة في الهند هو الأقرب إلى فيلم (سلمدوج ميلونيير) Slumdog Millionaire، الذي أثار ضجة شديدة حين احتلّ شاشات السينما العالمية عام 2008. كان الفيلم، الذي يحكي قصة شاب نشأ وترعرع في العشوائيات، عشوائيات (مومباي) تحديداً، وكفاحه وسط عالم من الفقر المدقع والجريمة المنظمة والفساد المتفشي في كل رقعة من البلاد، يُعدُّ صفة قوية، رجّت جدران (بوليوود)، وهزّت عرشها المتربع فوق عقود من البروباجاندا الزائفة والصور التجارية اللامعة التي طالما داعبت بها أذهان السياح وجيوبهم، حتى اتهم بعضهم الفيلم بمعاداة الهند شخصياً بدعوى ترسيخه لنظرة مشوهة عن الهند وأحيائها. يبدو أن تهمة (الإساءة لسمعة البلاد) تحظى بشعبية كبيرة في بلاد الأفيال كذلك!

سألتنني (سانجيتا) عن أحبُّه من الممثلين الهنود. حكيت لها أن مواليد الثمانينيات في بلادي تعودوا أن يشاهدوا أفلاماً بعينها لـ (أميتاب باتشان) كل عيد، وأشهرها أفلام (مارد) و(قمر أكبر أنطونيو) و(دون) و(لقاء الجبابرة) و(طوفان). ضحكنا كثيراً حين ذكرتها بأصوات الصفعات والركلات المصطنعة التي كنا نسمعها قبل أن نراها على الشاشة أو العكس، و(أميتاب باتشان) وهو يطير في الهواء وبركلة واحدة من ساقه الطويلة يُطيح بخمسة رجال في مشهد واحد يقوم المخرج بتكراره من عدة زوايا قبل أن يستقر (أميتاب) على الأرض بعد دقيقتين من الطيران المتواصل في الهواء. بسبب مثل تلك المشاهد، والتطويل المتعمد في الأحداث، كنا نبدأ مشاهدة الفيلم بعد صلاة العيد فلا ننتهي منه إلا بعد صلاة العصر!

الحق يقال إن ما نتذكره من سذاجة الأفلام الهندية في فترة السبعينيات والثمانينيات قد تغير تماماً في السنوات العشرين الأخيرة. لم يعد (أميتاب باتشان) متربعاً على عرش

بوليوود، وإن ظلَّ محتفَظًا بمكانته الخاصة كأيقونة السينما الهندية حتى اليوم، يلقبونه بـ(Big B)،

هذا إلى جانب اختياراته لأدواره التي باتت أكثر جدية ورصانة لا سيما مع تقدمه في العمر، حتى إنه قدم في السنوات الأخيرة عددًا من الأدوار والمشاهد التي تستحق أن تُدرَّس من فرط روعة أدائها، منها على سبيل المثال مشهد مرافقته الشهيرة في فيلم (بينك) في أثناء أدائه لشخصية محامي يترافع عن فتاة تعدت بالضرب على فتى حاول اغتصابه وجملته الأيقونية هنا: «لا تعني لا!». فمن الذي احتلَّ عرش بوليوود من بعده؟ إنه الملقَّب بالملك، أو SRK، أو (شاروخان)؛ وهو ممثل عظيم أيضًا، ولكن موهبته التي لا يُختلف عليها لا تبلغ -في رأيي المتواضع - رُبع موهبة (باتشان)، ولا يمتلك حتى نصف جاذبيته أيضًا؛ فهو قصير القامة، أسمر اللون، متواضع القدرات الفنية سواء رقصًا أو غناءً -تذكَّر أن (أميتاب) هو النجم الوحيد في بوليوود الذي استخدم صوته الأصلي في أداء أغانيه بينما يقوم الآخرون جميعًا باستخدام خاصية (الفويس أوفر) - إلا أن شعبية (شاروخان) أخذت في التزايد المطرد منذ بداية التسعينيات حتى طغت على نجومية (باتشان) نفسه. ربما ساعده في ذلك تزامن صعود نجمه مع تطور صناعة السينما الهندية نفسها، وتبنيها لاتجاه يستهدف الانتشار العالمي، وإن احتفظت بخلطتها السرية من مشاهد تنوع بين الرومانسية والميلودرامية والكوميديا والموسيقى والرقص في الفيلم الواحد.

بعد الإفطار الجنوبي الحار، توجهنا إلى القرية الفلكلورية المجاورة، فدخلنا من البوابة مع تصاعد قرعات طبول عالية وكأنها تُقرع احتفاءً بقدمنا! تتبعنا الأصوات عبر ممر ترابي قصير فقادتنا إلى ساحة دائرية تتصدرها منصة خشبية عالية، وقد تراصت أمامها بعض المقاعد البلاستيكية في مسرح شعبي مرتجل، بحضور نفر قليل من زائري القرية، وكانوا جميعًا من الهنود البسطاء. اعتلت المنصة فرقة فنية قوامها سبعة من الرجال الأشداء، في رداء قصير من القماش المدبوغ بلون جلد النمر، يكشف عن بشرة شديدة السمار، تتباين في جِدَّة مع العمامات الصفراء الزاهية التي تعلو رؤوسهم، بينما تتزين الجبهات بثلاثة خطوط بيضاء تتوسطها نقطة حمراء، وتستند طبلة ضخمة مزينة بالقماش الأصفر والأحمر

إلى جذع كل منهم، يقرعونها جميعًا في تناغم بينما يدورن في قفزات عنيفة حول المسرح بمسارات مدروسة. كان العرض ممثلًا لإحدى الرقصات الشعبية القديمة المميزة لجنوب الهند، كما أوضحت لي (سانجيتا) في أثناء ترجمتها لكلام رجل أربعيني قصير القامة اعتلى المسرح بعد انتهاء الرقصة ليواجه الجمهور ممسكًا بمكبر صوت عتيق الطراز، لينطلق فمه بدفقات من الكلمات الهندية السريعة يلقيها بغير حماس حقيقي على أسماع جمهور انشغل عنه تمامًا بالتقاط صور الراقصين. بدا لي المشهد كله أقرب إلى حفلات الإذاعة المدرسية أكثر منه عرضًا للفنون الشعبية، لا سيما مع اقترابي من الراقصين للتصوير الذين ما كان منهم إلا أن اصطفوا من حولي وقد علّت وجوههم ابتسامة واسعة وكأنني أنا نجمة الحفل الراقص!

(جانابادا لوكا) Janapada Loka هو مزار للفنون الشعبية، حُصص لعرض ثقافة وفنون إقليم (كارناتاكا) Karnataka، الذي يُعدُّ من أكبر مقاطعات جنوب الهند وعاصمته هي (بانجلور). (سانجيتا) هي من طلبت أن تصاحبني في رحلتي إليه، لما أخبرتها بنيتي التوقف عنده في طريقي إلى (مايسور)، فهي لم تزُرْه من قبل رغم أنها مرّت به العديد من المرات. بعد انتهاء العرض الراقص، توغلنا أكثر في الممر الترابي الرئيس للقريّة الصغيرة، التي تشبه في طبيعتها إلى حد كبير شبيبتها في مصر (القريّة الفرعونية)، وإن كانت أكثر تواضعًا في المساحة والإمكانيات بالتأكيد. تأكد لي هذا التشابه حين وصلنا بعد خطوات قليلة إلى ساحة تراصت فيها عدة بيوت بدائية، تزينت بنقوش ترمز إلى الحياة الريفية مثل الطيور والسنابل والزرور المختلفة، وتناثرت حولها التماثيل الجصية للحيوانات المستأنسة مثل الأبقار والثيران وبعض الآلات المستخدمة في الحرث والزرع.

بالقرب من الباب الخشبي الملون لأحد البيوت وقف رجل يشير إلينا بالاقتراب، يرتدي بدلة خاكية ذات أكمام قصيرة، تشبه (البدلة الصيفي) التي كانت تنتشر في مصر في السبعينيات، وأظنها بشكل ما تُعدُّ الزي الرسمي للموظفين في الهند، أراها في كل جهة أزورها، من المطار إلى محطة الأتوبيس إلى مكتب البريد وحتى في المدن الترفيهية. دعانا الرجل إلى الدخول في ترحاب مبالغ فيه فاتبعناه. وللمرة الأولى أدركت ميزة أن أصطحب

معي واحدة من أهل البلد، فقد انطلق الرجل -لا فُصّ فوه- يشرح باللغة الهندية ملوحًا بيديه يمينًا ويسارًا وأنا أنتظر ترجمة لم تأتِ سوى من (سانجيتا) نفسها بعد حين. شرحت لي (سانجيتا) في اختصار غير مُخل محتويات الغرفة من موقد للنار ومنشر للملابس وجرار لتخزين البقول، ومخزن للحطب، إلى غيرها من مظاهر المعيشة داخل هذا البيت الريفي المفرط في البساطة والبدائية. استمرت الجولة القصيرة على هذا المنوال مدة ربع ساعة أخرى، حرص فيها الرجل على أن يستحق عن جدارة الخمسين روبية التي نفحتها (سانجيتا) إياه في نهاية الجولة مع خروجنا من المنزل، وشكرناه بإيماءة خفيفة من الرأس قابلها هو بابتسامة تصاحبها هزة الرأس الهندية إياها.

مضيتُ مع (سانجيتا) في طرقات القرية مرة أخرى، وانشغلنا بالحديث حتى قادتنا قدمانا إلى بحيرة صغيرة، تمشينا على أطرافها وأنا أصغى باهتمام لسردها لبعض القصص الدينية المتعلقة ببعض تماثيل الآلهة التي تناثرت حول القرية في طريقنا، ختمت (سانجيتا) تلك الحكايات بإعلانها أن هي شخصيًا صارت مُلحدة منذ فترة، ولا تؤمن بأي دين! صُدمت للوهلة الأولى. لا لكونها مُلحدة، فقد عرفتُ الكثير من الملحدين في حياتي بالتأكيد، من جنسيات مختلفة ومن مصر نفسها، ولكنني صُدمت لأنها كانت المرة الأولى التي أقابل فيها من لا ينتمي لديانة ما في الهند! فهناك ما يُقارب الأربعة آلاف وثلاثمئة ديانة حول العالم، منهم تسع عشرة ديانة يتبعها أكبر عدد من المؤمنين حول العالم، ومن هذه الديانات التسعة عشرة، يوجد أربع ديانات؛ أي أكثر من عشرين في المئة من أكبر ديانات العالم المعمور، نشأت في الهند ذاتها، وهي الهندوسية، والبوذية، والسيخية، والجانية؛ وعليه، فإن فرصة أن تتعثر في إنسان مُلحد في الهند تكاد تقارب فرصتك في العثور على هندي أشقر بعيون زرقاء!

بالرغم من أن الهند جمهورية علمانية -كما ينص دستورها- فإن للدين في هذه البلاد، التي يبلغ عدد سكانها 1.4 مليار إنسان؛ أي ما يعادل سدس سكان الكرة الأرضية تقريبًا، شأن عظيم. فبينما يعتنق أغلبهم الديانة الهندوسية، إلى جانب عدد من الديانات الأخرى السابق ذكرها والتي تعرف في مجملها باسم (الديانات الهندية)، ولهم أتباع بنسب أقل بكثير

لديانات أخرى مثل البهائية والمسيحية واليهودية بل والزرادشتية المجوسية كذلك، إلا أنها تضم على أرضها كذلك ثالث أكبر مجموعة من المسلمين من بعد إندونيسيا وباكستان. وتحضرنى هنا مفارقة لطيفة، أنه بينما يحلو لنا نحن معشر ساكني الشرق الأوسط من هذا الكوكب الاعتقاد بأننا الرعاة الرسميون للإسلام في العالم وأرض المنشأ الأصلي له، ولكن لعلك تدهش مثلي إذا اكتشفت أن عدد المسلمين في الثلاث دول الآسيوية السالف ذكرها فقط -وهي إندونيسيا وباكستان والهند- يفوق عدد كل مسلمي الشرق الأوسط جمعاء، بل يزيد بمقدار الضعف! لم أتناقش مع (سانجيتا) في الأسباب التي قادتني إلى الكفر بكل تلك الديانات المنتشرة في ربوع الهند، فهو أمر شخصي بحت ولا يعنيني في شيء، ولو من باب الفضول، وإن كان ذلك الحديث قد أعاد لي ذكريات حديث مشابه حول الأديان دار منذ سنوات بعيدة، وعلى هذه الأرض دوناً عن غيرها، في الهند أم العجايب!

ماتورا - نوفمبر 2007

أهرول في اضطراب وراء (سانجاي) و(ميهورو). أحاول جاهدةً ألا أفقدتهما في الزحام الشديد، بينما أمسك بيد أمي أحثها على الإسراع في خطواتها وراءنا. كان الممر الضيق يكتظ بالبشر من كل صنف ولون. رجال ونساء تلونت وجوههم بالخطوط البيضاء والنقاط الحمراء، وتدلت حول أعناق بعضهم قلادات ضخمة من الزهور البيضاء والصفراء، بينما الباعة قد اصطفوا على أحد الجانبين يعرضون بضاعتهم من التماثيل والمسابح الخشبية وأعواد البخور. أتفادى الاصطدام بالمقبلين في الاتجاه المعاكس بصعوبة، بينما أحاول ألا تغيب قامة (سانجاي) الطويلة عن بصري. أسب وألعن في سري. كان كل ذلك الزحام والحركة السريعة لكل من حولي يصيبني بالدوار وكأنني علقت داخل دائرة محكمة الإغلاق لمجموعة من الدراويش يلتفون حولي في رقصة صاخبة. أين نحن؟ ومن هؤلاء؟ وإلى أين يقودنا الزوجان حقاً؟!

كيف انتقلنا بعد ساعة أو أكثر من محيط (تاج محل) الهادئ الجميل، الذي يأتيه العالم من كل البقاع ليلتقوا الصور التذكارية على تلك الخلفية الرائعة التي تحملها كل كتب الدعابة

السياحية في الهند، إلى ذلك المدق الترابي الضيق الذي يتلوى بين ضلوع بلدة (ماتورا) النائبة، الواقعة على بُعد 55 كيلومترًا تقريبًا من العاصمة (دهلي)، والتي تعج طرقاتها بالفقراء والمساكين وطالبي البركات من الهندوس المتدينين؟ الحقيقة أن هذا كان قرارًا فرديًا من (سانجاي)، الذي قرر فجأة ودون مقدمات في أثناء عودتنا من (أجرا) إلى (نيودلهي) أن يحيد عن الطريق قليلاً ليدخل إلى تلك البلدة المقدسة (ماتورا)!

يؤمن الهندوس بأن (ماتورا) هي واحدة من سبع مدن مقدسة، يطلق عليهم (سابتا بوري) *Sapta Puri*، أو المدن السبع باللغة السنسكريتية؛ لغة الهندوس المقدسة. يحج المؤمنون الهندوس إلى تلك المدن تمامًا كما يحج المسلمون إلى (مكة) والمسيحيون إلى (بيت المقدس). أما سبب قدسية هذه المدينة بالذات فلأنها ببساطة تعد مسقط رأس الإله (كريشنا). ولكي تعرف من هو (كريشنا) عزيزي القارئ، فذلك أمر يطول شرحه؛ فالديانة الهندوسية مُعقّدة إلى حدٍّ ما، لا سيما وهي واحدة من أقدم الديانات في التاريخ الإنساني؛ فهي تسبق الديانات الإبراهيمية بمئات الأعوام. المختصر المفيد في ذلك هو أن الهندوس يؤمنون بخالق واحد فقط للكون هو (براهما)، ولكنه يُشكل مع إلهين آخرين ثلوثًا إلهيًا مُقدسًا، وهما الإله (فيشنو)، ويعدُّ إله الحفظ أو البقاء الذي يحفظ توازن الكون، والإله (شيغا) الذي يعد إله الفناء. الموضوع بسيط وسهل كما ترى، فهو مثل دورة الحياة، حيث يمثل (براهما) الميلاد، و(فيشنو) الحياة، و(شيغا) الموت والفناء. ولكن ما يزيد الأمور تعقيدًا حقًا هو وجود العشرات من الآلهة الأصغر شأنًا، المذكرة والمؤنثة، مثل (سaraswati) إلهة الثقافة والفن، و(جانيشا) إله الحكمة، و(لاكشمي) إلهة الرخاء والثراء، أما ما يزيد الطين بلة حقًا، ويجعل من الديانة الهندوسية ملحمة لا تنتهي من الأسماء والشخصيات والأحداث التي تتفوق على أعتى مسلسلات الدراما الهندية، هو أن كلاً من هذه الآلهة يظهر بصور وأسماء مختلفة، يسمون الواحد منها (أقاتار)، وهو أن يتمثل الإله في صورة أخرى غير هيئته الأصلية، حتى إن (شيغا) وحده له 23 (أقاتار) دفعة واحدة! فإذا أخذت لحظة لتستوعب فكرة (الأقاتار)، فدعنا نعود بضعة سطور إلى الأعلى لنعرف أن (كريشنا) الذي ولد في بلدة (ماتورا) هذا هو (أقاتار) لإله البقاء (فيشنو). هل تشعر

بالضياع الآن عزيزي القارئ؟ حسنًا يكفيني ويكفيك شرف محاولة فهم تلك العلاقات  
المربكة والمعقدة بين الآلهة!

صف (سانجاي) السيارة في ساحة مزدحمة، تقع على تخوم مدينة (قرينداقان) Vrindavan القديمة التي تقع على حدود مدينة (ماتورا) المقدسة. ربما ولد (كريشنا) طبقًا للمراجع الهندوسية في (ماتورا)، ولكن المؤكد طبقًا لنفس تلك المراجع أنه قضى طفولته وصباه لاهيًا في طرقات (قرينداقان) القريبة؛ لذلك فهي تعج بالمعابد والمزارات الدينية التي يصل عددها إلى الألف!

تحوّل المكان فجأةً من حولنا إلى خليط عجيب من البشر، باعة جائلين يحملون أعواد البخور، وأكاليل الزهور المصنوعة من بتلات الياسمين البيضاء واللوتس الصفراء، وصور تحمل وجوه الآلهة الهندوسية لا سيما (كريشنا) المهيمن في هذه المنطقة بطبيعة الحال، ومتعبدين هندوس يحثون السير إلى هذا المعبد أو ذاك (وما أكثرهم هنا)، بعضهم في ثياب عادية من سراويل وقمصان، وآخرون في ثياب هندية تقليدية تتكون في الأغلب من سروال واسع يدعى - من ضمن العديد من الأسماء - (دوتي) Dhoti، ويعلوه قميص طويل يدعى (كورتا) Korta، وأجانب كثر، لا يرتدون الملابس العادية مثلنا، بل يرتدون ثيابًا هندية تقليدية، وتتدلى أكاليل الزهور والقلايدات الخرزية من أعناقهم، حتى تكاد لا تميزهم عن الهنود لولا بشرتهم صارخة البياض وشعورهم الملونة!

لاحظت أن الغالبية العظمى من هؤلاء الأجانب إما يتوجهون إلى أو يفدون من بوابة بعينها، شاهقة البياض، يحدها برجان على الطراز المعماري الهندي مُتعدّد التفاصيل، وجدت نفسي مُنقادة إلى نفس البوابة، لا لكوني أجنبية بدوري، بل لأن هذا هو الطريق الذي سلكه (سانجاي) أمانًا. أسرعرت الخُطا حتى حاذيته، ثم أشرت إلى البوابة وسألته: «ما هذا المكان؟». فأجابني بنبرة الفخر الأزلية في صوته:

• «هذا هو إيسكون»!

ثم استرسل يشرح لي أنه معبد خاص بـ (حركة هاري كريشنا الدولية)،  
International Society for Krishna Consciousness، مما يفسر  
الاسم المختصر ISKON، وأنها حركة كبيرة للغاية لها أتباع بالملايين في جميع  
أنحاء العالم، وأنها تأسست في أمريكا في السبعينيات! كان اعتقادي حتى هذه  
اللحظة أن الهندوسية ديانة تقتصر على الهنود فقط -أليست تدعى الـ(هند-وسية)؟-  
ولكني أدركت مدى ما وصلت إليه من الجهل التام حين عبرنا الساحة الأمامية للمعبد  
لنصل إلى صدر الساحة، حيث جلس عدد قليل من الأجانب على الأرض يقرعون  
الطبول، يلتفت حولهم عددٌ أكبر من الأجانب، بينما الجميع يردد: (مانترا) رتيبة باللغة  
الهندية القديمة:

«هاري كريشنا هاري كريشنا

كريشنا كريشنا هاري هاري

هاري راما هاري راما

راما راما هاري هاري»

يهمس لي (سانچاي) في سعادة وهو يهتز يمينًا ويسارًا مصاحبًا النغم:

• أنشودة (هاري كريشنا) شديدة المفعول حقًا!

أهز رأسي يمينًا ويسارًا، إنني لا أفهم مقصده، فيوضح:

• هذه أنشودة مقدسة، لها قوى خارقة، فمن يُرددها تفعل له الأعاجيب.

• هي نوع من الدعاء إذن؟

• (نافيًا في حدة) لا، لا... هي أقوى من الدعاء، فهي كلمات قديمة لها قوى سحرية

وروحية تتحقق فقط للمؤمنين بفاعليتها!

أومى برأسي أن (بالطبع).

القاهرة - مايو 2018

أحاول جاهدة أن أحافظ على توازن جسدي المستند إلى ساقى اليمنى فقط، بينما ساقى اليسرى قد انثنت والتصقت قدمها بجوار ركبتي اليمنى في محاولة مستميتة لدعماها، وانضمَّ كفاي أمام صدري في سكون، بينما (باباچي) يتحدث بصوتٍ يحاول جاهدًا أن يجعله عميقًا، بالرغم من سنوات عمره التي لا أظنها قد تجاوزت الثامنة والعشرين بأي حال من الأحوال، وجسده الهزيل قصير القامة:

- اتنفسوا ببطء، رددوا ورايا: «أوووووووووووم»!

كان (أحمد) الملقب بـ (باباچي) قد شرح لنا قبل أن يُعَدِّبَنَا بوضعية (الشجرة) تلك، أن كلمة (أوووم) التي يرددتها ممارسو اليوجا حول العالم تُعد في الديانة الهندوسية -البوذية والجيانية كذلك- (مانترا) أو أنشودة مُقدَّسة، وهي لفظة سنسكريتية تُوضع عادةً في بداية النصوص الهندوسية كونها علامة مباركة. أما معناها، فيجمع في الفلسفة الهندوسية بين مزيج من الـ(أتمان) Atman، وهي الروح أو الجوهر، والـ(برامان) Brahman، وهي لفظة تعبّر بدورها عن الذات العليا، أو الحقيقة المطلقة. أي أن (الأوم) تُعبّر عن النفس وخالقها في ذات الوقت.

أرَدُّ بصوتٍ خفيض متردّد وراء اليوجى المصري تلك (المانترا) القصيرة:

- «أوووووووووووووووووووووووووم».

أشعر بها تنطلق من جوف جسدي لتنفلت من بين شفتي في هدوء وعمق. تقل حِدَّة التشنج في عضلاتي، ويستقر جذعي المتراقص أخيرًا فوق ساقى الوحيدة المفرودة.

ماتورا - نوفمبر 2007

أسرح مع دقائق الطبول والتَّغَم الرتيب الصادر عن فرقة الأجناب الهندوسيين في معبد (إسكون) إياه، بينما تتسارع في ذهني مئات الأسئلة حول الدين والفلسفة والإنسان، قبل أن يعيدني (سانچاي) إلى أرض الواقع بدعوته إيانا للرحيل.

نُهرول وراءه مرة أخرى، تاركين المعبد الأبيض خَلْفنا، لنتوغل أكثر في حوار (قرينداقان) الضيقة. يزداد الزحامُ من حولنا، وتحاصرني النظرات الثاقبة للهنود القادمين قبالتني، ربما لا أحمل شعراً أشقر فوق رأسي، ولكن بشرتي أكثر بياضاً من غالبية الهنود بالتأكيد، بينما أُمي المتعلقة في ذراعة ترتدي حجاباً لا يتوافق مع ما يرونه في المعتاد من الـ(بوركا) التي ترتديها بعض المسلمات في هذه البلاد، ناهيك عن كوننا في قبلة للحجاج الهندوس بالأساس! ألاحظ أنا في المقابل الكثير من النسوة اللاتي يرتدين السواري البيضاء الناصعة، أغلبهن من العجائز، يتحلقن في مجموعات أمام الأبواب، أو يَسِرْنَ في أفواج متتالية ناحية المعبد الكبير.

• هل هن حجاج؟ أم ينتمين إلى طائفة ما؟

أتساءل في فضول، فيطقطق (سانچاي) بلسانه ويجيب في اقتضاب:

• أرامل.

أحدِّق فيه في استغراب، فيستفيض:

• بلدة (قرينداقان) تُعدُّ ملجأً لعدد كبير من الأرامل، آلاف الأرامل، يفدون إليها من كل مكان، طلباً لبركة معابدها، ويعيش عدد كبير منهن في الأديرة الهندوسية Ashrams المنتشرة هنا.

• ولكن بعضهن يمارسن التسول، رأيتهن بنفسني!

فيهز (سانچاي) رأسه في أسف قائلاً:

• نعم. الكثير منهن يعشن على الصدقات والتبرعات.

شغل الموضوع بالي، ولم أتمكن من الاسترسال في الكلام مع (سانچاي) بسبب الزحام الشديد الذي فرّقنا عن بعض، فمدتُ الخُطَا ورائه في صمت وأنا أتذكر فيلم بعينه، كنت قد شاهدته منذ سنوات، يدعى (ماء) Water، وهو الثالث في سلسلة أفلام تعرف باسم (مجموعة العناصر الأساسية) -الأرض، النار، الماء- لمخرجة هندية شهيرة تدعى (ديبا ميها) Deepa Mehta . تدور أحداث الفيلم، المأخوذ عن رواية لكاتبة باكستانية شهيرة كذلك تدعى (بابسي سيدوا) Bapsi Sidhwa في مدينة (قاراناسي)، التي تُعدُّ بدورها مدينة مقدسة مثل (ماتورا)، بل تقع كذلك في نفس الإقليم (أوتار براديش). تحكي الرواية قصة أرملة تدعى (تشويا)، تبلغ من العمر ثماني سنوات! لا يوجد خطأ مطبعي هنا، فالطفلة ذات الثمانية أعوام مات عنها زوجها المسن، فصارت أرملة قبل حتى أن تصير امرأة بالغة. إلى هنا والأمر -على بشاعة تصويره- يعد مألوفًا إلى حد بعيد، فطالما سمعنا قصص تزويج القُصّر في بلادي والبلاد المجاورة، وهي جريمة يحاربها القانون منذ عقود وللأسف يحكمها العرف والمصالح الشخصية لأهل الأطفال، ولكن ما يزيد الطين بلةً في الهند هو الأعراف السائدة بشأن الأرامل تحديدًا.

في الأربعينيات من القرن الماضي، وهو الوقت الذي تدور فيه أحداث الفيلم، كان على المرأة التي يموت عنها زوجها أن تتقبَّل واحدًا من ثلاثة خيارات؛ إما أن تُحرق حية بجوار جثة زوجها -وهو الخيار الأقرب للتقوى بالمقاييس الهندوسية- أو تتزوج أخا زوجها إن أمكن لها ذلك، أو أن تقضي بقية عمرها منبوذة وحيدة في أحد الأديرة المخصصة للأرامل، بعد أن تُخلع عنها كل حُلِيِّها، ويُنزَع عنها ال (سندور)، وهو ذلك المسحوق الأحمر الذي تضعه النساء عند قمة رأسهن أو جبهاتهن للدلالة على الزواج، ثم يُحلق شعرها بالكامل، وترتدي (ساري) أبيض بسيطًا، لتحيا حياةً هي للموت أقرب، لا تغادر تلك الدار إلا إلى القبر. كان الخيار الثالث والأخير هو المصير المحتوم لبطلة الفيلم الصغيرة بالطبع.

فيلم سودوي كئيب، عبارة عن سلسلة متتالية من مشاهد الظلم والإجحاف والإساءات اللفظية والجسدية. وربما لخصت جملته الافتتاحية ذاتها مدى ما تتعرض له الأرامل من نساء الهنود من معاناة، وهي جملة مُقتبسة من أحد الكتب الهندوسية المقدسة ذاتها، ويدعى (قانون مانو)، والذي يعد مرجعًا أساسيًا حتى اليوم لتنظيم العلاقات بين فئات المجتمع المختلفة:

A widow should be long suffering until death, self-restrained and chaste

The Laws of Manu, Chapter 5 verse 156-161, -  
Dharamshastras

الترجمة الحرفية هنا هي «على الأرملة أن تعاني حتى الموت، وتلتزم بضبط النفس والعفة». وبسبب هذا النص الذي يعود تاريخه إلى أكثر من ثلاثة آلاف عام، وبالرغم من جهود العديد من الإصلاحيين في الهند وعلى رأسهم (غاندي) في الثمانية عقود الأخيرة لتحسين أوضاع النساء لا سيما الأرامل وبالأخص الأطفال منهن، فإن حتى اليوم ما زال هناك ما يقارب 40 مليون أرملة في الهند تعاني النكد والهجر والوحدة. هذا العدد الرهيب يعادل عُشر تعداد السكان في الهند من الإناث تقريبًا، وهي أكبر نسبة للأرمل في العالم أجمع!

ماتورا - نوفمبر 2007

نصل إلى بوابة معبد آخر كبير، هذه المرة لا يتمتع برونق (إسكون)، ولا نظافته الشديدة، بل تعلق جدرانه الكالحة الأتربة وآثار الغبار، ولكنه كان أكثر ازدحامًا بكثير، ولا يوجد بجانب هنا بل الكثير من الهنود الفقراء. ولجنا وراء (سانجاي) إلى ساحة المعبد، وقد اتجه الجمع بأنظاره إلى المذبح الواقع على الجهة اليمنى، يقف على رأسه رجل خمسيني ضخم الجثة، عاري الجذع، يلتف حول خصره رداء أبيض ناصع

يصل حتى قدميه، تعلق وجهه وجبهته الأصباغ البيضاء والحمراء، وتدلّى بشكل مقطعي حول جذعه سلسلة ذهبية طويلة. كان هناك عدد غير من الناس يتجمعون أمامه، يمد بعضهم يده إليه ليقبض على كفه الغليظة، ويرفعها إلى شفثيه مُقبلاً إيّاها، بينما آخرون قد خروا على الأرض يلمسون قدميه طلباً للبركة، بينما في خلفية هذا المشهد هناك جمع آخر يتمسحون بتمثال لأحد الآلهة ويقدمون له أكاليل الزهور!

ارتجّ عليّ هذا المشهد بالذات، في تلك اللحظة تحديداً، صدمني صدمة شديدة. وكان كل ما قرأته عن (عبادة الأصنام) يتحول إلى حقيقة تامة أمامي. مشهد كفار قريش في فيلم (الشيما) يتمثل أمامي بشخص حقيقية من لحم ودم. لم ينقصهم سوى تماثيل من العجوة لتكتمل الحكمة الدرامية، لولا أن التمور ليست من المحاصيل الزراعية المتوفرة بالهند!

لا بُدَّ أن إمارات الامتعاظ الشديد قد علّت وجهي في وضوح، فقد نظرت إلى (ميهور) بتمعن وقتها، ثم لم تلبث أن سألتني:

• شيرين، كيف يُصلي المسلمون؟

أدرت مغزى السؤال، فأجبتها:

• إن المسلمين لا يُصلون إلا للخالق، ولا يوجد وسيط بينهم وبين هذا الخالق مثل تماثيل أو كهنة.

بالطبع حاولت أن أصيغ الجملة السابقة بألف صورة ممكنة، دون أن أشعرها بالتعالي أو النفور من ديانتها الهندوسية، وكانت هي أكثر لطفًا، حين صاغت لي نظرتها هي للأمر في صورة ذكرى عن أمها الراحلة، فقالت:

• كانت أمي تُصلي دائمًا بتلك الطريقة ذاتها التي تحكين عنها، لم تسجد يومًا أمام تمثال أو صورة لإله، بل كانت تتحدث إليه مباشرة، في أي وقت وأي مكان. ولكنني

لم أستطع أبدًا أن أفعل مثلها. لا أستطيع أن أتصور الإله في خيالي، يجب أن أرى أمامي دائمًا ما يذكرني به، كالتمثال هناك.

وأشارت إلى التمثال المتصدّر للمذبح القريب. كانت المرة الأولى في حياتي التي أدرك فيها أننا بشر لا نختلف فقط في دياناتنا ومعتقداتنا ومذاهبنا، بل نختلف أيضًا في الطريقة الخاصة التي نرى بها الله حتى لو اتفقنا على صفاته وكيونته وعبوديته! ربما كان هذا ما قصده المعلم الصوفي الأشهر (جلال الدين الرومي) حين قال «الحقيقة كانت مرآة بيد الله وقعت وتشظت، كل فرد أخذ قطعة منها، نظر إليها وخال أنه يملكها كاملة». جاءت كلمات (ميhero) صفة تنفض عني تحاملي السابق، وتجعلني أدرك أنني لست على قدر كبير من تقبُّل الآخر كما كنت أتصور!

خرجنا من المعبد المزدهم تجاه أرض فضاء صغيرة، يحدُّها سور أثري عتيق. اقتربت من البوابة في فضول، ففوجئت بعدد رهيب من القروذ ينتشر في الساحة الخالية. كان هناك ما لا يقل عن عشرين قردًا، يتقافز بعضهم حول شجيرات قصيرة، بينما استقرَّ البقية في سكون يتابعون بحدقاتهم الواسعة أرجاء المكان وحركات الفضوليين من أمثالي. اقترب (سانچاي) متهللاً وكأنه طفل يشاهد عرضًا في السيرك، وقال لي بمرح:

• هنا كان الإله (كريشنا) يلعب مع خليلته (رادها)، إنه مكان مُقدَّس جدًّا. ويعتقد الناس هنا بأن (كريشنا) و(رادها) ما زالا يلعبان هنا كل مساء، حتى إن كل تلك القروذ تختفي تمامًا من هنا ما إن يحل الظلام!

أردتُ أن أخبره بأن وجود هذا العدد من القروذ مجتمعة، حتى في وضح النهار، هو أمر مرعب بالنسبة لي أكثر من فكرة ظهور الآلهة ذاتها متجسدة أمام عيني في المساء!

عند هذا المكان انتهت رحلتنا في (قرينداقان)، أو هكذا أعلن (سانچاي) وهو يحثنا على العودة إلى السيارة، ولكن التعب كان قد نال من أمي فأوقف لنا (سانچاي) عربة

(أوتوريكشا) أو توكتوك ليحملنا إلى السيارة، بينما صار هو و(ميهر) يمدان الخُطأ أمامنا وسط الزحام. في الحقيقة إن خطواتهما كانت أسرع بكثير من حركة التوكتوك، الذي كان سائقه رغم مهارة مناورته الجديرة بحلبة ال(فورميولا وان) ذاتها، التي يحاول بها أن يتفادى كل عوائق الطريق من البَشْر والبضائع والقروء، إلا أنه يتمكن بالكاد من محاذاة (سانچاي) وخطوته الرشيقَة.

في وسط هذا السيرك العظيم، الذي أراقبه في فضول من خلف نافذة التوكتوك الأمامية، إذ بالرؤية تُظلم لجزء من الثانية، مع امتداد يد رفيعة مُشعرة لتخطف نظارتي من على وجهي في سرعة منقطعة النظير! جمع بين صراخي وصراخ أُمي وتوقف التوكتوك المفاجئ، توقف (سانچاي) وعاد راکضًا إلينا يتساءل في جزع عما حدث فأخبره بكلمات مبعثرة:

• قرد.. نظارتي.. أين هو؟!

فأخذ (سانچاي) يتلفت حوله، ويسأل السائق وبعض أصحاب المحال القريبة إلى أن أشار أحدهم إلى ناحية أحد الأسطح، فرفعت رأسي إلى أعلى لأجد القرد اللعين يستقر فوق السطح ممسكًا بنظارتي بين يديه وهو يراقب الجماهير في تحفُّز. نظرت إلى (سانچاي) في حيرة، كيف سنعيدها الآن؟ قال لي:

• لا تقلقي، هؤلاء القوم خبراء في التعامل مع القروء، وسرقة الأشياء البراقة تستهوي القروء؛ لذلك ينصح دائمًا السياح بإخفاء الكاميرات والنظارات والمجوهرات البراقة حتى لا تجذب القروء.

أنظر إليه في غيظ ولسان حالي يقول:

• ولم يخطر ببالك أن تنهي قبل الآن؟!

كان تصرّف المحيطين بنا أسرع من كلامنا، فسرعان ما تمكن أحدهم من إجراء مقايضة سريعة مع القرد الشقي، بمنحه ثمرة موز لتلهيه عن مضغ النظارة البائسة، وعاد لي بها في سعادة مبتسمًا في زهو، فتناولها (سانجاي) ونفحه 50 روبية، ثم أعطاني إيّاها متأسفًا عمّا حَدثَ مِنْ قردة بلده الظرفاء!

مايسور - ديسمبر 2019

ودعت (سانجيتا) على بوابة (چانابادا لوكا)، وامتطت كل منا صهوة (الرويال إنفيلد) الخاص بها، وافترقنا كل منا في اتجاه، هي عائدة إلى بيتها في (بانجلور)، وأنا راحلة إلى مدينة جديدة وبيت غريب آخر يستضيفني للأيام المقبلة.

يصحبني (الشاه كابور) مرة أخرى على طريق (بانجلور-مايسور) السريع، الذي اتفقنا أنه ليس سريعًا بالقدر الكافي، والممتد بين القرى والحقول الخضراء. يجب أن أعترف بأن ازدحام الطريق نسبيًا مع المشاهد الزراعية على الجانبين ساعدا بشكل كبير على كسر رتابة السفر وحيدة للمرة الأولى في هذه البلاد، هذا إلى جانب صوت (أم كلثوم)، وهي تتساءل في استنكار «إزاي إزاي إزاي؟! أوصفك يا حبيبي إزاي؟!» الذي انطلق في السماعات الداخلية الموصلة بخوذتي ليتغلغل داخل وجداني ويمنحني شعورًا غامرًا بالألفة. لوهلة غمرتني النوستالجيا، وبدا وكأنّ الزمان والمكان انتقلا بي إلى الكنبة الخلفية لسيارة أبي (البيتلز)؛ وهي تحملنا على طريق الإسكندرية الزراعي في بداية التسعينيات!

على هذا الطريق -أعني (بانجلور-مايسور)، وليس الإسكندرية الزراعي- تعرفت للمرة الأولى بعض قواعد وأعراف القيادة في الهند والتي لم ألاحظها داخل المدينة بالأمس. أول تلك القواعد المرورية غير المدوّنة، هي أن صغير الحجم يلزم اليسار، وأن البقاء للأضخم على الحارة اليمنى من الطريق! وقد أدركت تلك القاعدة بالطريقة الصعبة، بعد أن صبّ عليّ ما لا يقل عن سبعة من السائقين الهنود لعنات (كريشنا) ذاته، مصحوبة بالكثير من دقّ النفير، كلما شرد ذهني فحدث ب(الشاه كابور) عن

الحارة اليسرى إلى الحارة اليمنى من الطريق. القاعدة الثانية هنا هي أنه لا يوجد قوانين محددة تحكم التقاطعات أو الميادين حال غياب إشارات المرور، بل الهنود يتعاملون معها بمبدأ «سَمَّ كريشنا في قلبك ودوس بنزين» والبقاء هنا للأسرع!

مع وجود تلك الملاحظات المزعجة على التقاليد المرورية التي تحكم الطرق الهندية بوجه عام، إلا أنني وجدتُ فيهم مميزات أخرى، لعلَّ أهمها أن الكل يلتزم بحارته مهما كان الزحام ومهما طال الطريق، فمن النادر جداً أن يقطع أحدهم الطريق على سيارة أخرى أو ينتقل من حارة إلى حارة بشكل مفاجئ. كذلك يُحسب لهم سهولة صف الموتوسيكلات؛ ففي كل شارع وأمام كل مبنى تقريباً هناك مساحة مجانية تماماً مُخصَّصة لصف الموتوسيكلات والدراجات، بعكس ما يحدث في بلادي مثلاً، حيث يُمنع صف الدراجات من الأساس بالعديد من الأماكن العامة والخاصة! ومن فضول القول أنه لا يوجد في الهند من يعتدي على حَرَم الشارع بوضع قضيب حديدي أو قالب من الطوب أمام بيته أو متجره ليحجز لنفسه مكاناً دوتاً عن بقية الشعب الهندي الكادح وكأنه سلطان الحارة والحاكم بأمره!

بعد ساعتين من القيادة، وقد شارفت الساعة على الثالثة مساءً، يمر بي (الشاه كابور) أخيراً تحت لافتة كبيرة تحمل عبارة «مرحباً بكم في مايسور». وبعد رُبع ساعة أخرى صرت في قلب المدينة. أسرت (مايسور) قلبي من اللحظة الأولى. فبعد مدينة صناعية كئيبة مثل (بانجلور)، تأتي (مايسور) بشوارعها الهادئة وميادينها الواسعة المزينة بالتماثيل والنُصب التذكارية، ومبانيها المنخفضة الملونة بألوان مبهجة من الأصفر والأزرق والأحمر والأخضر، لتنفض عني تراب الطريق وتستقبلني بنسمات منعشة وطابع شبه أوروبي مُبهج للعينين!

وضعت الموقع الذي أرسلته لي (جابوش) -مضيفتي التالية التي تعرفت إليها عبر تطبيق الكاوتشسيرفينج كذلك- على تطبيق الـGPS، ثم أعدتُ تثبيت الموبايل على مقود الموتوسيكل، وانطلقت أتلوَّى وراء السهم الأزرق في طرقات المدينة الواسعة،

فقداني إلى شارع فرعي هادئ، تحده الفيلات ذات الطابقيين أو ثلاثة على الأكثر من الجانبية، ثم ظهرت إشارة الوصول أخيرًا على الشاشة مع توقفي أمام فيلا صغيرة ذات بوابة حديدية قصيرة. أرسلت رسالة إلى (جابوش) أنني قد وصلت. انتظرت عدة دقائق قبل أن يُفتح باب الفيلا. تتقدم مني تلك الفتاة ضئيلة الجسم، سمراء اللون، ذات الوجنات البارزة والعيون العسلية الواسعة، لثُرْحَب بي في مرح وهي تفتح لي البوابة الأمامية الحديدية لأمرَّ عبرها بالموتوسيكل، وتشير إليَّ أن أصفه بجوار دراجتها الهوائية بجراج الفيلا.

أخيرًا أدير المفتاح ليتوقف موتور (الشاه كابور) المزعج ويسود الهدوء. أتنفس بعُمق خارج الخوذة الخانقة، قبل أن أترجل لألقي التحية مرة أخرى على (جابوش)، شاكرًا إيَّاهَا على استضافتي وترحابها. تبدي إعجابها بالموتوسيكل وتَحَمَّسَهَا لرحلتي معه، ثم تدعوني إلى الداخل. أنقل متاعي لأضعها بجوار الباب في صالة استقبال خالية، تفضي إلى صالة أخرى أوسع منها، ثم أتبع (جابوش) عبر قاعة طعام جانبية صغيرة إلى الحديقة الخلفية للفيلا. تهلَّلت ثلاثة من صديقاتها لدى رؤيتي، ورحبن بي في حرارة، وكل منهن تعرفني باسمها. لا يتركن لي فرصة لالتقاط أنفاسي، يبادرنني بالأسئلة عن رحلتي، ومحطتي التالية، وعن مصر والأهرامات! أجاريهن لساعة كاملة أخرى، وقد لمسني بساطتهن وترحابهم، قبل أن أستأذن للتوجه إلى غرفتي لِئِيل قسُط من الراحة.

تقودني (جابوش) إلى الدور العلوي من الفيلا، حيث تقع غرفتان للنوم، واحدة لها وواحدة للضيوف، كانت تلك الأخيرة هي ما خصصته لإقامتي. غرفة كبيرة، تضم سريرين كبيرين ودولابًا خشبيًا ضخماً بعرض الحائط، هذا بالإضافة إلى حمام خاص يقع بطرف الغرفة.

أستحم سريعًا مستمتعة بالمياه الدافئة والشاور المنعش بعد رحلة السفر المرهقة، ثم أعود إلى قاعة الطعام لأجد اثنتين من الفتيات قد رحلتا. لم تبق مع (جابوش) سوى

فتاة واحدة، أكثر سُفرة من رفيقاتها، يميزها شعر قصير للغاية وملابس ذكورية، تذكرني بأن اسمها (كاثيا)، فابتسم في خجل من ذاكرتي الرديئة. تدعوني الفتاتان إلى الطعام، فقد طلبتا بعض المعجنات للغداء. أتحمس لقبول العرض السخي، ولكنني أتذكر ما حدث لي وقت الإفطار مع (سانجيتا)، والطعام الملتهب الحار الذي تناولته، فأنظر إلى المائدة في توجُّس، وأشرح للفتاتين مأساة فتاة مصرية في الهند، فتقسمان بأغلظ الأيمان أن تلك المعجنات ليست حارة بالمرّة، وأنهم يراعون الأجانب حين يطلبون الطعام في وجودهم.

للأسف صدقتهم بحُسن نيّة، ومع أول قضمة انهارت شلالات الدموع مرة أخرى، ولكن هذه المرة بدلاً من ضحكات (سانجيتا)، استقبلت الفتاتان دموعي بهلع صادق، مخلوط بالأسف لألمي وأوجاعي. مدت (كاثيا) يدها للتذوق من نفس الطعام الذي تذوقته قبل أن تهز رأسها في اندهاش قائلة:

• ولكنه ليس حارًا للدرجة، ربما القليل جدًّا من التوابل، حتى إنني بالكاد أشعر بها!

هنا صار عندي قناعة راسخة بأن حلّيات التذوق لدى الهنود إما تختلف تشريحياً وفسيوولوجياً بشكل جذري عن بقية البشر، وإما أن تلك الحلّيات قد فقدت وظيفتها تمامًا من فرط ما التهبّت مرارًا وتكرارًا مع تناولهم للفلفل الحار منذ نعومة أظافرهم!

بعد الغذاء الذي لم يكد يبدأ لينتهي، رأيت أن أراعي قواعد اللياقة، وأن أنسحب إلى غرفتي لأدع الرفيقتين وشأنهما، إلا أنهما لسبب ما وبكل أريحية قررتا مرافقتي أنا إلى غرفتي. تجلسان متقابلتين على أحد السريرين بالغرفة، تتبادلان أطراف الحديث بينما أدور أنا في الغرفة أُللم أشيائي المتناثرة من حولهما في إحراج!

• أنا مثليّة.

هكذا تباغتني (كاثيا) في معرض حوارها مع (جابوش)، موضحة سياق حديثها عن فتاة أخرى تواعدها في الوقت الحالي! مهلاً مهلاً مهلاً! إن الهند بالتأكيد هي بلد

الصدمة الحضارية والتعددية الثقافية عن جدارة، ولكن آخر ما كنت أتوقعه أن أقابل فتاة تصارحني منذ اللقاء الأول بتوجهها الجنسي هكذا وكأنها تخبرني عن تفضيلها للتفاح الأخضر عن التفاح الأحمر!

أعتقد بأن السؤال المنطقي الذي قفز إلى ذهني مباشرة بعد أن نفخت عنه أثر الصدمة الأولى هو «هل هي صديقة جابوش إذن؟». فأشرت في ارتباك إليهما معًا متسائلة في تردد إن كُنَّ على علاقة، فضحكت (جابوش) قائلة:

• لا لا، أنا مُغايرة الجنس، نحن فقط أصدقاء!

حملني الفضول على مصارحتها بدوري أنني أجد ذلك الانفتاح بشأن التوجهات الجنسية في مجتمع عهده متحفظًا مثل الهند، ناهيك عن تمسك هذا المجتمع بالعديد من التقاليد التي يرجع عهدها إلى آلاف السنين، لا سيما تناولهم لموضوع الأرامل إيَّاه على سبيل المثال، غريبًا جدًا بالنسبة لي. تهز (كافيا) رأسها متفهمة ثم تقول:

• ما زال الأمر غير مقبول اجتماعيًا بصورة كبيرة هنا، لا سيما في المناطق غير الحضرية، ولكن نسبة تقبله صارت كبيرة إلى حدٍّ ما في المجتمعات الراقية وفوق المتوسطة.

أتذكر على الفور فيلمًا آخر من (العناصر الثلاثة)، لذات المخرجة المثيرة دائمًا للمشكلات (ديبا ميهتا)، ويحمل اسم عنصر (النار)، الذي طرح قضية المثلية الجنسية في الهند بصورة مباشرة، مما أرسل موجات عاتية من الاضطرابات وسط المجتمع الهندي في أواخر التسعينيات، وصلت حدَّ تحطيم بعض دور السينما في أثناء عرض الفيلم، وأدَّت في الاتجاه المضاد لتصاعد موجات من الاحتجاجات من قبل الهيئات النسوية ومنظمات دعم الحريات في البلاد!

أعود لأسأل (كافيا):

- وماذا عن القبول الديني للأمر؟ هل المثليّة محرمة في الديانة الهندوسية؟

فتدخلت (جابوش) في الحديث قائلة:

- هذا هو العجيب في الأمر!

أنظر إليها في تساؤل بينما تضحك (كاثيا)، فتسترسل الأخرى موضحة:

- المثليّة الجنسية لم تكن يوماً من المحرمات، ولم تكن جريمة جنائية في القوانين الهندية التقليدية القديمة، بل جرّمت فقط من قبل البريطانيين خلال فترة حكمهم في الهند المسماة بالـ (British Raj). ولكن في 2018، ألغت المحكمة العليا الهندية تجريم المثلية الجنسية، بل عدّلت القوانين لتجريم التفرقة العنصرية بسبب الجنس! ثم سألتني:

- هل سمعتِ عن معابد (كاچوراھو) Khajuraho؟

هزرتُ رأسي بالنفي. فأخرجتُ تليفونها المحمول وبحثت عن الاسم، فظهرت مجموعة من الصور لواجهات معابد تحمل تماثيل في وضعيات جنسية متعددة. احمرّ وجهي خجلاً، فضحكت (جابوش) وقالت في مرح:

- حسناً! هذا هو تاريخنا شئنا أو أبينا!

هكذا انتقل بنا الحديث إلى التاريخ قليلاً، ومنه إلى أهم المزارات بالمدينة. كنت قد حددت بعض الأماكن التي انتوى زيارتها يوم غدٍ، ولكن (جابوش) نبهتني إلى أن اليوم هو الأحد، حيث يوجد عرض للصوت والضوء في قصر (مايسور الملكي) يقام مرة واحدة في الأسبوع. راجعت الإنترنت فوجدتُ أن العرض يبدأ في تمام الساعة مساءً، أي بعد نصف ساعة من الآن. هكذا استأذنت منهما في الاستعداد للخروج فوراً، في إشارة خفية إلى وجوب جلانهم عن الحجرة المحتلة في الحال!

أعددت تطبيق الـGPS للتوجه إلى قصر (مايسور) الملكي، وخرجت مع (الشاه كابور) في جولة ليلية قصيرة بشوارع (مايسور) الهادئة. أحببت تلك المدينة في المساء كما أحببتها سابقًا في وضوح النهار، بل ربما أكثر، فهي تتمتع بهدوء ندر أن قابلته في الهند من قبل، ومعمار جميل منخفض الارتفاع، يسمح لك برؤية السماء والأشجار طوال الوقت تقريبًا. كانت (مايسور) بالتأكيد محطة مريحة للأعصاب بعد ضوضاء (بانجلور) وقبح مبانيها الأسمنتية الحديثة!

كان من السهل معرفة القصر الملكي، فأنواره المبهرة تلوح من على بُعد ثلاثة ميادين على الأقل. قطعت تلك المسافة القصيرة وذهني منشغل بكيفية العثور على مكان آمن لأصف فيه (شاهكابور)، ولكنني فوجئت بوجود ساحة كبيرة جدًا مخصصة لصف الموتوسيكلات تحديدًا، أمام بوابة القصر مباشرة! تركت الموتوسيكل بجوار إخوته من الدراجات المختلفة الأنواع، ومشيت تجاه بوابة السور الخارجي لحديقة القصر المفتوحة على مصراعيها. لا يوجد شباك للتذاكر، فالعرض مجاني تمامًا!

أعبر بوابة التفتيش الإلكترونية إلى داخل الحديقة مباشرة. كانت الأجواء تصدح بمقطوعة موسيقية حيّة، تغلب عليها نغمات آلة (السيطار) الهندية المميزة. كلما توغلت في المشي تجاه القصر اللامع بالأضواء المبهرة كلما ارتفع صوت الموسيقى وكأنه مغناطيس يجذبني إليه بقوة. تنتشر من حولي عائلات هندية كاملة، يركض أطفالهم في أرجاء المكان في صخب، وشباب صغار السن يمسكون أيدي حبيباتهم ويهمسون في آذانهم كل حين بكلمات تبتسم لها الحبيبة في رضاء تام، ومجموعات من المراهقين يتسلون بالتقاط صور السيلفي على خلفية القصر المهيب. بدا قصر (مايسور) في تلك الليلة كمتنزه شعبي بسيط يجذب سكان المدينة الهادئة في الأمسيات معتدلة الطقس كهذه الليلة، ولكنه في الحقيقة أعظم من ذلك، فهو المشهد السياحي الأكبر في الهند بعد (تاچ محل) ذاته!

تصدرت الفرقة الموسيقية الساحة الأمامية المواجهة للقصر، بينما تالأت واجهته من خلفها بآلاف المصابيح البيضاء في مشهد مُبهر. من العسير أن يتصور المرء أن هذا القصر الضخم كان يومًا ما مشيدًا بالكامل من خشب الصندل عطر الرائحة، إلى أن احترق ذات يوم في أثناء أحد الاحتفالات، وتحول بالكامل إلى رماد، لينهض مرة أخرى مثل العنقاء على يد مهندس معماري أيرلندي يدعى (هنري إيروين)، نَجَحَ في تصميمه الجديد بالحفاظ على الطابع المعماري المميز للعمارة الهندية القوطية، وإن شُيِّد هذه المرة باستخدام الجرانيت والأحجار. هناك خمسة قرون كاملة تقبع بين جدران هذا القصر، منذ اليوم الأول لبنائه وحتى وصل إلى صورته الحالية!

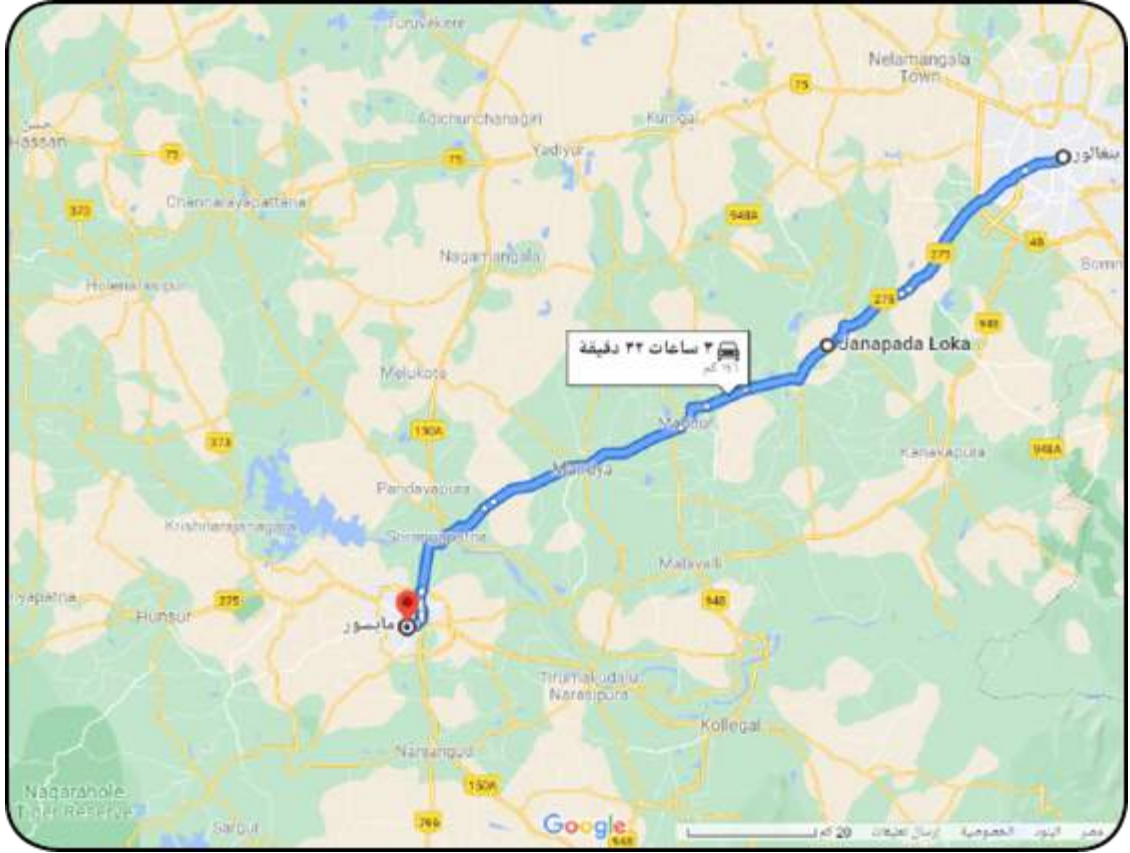
تركث القصر والفرقة الموسيقية من خلفي، وتوجَّهت إلى الجهة الشمالية من الحديقة الشاسعة، حيث تقع البوابة الرئيسية الخارجية، وتدعى Jayamarthanda Gate. تُعدُّ تلك من أكبر البوابات بمدينة (مايسور)، وهي الحافلة بالقصور والمباني الأثرية العريقة. من خلالها عبر ملوك وسلاطين المملكة الهندية الصغيرة وقتها في مواكب فخمة، تتقدمهم الأفيال الملكية، والخيول المطهَّمة والفرق الموسيقية. ولكنني ما إن اقتربت من جدران البوابة حتى أذهلني ما اكتشفته هناك.

بالأحرى كانت الصدمة هي الغالبة لا الدهول. فكُلُّ هذا البهاء والإبهار الذي تسبغه الإنارة الساطعة على القصر مانحة إياه مظهره المتألق الشبيه بالقصور الأسطورية في حكاوي الجدات لم يكن مصدره سوى عدد رهيب من المصابيح الكهربائية الصغيرة المثبتة إلى جدران القصر الأثرية مباشرة! أكثر من ثمانية وتسعين ألف مصباح إن شئت الدقَّة!

بعد زيارة القصر الفاخر، أعودُ مرة أخرى إلى مسكني الجديد لهذه الليلة. في الطريق أمرُّ بمطعم (ماكدونالدز)، فأتوقَّف لالتقط بعض الطعام. يحالفني الحظ هنا، فبالرغم من التأثير الطاغي للشطة الهندية حتى على قائمة طعام أمريكية أصيلة كتلك

الخاصة بالعلامة التجارية العالمية، فإنني نجحت بمعجزة ما في العثور على شطيرة  
من الدجاج غير الحار على تلك القائمة! تناولت طعامي بالمكان، ثم عدتُ أخيراً إلى  
المنزل وقد تخطت الساعة التاسعة، وساد الهدوء أنحاء الحي الراقي. أُتسحَّب في  
هدوء إلى حجرتي حتى لا أُزعج (جابوش) التي ساد الظلام حجرتها بالفعل مُعلنة  
النوم المبكر.

# خريطة اليوم



# ألبوم الصور



# چانا بادا لوکا



چاناڀادا لوکا



مع رونالد ماكدونالد أمام فرع مایسور



# قصر مایسور

# مدينة الشيطان

مايسور - ديسمبر 2019

لا يوجد سبب منطقي واحد يدعو فتاة مثلي إلى الاستيقاظ في تمام الخامسة والنصف فجرًا في مدينة وصلتها قبل أقل من 24 ساعة فقط لا غير سوى جبل (شاموندي)! أو على الأقل بدا لي هذا السبب منطقيًا بما يكفي ليدفعني دفعًا إلى القيام في تلك الساعة المبكرة من ذلك الصباح الديسمبري المفعم بالغيوم، لأتسلل من المنزل في هدوء شديد حتى لا أوقظ (جابوش) النائمة في غرفتها القريبة، ثم أمتطي صهوة جوادي الحديدي (الشاه كابور)، الذي أيقظ صوته حتمًا نصف سكان (مايسور). على كل حال، لننطلق في نزهة صباحية بشوارع (مايسور) الخالية إلا من بعض الطيور النشيطة ونسمات الهواء الباردة. قابلت (كاثيا) أمام البوابة الرئيسية لمركز (مايسور) التجاري كما اتفقنا في الليلة السابقة. وجدت على وجهها نفس الحماسة التي اعترتها بالأمس حين اقترحت عليها مرافقتي في رحلة اليوم، وقد وقفت تُصَفِّقُ بيديها وهي تنظر إلى (الشاه كابور) في جذل طفولي كمن مُنِحَتْ للتو مفتاح مدينة الملاهي! قفزت (كاثيا) في رشاقة على المقعد من خلفي ثم انطلقنا معًا باتجاه جبل (شاموندي)، وقد صار يلوح في الأفق كعملاق غافٍ في الضباب، يطل على المدينة في خمول.

بدأنا رحلة ارتقاء الجبل على مهل، فالرؤية ليست في أنقى صورها بفعل الضباب الكثيف في تلك الساعات الأولى من الصباح، وقد أخذت تزداد سوءًا بالفعل كلما زاد ارتفاعنا أكثر عن سطح الأرض. كما كانت منحنيات الطريق على قدر من الخطورة، رغم قلة السيارات الآتية من قبالتنا، بسبب الميل الحاد لسطح الجبل. نتوقف في منتصف الطريق لنلتقط بعض الصور. كان المشهد خرافيًا بحق، فالمدينة النائمة في حضن الجبل تتلحف بغطاء مخملي أخضر من الأشجار والنباتات، ينسدل فوق ميادينها وبين شوارعها الواسعة، بينما

تحيطها غوطة يانعة تتصل بحدود الجبل. كان هذا المشهد وحده كفيلاً بتعويض كل ما فاتني من راحة ونوم حتى ساعة متأخرة من اليوم.

بعد ثلث ساعة وصلنا إلى قمة الجبل الذي لا يزيد ارتفاعه عن الألف متر. ساحة دائرية واسعة، يتوسطها تمثال ملون هائل الحجم، لرجل ضخمة الجثة، عظيم الشارب، يحمل سيفاً ضخماً مثل الساطور في يمينه وحية (كوبرا) شرسة الملامح في يسراه. يا له من استقبال حافل للزائرين!

• انظري، (ماهيشاسورا)!

صاحت (كافيا) في محاولة ليعلو صوتها فوق صوت (الشاه كابور)، ونحن ندور بالموتوسيكل حول التمثال العملاق. قلت في سري «تشرفنا!»، ثم أكملت طريقي إلى ساحة انتظار مفتوحة تقع في الركن الشمالي الغربي من الساحة الكبرى. تراجلت عن الموتوسيكل سائلة إياها وأنا أخلع خوذتي في غير اكتراث:

• من هذا «الماهي-شيء-ما»؟

• (ماهيشاسورا) هو كائن شيطاني كان يحكم مملكة (مايسور) في قديم الأزل، ودخل معركة حامية مع الإلهة (شاموندا) انتصرت هي فيها وقتلته!

وكأنني تخلصت من هذا (الماهيشاسورا) لتظهر لي الآن تلك (الشاموندا)! ياللملاحم الهندوسية المتخمة بآلهة وشياطين لا حصر لها. انتويت الصمت بدلاً من أن تستدرجني إلى حكايات لا تنتهي عن المعارك الكونية، ونظريات (الكارما) وحروب ينتصر فيها الخير على الشر دائماً، ثم ما لبث أن أثار فضولي ملاحظة الصلة بين اسم الإلهة المذكورة واسم الجبل نفسه. علقت على الموضوع فأكدت (كافيا) ظني:

• نعم، هذا الجبل سُمي على اسم الإلهة (شاموندا) أو (شاموندي)، وهي واحدة من الـ(ماتريكاس) أو (الآلهة الأمهات) في الهندوسية.

أتمتم في سري: «هايل! ما كان ينقص هذا الاحتفال الرائع من الآلهة والشياطين سوى مجموعة من الأمهات والخالات كذلك!» بينما تسألني (كاثيا):

- هل لاحظتِ كذلك التشابه بين اسم (ماهيشاسورا) و(مايسورو) أو (مايسور)؟
- صحيح! هل سميتِ المدينة على اسم هذا الشيطان الوسيم؟!

ضحكت قائلة:

- نعم، فالاسم يعني (مكان ماهيشا)، وقد حوله البريطانيون بطريقة ما إلى (مايسور) فصار اسمها الرسمي منذ ذلك الحين.
- يا إلهي! كيف تسمون مدينة بهذا الجمال على اسم شيطان شرير؟
- عندك حق! ولكن إن كان في ذلك تعزية فقد قدّس حكام المدينة الإلهة (شاموندا) قاتلة الشيطان عبر عقود من الزمان، وجعلوا لها هذا المعبد الجميل على قمة ذات الجبل الذي قتلت فوقه الشيطان (ماهيشاسورو).

توجه نظري تلقائياً إلى الهيكل البرجي العظيم عن يميني، والذي سبغته أشعة شمس الصباح بلون ذهبي براق ينعكس عن طلائه الأصفر الزاهي، متأملة تفاصيله الدقيقة المميزة. كان البرج يرتفع إلى سبعة طوابق، يُزيّن واجهة كل منها تمثال أبيض للمعبودة (شاموندي). قلت في انبهار:

- واو! لطالما أبهرني هذا الطراز المعماري للمعابد الهندوسية. التماثيل الدقيقة والزخارف المنمقة المتتالية. شيء رائع!

ولكن (كاثيا) استوقفتني مُطقطقة بلسانها وقالت:

- هذا خطأ شائع يقع فيه الكثير من الأجانب، فهم يحسبون أن هذا البرج يمثل الشكل الكلاسيكي للمعابد الهندوسية، في حين أنه في الواقع ما هو سوى مدخل المعبد فقط!

- تعنين أن هذا البناء الضخم ليس هو المعبد أصلاً؟

هزت رأسها في نفي ثم فسّرت:

- بلى، هذا البرج يدعى (جوبورا)، وهو يمثل بوابة العبور إلى المعبد نفسه، وفي الكثير من الأحيان -كما هو الحال هنا - يكون من الضخامة الكافية بحيث يحجب المعبد ذاته!

رفعت رأسي لأتأمل المعمار الدقيق للبرج الحجري، ثم أجفلت لدى ملاحظتي لحركة سريعة تعتري البرج فجأة! جذبت (كاثيا) من يدها منبهة وأشارت إلى أعلى البرج في حماس:

- انظري. انظري بسرعة! القرودا!

فضحكت لحماستي الطفولية وقالت:

- نعم! إن المنطقة هنا تعج بالقرودا!

قالتها في اعتيادية وكأنها تخبرني بأن الشمس تشرق من المشرق، في حين وقفت فاغرة فاهي تماماً كطفلة في السيرك وأنا أتطلع إلى فريق كامل من القرودا الصغيرة، ما لا يقل عن عشرة منهم، يتسلّقون جدران برج المعبد في رشاقة وسرعة منقطعة النظير.

أخرجتني (كاثيا) من شرودي وراء حركة القرودا النشطة حين أشارت إلى مبنى من طابق واحد، يمتد من وراء البرج وقالت:

- هيّا بنا ندخل إلى المعبد.

دلفنا من البوابة الضخمة للبرج (الجابورا) وعبر السور الخارجي للمعبد إلى بوابة أقل تواضعًا، تفضي إلى قاعة صغيرة، يقف بها عدد من الرجال في صمت وخشوع أمام كاهن هندوسي في رداء أصفر ناري، حافي القدمين، عاري الأكتاف، يتمتم ببعض الصلوات في خفوت. أشارت إليّ (كاثيا) بالصمت خفية، فتبعتها في سكون لنلتف حول المذبح، قبل أن نغادر المكان من باب جانبي صغير يفضي إلى الساحة الجانبية للمعبد، ومنها إلى خارج المعبد كله.

لاحظت أن (كاثيا) لم تُصلِّ بالداخل، ولم تتوقف لدى الكاهن لطلب البركة كما يفعل أغلب من رأيتهم بالداخل. سألتها في حذر:

- (كاثيا)، اعذري فضولي، ولكنني في هذه الرحلة قابلتُ أحاول معرفة الهند -بشكل أوسع - ومجتمعها الواسع المتعدد الثقافات. إن سمحت لي بسؤال شخصي إلى حد بعيد، هل تؤمنين بالهندوسية؟

ابتسمت في لطف قائلة:

- همم. هذا سؤال مُعقّد أكثر منه شخصي! أعتقد بأنني أو من بالدين كونه حاجة إنسانية أساسية، ولكنني أو من كذلك أن الهندوسية، مثلها مثل أغلب الديانات التي عرفها الإنسان على اختلاف الزمان والمكان، مصدرها إنساني بحت.
- تقصدين أن الدين من اختراع الإنسان؟
- أقصد أن الإنسان كان وما زال وسيبقى دائمًا بحاجة إلى الدين لإشباع رغبته الروحية، وهي -في اعتقادي- رغبة غريزية مثلها في ذلك مثل الرغبة إلى الطعام والشراب والتزاوج.
- حيرتيني يا (كاثيا)، هل يعني ذلك أنك مُلحّدة أم مؤمنة بالدين؟

ضحكت كثيرًا ثم قالت:

- الأمر ليس بهذه الحديّة الواضحة، ليس هناك أبيض وأسود في الروحانيات، إن تسميتها نفسها، كلمة (روحانية) تأتي من الروح، وكلانا يعلم أن الروح ليست شيئاً مادياً ملموساً، الروح ليس لها لون مُحدّد، ولا شكل محدد، ولا صفة محددة، فكيف نُطلق عليها تسميات حدّيّة مطلقة مثل الكفر والإيمان؟
- ظهَرَ على وجهي عدم اقتناع برؤيتها، ولا بُدَّ أنها شعرت بأن عليها الاستطراد أكثر، فأردفت:
- كل الأديان في العالم منذ بدء التاريخ المعروف جاءت لتجيب الإنسان عن سؤالين مهمين يشغلان باله حتى يومنا هذا، حتى وإن نسي الإنسان هذين السؤالين اليوم ولم يعد يتفكر فيهما من الأساس.
- أي سؤالين؟
- السؤال الأول هو: مَنْ خَلَقَ كُلَّ هذا؟ من خلق الأرض والمخلوقات والطبيعة والإنسان نفسه؟
- حسنًا، هذا سؤال مُختلّف عليه حتمًا، فالديانات تختلف ما بين تقديس إله واحد مثل الإسلام واليهودية، وتقديس آلهة متعددة مثل الهندوسية، بل إن هناك ديانات تُقدّس عناصر الطبيعة ذاتها. ناهيك عن الملحدين الذين لا يؤمنون بوجود أي من هذا!
- كما قلت لك، الدين -أي دين- مهمته الإجابة عن السؤال، لسنا هنا بصدد البحث عن الإجابة الأصح، إنما أنا أذكر لك فقط السؤال المحير الذي تتمحور حوله كل الأديان على اختلاف إجابتها عن السؤال نفسه. حتى الملحدين الذي لا يؤمن بأي إله على الإطلاق، لا بُدَّ أن السبب الرئيس في إلحاده هو طرحه لذات السؤال: من خلق كل هذا؟ كل ما في الأمر أنه وجد الإجابة المنطقية -بالنسبة له- هي نظرية الـ(بيج بانج) مثلًا!
- همم. هذا منظور فلسفي جديد كليًا بالنسبة لي. ولكن إذا كان هذا هو السؤال الأول، فما هو السؤال الثاني؟
- السؤال الثاني هو: ماذا يحدث للإنسان أو للكائنات عمومًا بعد الموت؟

- ولكن الدين له أبعاد كثيرة جدًا. صعب أن نُلخِّص فكرة (الدين) أو العقيدة -أيًا كانت طبيعتها- في سؤالين.
- إذا تفكرت قليلاً في مغزى السؤال الأول ثم السؤال الثاني، وقارنت إجابتهما في ديانتك على سبيل المثال لتبيِّن لك أن كُلَّ أبعاد دينك ما هي إلا تَبَعات لإجابة هذين السؤالين بالتحديد.
- بمعنى؟
- لتأمل السؤال الأول: من خلق كل هذا؟ لا بُدَّ أن هذا السؤال قد تردَّد في ذهن الإنسان الأول منذ فجر التاريخ، وإلا لما توصل إلى أن أحداً ما سماه (إله)، أو مجموعة من الآلهة، أو قوة خارقة، أو ذات عليا، أو أيًا كانت تسمية تلك الكينونة الخالقة، لا بُدَّ أنه يسير هذا الكون؛ لذا فهو يتحكم في أقداره، ويحكم العلاقات بين مخلوقاته فيأمر وينهى، ويحلل ويحرِّم.
- تمام. فماذا عن السؤال الثاني؟ ما مدى الأهمية الكبيرة التي يستفيد منها الإنسان إذا عرف ماذا يوجد على الطرف الآخر من الحياة؟
- فائدة عظيمة طبعاً، فإجابة هذا السؤال هي المحفز الأكبر للإنسان حتى يسعى لبلوغ الكمال في حياته، بل ليجد معنى لهذه الحياة نفسها. نحن في الهندوسية مثلاً، نؤمن بتناسخ الأرواح في دورة الحياة، فالجسد قد يفنى، ولكن الروح تحيا مرة أخرى في جسد آخر، لثمَّنح فرصة أخرى لتحقيق هدف سامٍ وعظيم من حياتها.
- حسناً نحن في الإسلام أو في الديانات الإبراهيمية الثلاثة عموماً لا نعترف بفلسفة التناسخ، ولكننا نؤمن بأن العمل الصالح في الدنيا يقود إلى نعيم الحياة الآخرة والعكس صحيح.
- رأيتِ؟ نفس مبدأ التحفيز على أعمال الحياة وإن اختلفت الصورة التي يُرَسَّخ بها الدين هذا المبدأ في نفوس أتباعه!
- بعد هذه المحادثة الفلسفية اختلفت رحلة النزول من على الجبل عن رحلة الصعود الهادئة تماماً، فمع صوت هدير (الشاه كابور) كان هناك مئات من الأفكار تهدر بين جنبات رأسي كذلك. كيف ننظر نحن أبناء الديانات التوحيدية التي يعبد أتباعها إلهاً

واحدًا، إلى الديانات التعددية مثل الهندوسية نظرة دُونِيَّة، كنتاج طبيعي لتحقير فكرة الإِشْرَاق بالله، ولا نعرف عنها سوى بعض الممارسات التي نحكم عليها دون فهم حقيقي لمغزاها مثل تقديس الأبقار والاستحمام في نهر الجانج، وذلك بالرغم من أن الفلسفة الدينية الهندية تسبق التاريخ ذاته، فهي أقدم ديانة حية على وجه الأرض اليوم وبالتأكيد لديها الكثير من الفكر الفلسفي لتقدمه إلى البشرية. أتحدث هنا عن الفكر وليس العقيدة وشتان بين الاثنين. المفارقة هنا أن ما يعرفه غير المسلمين عن الإسلام مثلاً يتلخص كذلك في الطواف حول الكعبة ودَبْح الماشية. الحقيقة المخزية لكلا الطرفين هنا هي أن لا أحد يهتم بفهم وتفهم ثقافة وفلسفة الآخر قدر اهتمامه بإثبات أنه على حق وغيره على خطأ. أدركت في تلك اللحظة فقط أن الاختلاف طبيعة كونيَّة، بينما الخلاف صناعة بشرية محضة. ربما كانت نظرتي تلك مفرطة في الرومانسية، أو المثالية، ولعلها من المفارقات الساخرة أنها ذكرتني بمثالية سياسة التعددية الدينية والتعايش السلمي للديانات المختلفة في الهند التي تبناها (المهاتما غاندي) وأتباعه إِبَّان كفاحهم السلمي لتحرير الهند من سلطة الاحتلال البريطاني، إلى أن أفاق الجميع من الحلم ذات مساء على صوت ثلاث طلقات متتالية استقرت جميعها في صدر (غاندي) النحيل، وقد أطلقها هندوسي متطرف من دُعاة القومية الهندوسية!

عُدنا إلى المنزل لنجد (جابوش) على أهبة الاستعداد للخروج، وقد دعنتني للانضمام إليهما لتناول الإفطار في مقهى قريب. هكذا تركت (الشاه كابور) في جراج الفيلا وانطلقنا سيرًا على الأقدام في رحلة قصيرة بالحي الهادئ. الجو معتدل، وقد انقشعت الغيوم إلى حد كبير، ونسيم خفيف يطوف بالأرجاء ويداعب فروع الأشجار في لطف. نَمُرُّ بين صفوف من البيوت الصغيرة مبهجة الطلَّة، بيوت حمراء، وخضراء فستقية، وزرقاء اللون، تُسعد الناظرين. عند أحد تلك البيوت، وكان أصفر اللون، قادتنا (جابوش) عبر البوابة الخشبية القصيرة للحديقة الأمامية، لنمر عبر مجوز قصير يفضي إلى باب خلفي. أربكني المكان، هل هو منزل أحدهم؟ ألم تقل

(جابوش) إننا ذاهبان إلى مقهى قريب لتناول الإفطار؟ ولكنني أدركت حين عبرت من ذلك الباب الخلفي أننا صرنا في مكتب استقبال صغير يخفي خلف جدرانه ساحة واسعة، تراصت فيها مجالس أرضية متعددة من طاولات خشبية ووسائل متناثرة. هو مطعم ذو طابع شبيه بالطراز (البدوي) إذن!

لم تمضِ ثوانٍ حتى أيقنتُ أن هذا المطعم هو ملجأ حقيقي للأجانب من أمثالي، وأدركتُ لمَ احتلَّ عددٌ كبيرٌ من الأجانب الطاولات المجاورة، فقائمة الطعام تحتوي أصنافاً يندر وجودها في بلاد الهند، هناك بيض أوملت بالمشروم، وجبن، وعسل، وبان كيك! بل إن هناك نيوتياً يا سادة!! وهو أمر لو تعلمون عظيم! تمنيتُ لو طلبت كلَّ أصناف الطعام لأعوض حرمانني من الأكل (الطبيعي) -بالنسبة لي- في الأيام السابقة. لم أشعر في حياتي بكل هذا القدر من الحبور، بل والامتنان، للعثور على شطيرة بائسة من الجبن مثلما شعرت في ذلك الصباح. أمرٌ عجيب ومثير، ولعله حزين كذلك، كيف يسمح الإنسان لأمر بسيط مثل غياب نوعية معينة من الأطعمة عن نظامه الغذائي أن تتحكم بحياته ومشاعره بهذا الشكل؟! ولكنني كنت في غاية الامتنان كذلك لـ(جابوش) على اهتمامها بالعثور على طعام مناسب لي ولثقافتني الخالية من الشطة!

بعد الإفطار الشهي، عُدنا إلى المنزل مرة أخرى، فودعتُ الفتاتين واصطحبت (الشاه كابور)، هذه المرة منفردة، في جولة سياحية بالمدينة، كنت قد رسمت خطتها في الليلة السابقة. كانت المحطة الأولى في الخطة هي قصر (چاجانموهان) jaganmohan بوسط المدينة، أحد قصور (مايسور) التاريخية السبعة الشهيرة، وهو القصر الذي انتقلت إليه العائلة الملكية حين احترق قصر (مايسور) الملكي الذي قمثُ بزيارته في الليلة الماضية. كان من السهل التعرف إلى القصر الذي ظهر فجأة أمامي وراء أحد المنعطفات في الطريق. تقدمت من بوابته ببطء، مُترددة بشأن نظام صف الموتوسيكل بالمكان، إلا أنني فوجئت برجل مُسنٍّ في زي أزرق يشير إليَّ

بالدخول ويرحّب بي بابتسامة عريضة. مررتُ من البوابة الحديدية لأجد نفسي أقف أمام القصر مباشرة، داخل حديقته الأمامية ذاتها!

زادت ضربات قلبي مع جِسي الأمني المصري المعتاد، الذي نما لَدَيَّ تناسبًا مع عدد المرات اللانهائية التي طُردت فيها من الجراجات العامة والخاصة، متاحف، مراكز تجارية، مصالح حكومية، والمرات التي منعت فيها من دخول أماكن بعينها، أنفاق، كباري، ساحات عامة، بدا أنها قد حُرِّمَت على راكبي الدراجات النارية على وجه الخصوص، وذلك لأسباب لا يعلمها إلا الله، ثم قادة القطاعات الأمنية المصرية فقط دون سواهم. أحيانًا يخيل إليّ أن هناك تصنيفًا أمنيًا خاصًا لراكبي الموتوسيكلات في مصر يضعهم في الدرجة التالية للإرهابيين مباشرة! أما في الهند، فالأبواب مُشرّعة على مصراعيها لهم في كل مكان ذهبت إليه حتى الآن، حتى إنهم لم يكتفوا بالسماح لي بالدخول إلى حديقة قصر ملكي فقط، بل تطوعت الموظفة المختصة بقطع التذاكر بالقيام من مكتبها لتلتقط صورة لي مع (الشاه كابور) على خلفية القصر الشاهق البياض وهي تبتسم في سعادة مطلقة!

قمتُ بصف (الشاه كابور) بشكل عشوائي في حديقة جانبية للقصر، ثم توجهت إلى بوابة الدخول. كان القصر الملكي الصغير قد تحوّل إلى متحف تاريخي شيق، يضم لوحات متعددة تمثل لمحات من تاريخ مملكة (مايسور) وأهم الأحداث التي مرّت بها، وأشهر ملوكها وحكامها عبر الزمان. من العسير أن تتصور أن هذه المدينة الصغيرة الناعمة، كانت ذات يوم عاصمة مملكة قوية تحمل نفس الاسم. أينما تسير في هذا القصر أو أي من القصور السبعة الشهيرة، بل في أي مكان بالمدينة، وجدت اسم (وادييار) Wadiyar مهيمًا كالعلامة المائية فوق كل الموجودات؛ فهي الأسرة التي حكمت تلك المملكة لما يقارب خمسة قرون. وهي الأسرة التي تطاردها لعنة عمرها أكثر من أربعمئة عام!

تحكي الأسطورة الشعبية المايسورية أنه في عام 1612، تُوفِّي ملك إمارة قريبة من (مايسور) تُعرف باسم (تالاكاد)، إثر مرض عُضال. وكانت أرملة الملكة (الأميلاّمَا) تمتلك كمية كبيرة من المجوهرات الثمينة. فلما مات عنها زوجها، لم يعد مسموحًا لها طبقًا للتعاليم الهندوسية بالتزين بالحلي والمجوهرات، فتبرعت بها لأحد المعابد بالمدينة. حين سمع (راچا واديّار)، حاكم مملكة (مايسور)، بأمر المجوهرات، أرسل مبعوثيه في طلب الحصول على الجواهر من الملكة (الأميلاّمَا)، فأرسلت إليه قطعة واحدة من المجوهرات، وهي حلقة أنف ضخمة مُرَصَّعة باللؤلؤ، وذلك دونًا عن باقي المجوهرات، مما أثار غضب الملك (واديّار)، فأرسل جيشه إلى (تالاكاد) ليسأل الملكة مرة أخرى تسليم المجوهرات. ولكنها رفضت، فأمر الملك بالاستيلاء عليهم بالقوة. وعندما سمعت (الأميلاّمَا)، حملت في جعبتها كل المجوهرات وهربت من الجيش المايسوري إلى جرف عالٍ فوق نهر (كاثيري)، ثم وقفت تنظر من فوقه إلى دوامة عاتية، وألقت بلعنتها التي ظلت تُخيّم على أسرة (واديّار) منذ تلك اللحظة وحتى يومنا هذا، وهي ألا ينجب ملوك (ميسور) الأطفال أبدًا، ثم قفزت إلى الماء لتلقي حتفها هي ومجوهراتها! المثير هنا أنه حتى اليوم، ولمدة أربعمئة عام لم ينجب ملوك (واديّار) بالفعل أي ورثة للعرش، بل قاموا بتبني أبناء الأخوة والأعمام لتوريثهم الحُكم من بعدهم.

يكتنّز متحف (چاجانموهان) بعشرات من اللوحات الزيتية والمنحوتات والمقتنيات التي تحمل أسماء أسرة (واديّار) عبر القرون، إلى جانب بعض اللوحات التي تمثّل مشاهد من الحروب التي خاضها (تیبو سلطان)، الحاكم المغولي المسلم الذي حكم البلاد لفترة قصيرة في أثناء القرن الثامن عشر، ضد الإنجليز. انتهت جولتي في القصر خلال ساعة أو يزيد، انطلقت بعدها في شوارع (مايسور) مرة أخرى متبعة سهم ال GPS حتى وصلت إلى محطتي التالية وهي (متحف المنحوتات الرملية).

متحف صغير يقع عند سفح جبل (شاموندي)، وهو حديث العهد نسبيًا، فقد تأسس عام 2014 بواسطة نحّاتة من أبناء المدينة تُدعى (جوري)، استخدمت حينها حمولة

115 سيارة نقل من الرمال لتقوم بنحت ما يقرب من 150 منحوتة رملية، يتعلق معظمها بالإرث الثقافي للمدينة. كان التجوّل في المتحف أشبه بالسير على شاطئ رملي احتلت ضفته أعمال فنية شديدة الاحترافية. هناك ملامح من كل الثقافات هنا، ما بين منحوتات لأشهر الآلهة الهندوسية، لأخرى تُعبّر عن الآلهة الإغريقية، إلى منحوتة تمثل الكعبة والمصحف الشريف، وأخرى تُمثل أبو الهول والأهرامات، وحتى شخصيات ديزني الشهيرة وجدت لها مكانًا بين المعروضات.

من (متحف الرمال) عدت مرة أخرى إلى وسط المدينة، بالقرب من منطقة القصور الملكية، وقد حددت وجهتي على الـ GPS لتكون قصر يحمل اسم (چايالاكشمي) Jayalakshmi mansion. تتبع إرشادات التطبيق حتى وصلت إلى منطقة تعج بالساحات الخضراء والشباب صغير السن من الجنسين على حد سواء. تبين لي أنني دلفت بغير دراية مني إلى حرم جامعة (مايسور)! نعم، كنتُ أسير في أحد الشوارع الرئيسية بالمدينة وإذ بي أنتهي في حرم الجامعة التي لا تحدها أسوار ولا بوابات أمنية. إنها مثل (أكسفورد) إذن، الجامعة الإنجليزية العريقة التي اندمجت مع المدينة التي تحتويها فصارت بناياتها موزّعة في أرجاء المدينة لتشكل ما يُشبه مدينة جامعية متكاملة يعيش بها الطلبة، ويفد إليها السياح من كل أنحاء العالم.

تجوّلت في أرجاء الحرم الجامعي، مستمتعة بالخضرة والطبيعة من حولي، إلى أن وصلت إلى مبنى أثري، أصفر اللون، مغلق الأبواب، تشير العلامة على تطبيق الـ GPS إلى أنه هو القصر المنشود. قمتُ بدورة كاملة حول القصر فلم أجد بوابة واحدة مفتوحة، بل كان الطلبة يستظلون بمداخله من حرارة الشمس، ويتحلّقون في دوائر مفترشين الأرض مع كتبهم وأدواتهم بهدف الاستذكار. سألتُ أحدهم عن بوابة الدخول إلى القصر فأخبرني باقتضاب أنه مغلق، وعجز عن تبرير سبب الإغلاق. هكذا لم أجد أمامي سوى التقاط بعض الصور التذكارية لي مع المكان ثم الاستعداد للرحيل.

أصابني القليل من الإحباط لعدم تمكّني من الدخول إلى القصر الأثري، فأخرجت هاتفي لأتحقق من محطتي التالية. ما زال النهار في منتصفه، وقد زرت بالفعل أغلب المزارات التي حددتها لليوم. قررت أن أتوجه إلى مكان كنت أضعه كمزار اختياري حال سمح لي الوقت، وهو يبعد مسافة 17 كم تقريباً من المدينة الجامعية. ثبتت نقطة وجهتي على الـ GPS أمامي على مقود (الشاه كابور)، وانطلقت مرة أخرى وراء السهم الأزرق خروجاً من شوارع المدينة المزدهمة نسبياً في ذلك الوقت من اليوم، إلى طريق سريع، يتجه شمالاً ليربط مدينة (مايسور) بمدينة تدعى (مانديا) Mandya، وقد حمل هذا الطريق اسم وجهتي ذاتها: (طريق سد كريشنا ساجارا) أو للاختصار (KRS Dam).

في الحقيقة لم يكن مُتسع الوقت لديّ هو ما دفعني للقيادة كل تلك المسافة من أجل مشاهدة السد، بل كان الدافع الخفي هو رواية غير موثقة تماماً تربط هذا السد بالذات بسد (أسوان) المصري، أو ما يعرف اليوم بـ(خزان أسوان)، وهو السد الذي أسسه الخديوي (عباس حلمي الثاني) على نهر النيل في أسوان في الفترة من 1899 إلى 1906، والذي سبق وجوده السد العالي المعروف اليوم بنصف قرن من الزمان! الرواية تزعم أنّ (فيسقسفارايا)، أو السيد MV كما يطلق عليه الهنود، وهو المهندس الذي بنى السد، قد زار سد (أسوان) في مصر، وأطلع على عمل المهندسين هناك، مما أوحى إليه بفكرة تصميم سد KRS الذي صرح المهراجا (كريشنا راجا وأديار الرابع) ببنائه عام 1911 ليُنجز في عقدين كاملين من الزمن، حتى افتُتح عام 1931، ليصبح أكبر سد بُني على أرض الهند. من المفارقات هنا أن نفس ما حدث مع (التهجير النوبي) المصاحب لبناء السد في مصر، سواء السد القديم (الخزان)، أو السد الجديد، السد العالي، قد حدث في الهند إبان بناء سد KRS حيث هُجّر نحو 10 إلى 15 ألف فرد من قبل الحكومة، ومُنحوا بعض الأراضي الزراعية في مناطق أخرى مجاورة. مع هذا الترابط القدري بين قصتي السدّين المصري والهندي، بدا لي من الضروري أن أقوم بزيارته.

هكذا، وبعد نصف ساعة من الاستمتاع بقيادة (الشاه كابور) عبر طريق مستقيم تحدد الغابات المُشجِرة أغلب معالمه، تشير لافتة جانبية صغيرة أخيرًا إلى بداية معبر السد. مرقت من فوقه ثم توقفت على جانب الطريق لأتأمل المشهد. كانت شلالات المياه القصيرة المتدفقة من بوابات السد تفيض إلى حوض اصطناعي لتكوّن بحيرة صغيرة مستطيلة الشكل أمام السد، بينما ينساب من ورائه نهر (كاثيري) العظيم.

يمتد نهر (كاثيري) لمسافة ثمانمئة كيلومتر في أعماق الهند الجنوبية وصولاً إلى خليج (بنغال)، ويقده أهله منذ آلاف السنوات كونه واحدًا من الأنهار السبعة المقدسة بالهند. تذكر أن الهند تتمتع بأكثر من أربعمئة نهر دفعة واحد، أكبرهم ما يصب في خليج (بنغال) شرقًا، وما يصب في بحر العرب غربًا، إلى جانب العديد من الأنهار الداخلية. لقد شكلت تلك الأنهار شبكة كاملة من العروق والأوردة المائية تمد أنحاء الهند وأهلها بالحياة ذاتها عبر الأزمنة؛ لذلك فقد رفعها الهنود إلى مرتبة التقديس، فصارت الأنهار السبعة الكبرى بالبلاد آلهة، تعرف باسم (سابتا سيندو) Sapta Sindhu، أو الآلهة السبعة المقدسة، لعل أشهرها على الإطلاق هو نهر (الغانج) الذي يحج إليه آلاف مؤلفة من الهندوس سنويًا للتطهر من خطاياهم طبقًا للديانة الهندوسية. فقد صورت الديانة الهندوسية في كتبها المقدسة تلك الأنهار المتدفقة نتاجًا لانفلات المياه السماوية من يد (قريترا)، وهو الشيطان المتمثل في صورة تئين أسطوري ضخم قام بحبس المياه عن العالم إلى أن قتله إله آخر يُدعى (إندرا)، محررًا تلك المياه لتصب أخيرًا على الأرض فتحميها من الجفاف والتصحر.

على طرفي السد توجد حديقتان جميلتان، الكبرى منهما تقع حد الطرف الجنوبي وتدعى (حديقة برينداغان) Brindavan Garden والصغرى في الحد الشمالي تدعى (حديقة موتو للزهور) Muthu Flower Garden. كلتا الحديقتان توفران طلة مميزة على السد والبحيرة، وهي غنيّة بالزهور والنباتات والنوافير والطيور،

وكذلك العريشات المظللة للممرات والشرفات الخشبية، كما أن دخولها مجاني تمامًا؛ لذلك فهي تُعدُّ متنزهاً طبيعيًا محببًا للزوار والسكان على حدٍ سواء.

كانت الساعة تقارب الرابعة مساءً حين عدت مرة أخرى إلى مدينة (مايسور). تذكرت في الطريق أن (راچيف) -صديقنا مالك (الشاه كابور) الأصلي- قد نبّه على أن أقوم بالكشف على زيت الموتور كل 300 كم تقريبًا، فإن كان ناقصًا عليّ تزويده. كانت عملية تغيير الزيت من الأمور البسيطة في صيانة الموتوسيكلات؛ لذلك كنتُ أقوم بها بنفسي على السكوتر الخاص بي في مصر، ولكن لا حاجة لي بتغيير الزيت هنا، فهو سليم لم ينقص أو يتغير لونه كما أثبت لي كشف سريع قمْتُ به على جانب الطريق. ولكن خطر لي أن عليّ أن أستغل وجودي في مدينة كبيرة مثل (مايسور) للتزود بعبوة احتياطية من الزيت على سبيل الاحتياط، فمن يعلم ما تحمله لي الأيام المقبلة من محطات وصعوبات؟ ولكن من أين لي هنا بالزيت اللازم؟ توقفت في أثناء رحلة العودة إلى (مايسور) لدى ثلاث محطات وقود مختلفة طلبًا للزيت. كانت الإجابة تأتيني دائمًا مصحوبة بهزة الرأس الهندية الشهيرة والابتسامة غير المبرّرة: «سوري مدام، نو أويل!»! قررت أن أبحث عن أقرب توكيل (للرويال إنفيلد) كما نصحنى (راچيف) من قبل، فبالتأكيد سأجد الزيت هناك. من حُسْن الحظ أن وجدته ليس فقط على مساري، بل كان قريبًا من المنزل كذلك.

أُصف (الشاه كابور) أمام مبنى صغير من طابقين، يحمل علامة (رويال إنفيلد) الشهيرة، وقد وقف أمامه أحد العمال في رداء أزرق (أوفارول) منهمكًا في فحص موتوسيكل قديم الطراز. تقدمت منه بتحيةة مقتضبة ثم سألته: «جئتُ لأشتري زيت موتور»، فتمتم ببعض الكلمات الهندية المبهمة، مشيرًا إلى سلم جانبي. تبعته إشارته لأجد السلم يفضي إلى طابقٍ أَرْضِي واسع، تراصت فيه الموتوسيكلات من كل موديل ولون، كنت في قلب ورشة الصيانة ذاتها! رقص قلبي طربًا لمرأى كل هذا الكم من (الرويال إنفيلد) تحت سقف واحد، يصطفون كفيلق خيالة تمامًا كما تصورت مشهدهم في معسكرات الجيش الإنجليزي أيام الحرب العالمية.

تقدم مِنِّي رجل خمسيني وقُور مرحبًا، لينتشلني من التشتت وسط نظرات الهيام بالموتوسيكلات من حولي. بادرتَه بالسلام وسألته عن الزيت، فطلب مني بلطف أن أتبعه. تفاءلت خيرًا أنني قد وجدت ضالتي، إلا أن آمالي تحطمت حين توجه إلي شاب صغير ليتبادلًا حديثًا مقتضبًا قبل أن يلتفت إليّ الأول متممًا شعار المرحلة: «سوري مدام، نو أويل!» هنا انفجرت فيه: «نو أويل إزاي يا ناس؟ أنتم مركز الصيانة نفسه! أو مال الموتوسيكلات دي كلها بتحطولها إيه؟ عصير برسيم؟!». لعلي قلت شيئًا من هذا القبيل، لكنه عاد فاعتذر مكرّرًا أن «سوري مدام، نو أويل!» أشحْتُ بوجهي عنه ومشيتُ بضع خطوات مبتعدة لأقوم بمهاتفة (راچيف). حمدتُ الله أنه ردَّ سريعًا، وشرحت له الموقف باختصار، فطلب مني محادثة الرجل الخمسيني إيّاه. بعد محاورات ومناقشات لم أفهم منها شيئًا بطبيعة الحال، أعاد إلي الرجل الهاتف ثم ألقى بأمر ما إلى أحد العمال ليعود هذا الأخير بعد قليل بعبوة من الزيت! ماذا قال له (راچيف)؟ ربما لن أعرف يومًا، ما أعرفه يقينًا أن القليل من اللغة الهندية وكذلك بعض المعارف من الهنود قد يكون سبيلك الوحيد للنجاة في هذه البلاد!

عدتُ إلى المنزل لأتناول قِسْطًا من الراحة قبل العشاء. نمْتُ نومًا عميقًا لمدة ساعتين، صحوْتُ بعدها وقد استعدتُ الكثير من نشاطي. ارتديت ملابسني مرة أخرى، ونزلتُ إلى الطابق السفلي من الفيلا لأجد (جابوش) تستعد لخروجنا إلى العشاء. سألتها أين سنتناول الطعام هذه المرة؟ مكررة شكري وامتتاني لاهتمامها بذوقي المناهض للأكل الحَرَّاق -لأكون صادقة كانت تَذِكِرَة مُبَطَّنة بتفضيلاتي أكثر منها شكر واجب- فأشارت بيدها على امتداد ذراعها إلى اللاشيء، معلنة أنه (مطعم قريب). هنا أدركتُ أن عليّ ارتداء الحذاء الكاوتش الخفيف المناسب للسير مسافات طويلة، لكنها صدقت هذه المرة، فبعد عشر دقائق، وعدد أقل من المرات التي كِدْتُ أدهس فيها في أثناء عبور الطريق، وصلنا أخيرًا إلى المطعم المنشود. بدا لي أن السير على الأقدام في الهند هو أكثر خطورة من قيادة الموتوسيكل، وقد أبدت ملاحظاتي عن جنون التقاطعات هنا لـ(جابوش)، فأمنت على كلامي، ثم أضافت:

«ولكنها مسألة تتعلق بالإيمان؛ فنحن نأخذ نفسًا عميقًا، وننظر أمامنا، ثم نعبّر الطريق معتمدين فقط على قوة ثقتنا بالآلهة، وبطريقة ما تنجح هذه الطريقة كل مرة! صدّقيني، ألسنت حية أرزق أمامك الآن؟». تقولها ضاحكة بينما أنظر إليها في هلع من هول الفكرة!

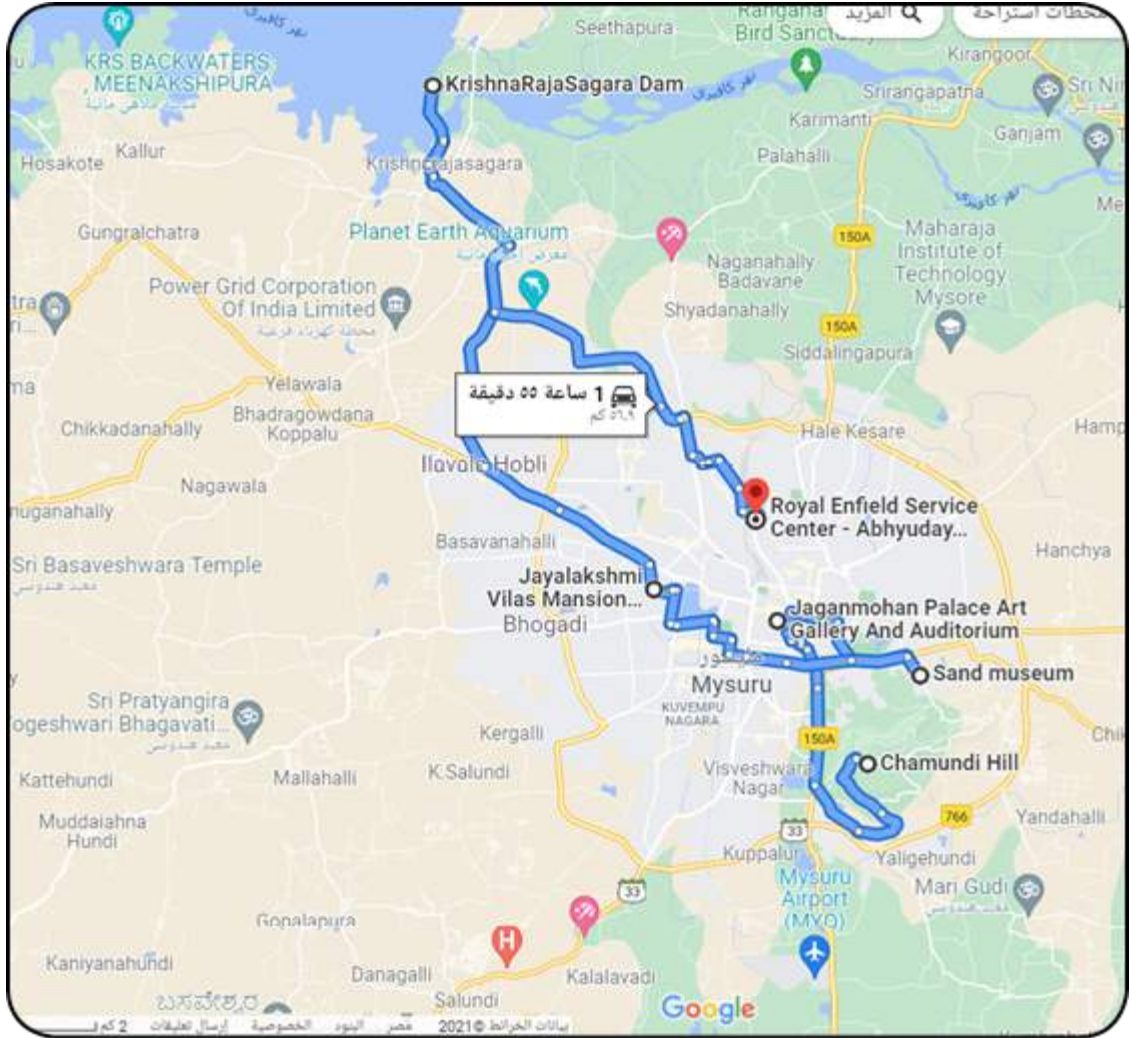
كان العشاء نباتيًا صرفًا، متماشيًا مع نظام (جابوش) الغذائي. اختارت هي طبقًا من البيوتزا مزينة بقطع من الباذنجان المقلي، بينما طلبت أنا طبقًا يدعى (كيتشري)، يتكون بشكل أساسي من العدس والأرز، مع الكثير من البهارات والتوابل بالطبع، والتي جعلت طعمه أقرب إلى البصارة المصرية! الحقيقة أن هذا الطبق بالذات يعد بالفعل هو الجد الأول لأحد الأطباق المصرية المشهورة، ألا وهو (الكشري) - لاحظ هنا تشابه الاسم الواضح - فالأسطورة تقول إن الأكلة البسيطة المكونة من العدس والأرز قد انتقلت مع الجنود الهنود الوافدين إلى مصر كدعم للقوات البريطانية إبان الحرب العالمية الأولى، ومنهم التقطها الشعب المصري ليضيف عليها الصلصة والدقة والبصل، بينما أسهمت الجالية الإيطالية في مصر بإضافة لمستها الخاصة من المعكرونة، فكانت النتيجة هو طبق (الكشري) المصري في صورته الحالية؛ خليط لذيذ متعدد الثقافات!

عُدنا إلى المنزل وقد تجاوزت الساعة العاشرة مساءً. كانت (جابوش) قد أخبرتني مسبقًا أن عندها أرجيلة، أو (هوكاه) كما يطلق عليها الهنود، فاستأذنتها في استخدامها هذا المساء. هكذا ما إن عُدنا إلى المنزل حتى أحضرتها وأخذت في البحث عن تبغ وفحم بينما أقوم أنا بغسلها وتحضيرها. كان التبغ المتاح من نبات غريب عليّ، وإن كان من الطبيعي أن أخفض سقف طموحاتي عن مستوى المعسل الفاخر بنكهات التفاح أو العنب أو العلكة بالقرفة، فنحن في الهند لا في مقهى (البورصة)! أبدت سعادتي وانبهاري بوجود الشيشة في منزل هندي، فأبدت (جابوش) دهشة مماثلة إزاء اندهاشي وبادرتني قائلة: «ولم الاستغراب؟ إن (الهوكاه) اختراع هندي في الأصل! إنها موجودة بالبلاد منذ أيام الإمبراطورية

المغولية!« كنتُ جاهلة تمامًا بهذه الحقيقة، فطالما ظننتُ أن الأرجيلة هي اختراع عثماني، انتقل إلى الشرق، ومن ثم إلى المصريين عبر بلاد الشام! هزت (جابوش) رأسها نفيًا لكلامي ثم استطردت: «يقال: إن أول من قدّم فكرة الأرجيلة تلك هو الطبيب الخاص بالإمبراطور المغولي (جلال الدين أكبر) في القرن السادس عشر، وكان رجلًا فارسيًا يدعى (حكيم أبو الفتح غيلاني)، وكان الدافع وراء ذلك هو رغبته في تخفيف الأثر السيئ لتدخين التبغ الذي كان رجال البلاط والإمبراطور نفسه قد أخذوا في تناوله بشراهة، ففكر الحكيم أن يمرر الدخان عبر المياه لتطهيره أو غسله من السموم قبل دخول الرئة». علقّت في تهكم: «أظن أنّ منظمة الصحة العالمية ستختلف معه جذريًا اليوم على جدوى هذه التقنية!».

انتهيت من تحضير (الهوكاه) أو الأرجيلة، فخرجنا إلى الحديقة الخلفية لنستمتع بنسائم الليل المنعشة. كانت (جابوش) قد أحضرت معها سماعة مُكبر صوت صغير، تبعث منه أنغام هندية حديثة. سألتني عن الأغاني المحببة للمصريين، فقلت لها: إن الشيشة لها مزاج خاص، يتطلب في معظم الأحيان الاستماع إلى (أم كلثوم)، لا سيما في الأمسيات الهادئة كهذه. فأوقفت فورًا الموسيقى المنبعثة من جهازها، وطلبت مني تشغيل أغنية لـ (أم كلثوم). ما إن بدأت نغمات المقدمة الموسيقية المحببة لأغنية (ألف ليلة) في الانسياب، حتى بدتُ على (جابوش) إمارات الانسجام، وعلتُ وجهها سعادة طفولية وكأنّ النغمات تلامس طبلة أذنيها للمرة الأولى. من كان ليتصور أن ينتهي بي الأمر في هذا اليوم المليء بالحركة والمغامرات بالجلوس في الحديقة الخلفية لمنزل فتاة هندية بجنوب الهند، في جو معبق برائحة الطباق المدغدغة للحواس، بينما السيدة (أم كلثوم) تشدو في صوتها الشامخ المعهود «هذه ليلتي وحلم حياتي، بين ما مضى من الزمان وأت!» صدقتِ والله!

# خريطة اليوم



# ألبوم الصور



معبد (شاموندي)



قصر (چاجانموهان)



أمام تمثال (ماهيشا سورا) - جبل شاموندي



فوق جبل (شاموندي)



عند سد KRS



قصر (چایالاکشمی)

# سفاري

مايسور - ديسمبر 2019

اليوم الثالث لي على أرض (مايسور) العريقة، لكنه للأسف يومي الأخير كذلك. استيقظت في السابعة لأللم أشيائي القليلة ثم توجهت إلى الدور الأرضي حيث دعنتني (جابوش) إلى قدح من الشاي قبل التحرك على الطريق. في سفرياتى الكثيرة إلى مختلف البلاد وجدت أن ثقافة الشاي شحيحة الوجود بين البلاد والعباد بشكل ملحوظ، على الأقل مقارنة بالقهوة، فالكل يستغرب حين أُصرح بعدم تناولي القهوة على الإطلاق، واكتفائي بكوب من الشاي الأحمر فقط كل صباح؛ لذلك كانت جلسة المطبخ الصباحية تلك حول قدحي الشاي الساخن مبعث ألفة وحميمية محببة إلى نفسي.

أسأل (جابوش) عن نوع الشاي الذي تفضله، فقالت: «حسنًا، بما أن الهند تعد ثاني أكبر دولة مُصدرة للشاي في العالم بعد الصين، فإن هذا يجعل الاختيار عسيرًا بحق، ولكني أفضل شاي (آسام) الشهير بأوراقه الطويلة الملفوفة ورائحته القوية وهو ما نشربه الآن. أخبرتها بأننا نجد في مصر شايًا إنجليزيًا يدعى (شاي أحمد) أظن أنه هندي الأصل، ومنه نوع (آسام) هذا ونوع آخر يدعى (دارجيلنج). فأومأت برأسها مؤكدة أنهما مسميان على اسم أشهر مدينتين هندية في زراعة وصناعة الشاي.

نيودلهي - نوفمبر 2007

لي في الهند تجربة غير سارة مع الفنادق، لا سيما في العاصمة (دهلي). فقد تزامن توقيت رحلتي الأولى مع (موسم تزاوج الهنود)! ففي بلد تشهد أكثر من عشرة ملايين حفل زفاف كل عام، يصير الأمر هستيريًا بحق حين يتزامن نصفهم على الأقل في الفترة بين أكتوبر وديسمبر، بينما يتزامن النصف الآخر بين يناير ومارس! أمّا لم يحصرون أنفسهم بين هذه الشهور بالذات؟ فلأنهم يؤمنون بوجود أيام وتواريخ ميمونة أو مباركة دون غيرها بحسب

التقويم الهندوسي؛ لذلك فإقامة مراسم الزواج في تلك الأيام يضمن زيجة ناجحة مباركة للعروسين. كانت النتيجة الحتمية بالطبع أنني وصلت إلى الهند في وقت امتلأت فيه الفنادق عن بكثرة أبيها وحصلتُ بمعجزة على غرفة في أحد الفنادق الجديدة بوسط المدينة.

في اليوم الأول رفعت سماعة التليفون الداخلي، وطلبت رقم خدمة الغرف، وكنت أعرف أن خادم الغرف شاب صغير دائم الابتسام، قليل الكلام، أو كنت أحسبه كذلك إلى أن أدركت أنه لا يتحدث الإنجليزية من الأساس. هكذا حين جاءني صوته على الطرف الآخر من الهاتف حاولت أن أساعده، فقلت الكلمة الوحيد التي أعرف تمامًا أنها مفهومة لكل منا وهي: «شاي». فرد بالكلمة الوحيدة التي تعلمها: «بيس مدام». هكذا وجدته بعدها بربع ساعة يطرق باب غرفتي ليناولني صينية صغيرة عليها كوب من الشاي بالحليب! هل اختلط الأمر على الفتى؟ حاولت توضيح طلبي مرة أخرى ولكن محاولتي باءت بالفشل الذريع إزاء إنجليزيتته المتواضعة. لا بأس، فالشاي بالحليب طعمه حلو المذاق على كل حال. في اليوم الثاني، أفيق من النوم بصعوبة، فأمد يدي إلى الهاتف والنعاس يغلبني، لأكرر طلب الأمس «شاي!». فيأتي الفتى من جديد حاملاً كوب الشاي؛ شاي بحليب مرة أخرى! هذه المرة أشربه متضررة، ثم أتوجه إلى مكتب الاستقبال لدى خروجي في ذلك الصباح لأتفاهم مع صاحب الفندق، شارحةً له أنني كلما طلبت شيئاً جاء الفتى بالشاي مخلوطاً بالحليب. فيرد صاحب الفندق: «ولكن الشاي في الهند يحتوي على الحليب بالطبع! عليك أن توضح لي للفتى أنك تريد شايًا أسود إذا أردت الشاي دون الحليب!». هكذا تعلمت بالطريقة الصعبة أن كلمة (شاي) لا تتساوى في المعنى بين مصر والهند كما ظننت!

الصين - العام 1984

يسير (روبرت فورتشن) بجوار خادمه الصيني (وانغ) في حذر مرتدياً زياً صينياً تقليدياً، وقد حلق شعر رأسه تمامًا في محاولة مضنية للتشبه بالتجار الصينيين في ذلك الوقت من

القرن التاسع عشر. قلبه يدق تحفراً، وذلك لما يشتمل عليه وجوده في هذه المنطقة الخاصة من الصين التي حُرِم دخولها على الأجانب من خطورة على حياته، فالصينيون قوم لا يمزحون، وإذا اكتشفت الإمبراطورية أمره سيكون مصيره الإعدام فوراً. يمشي خمس خطوات للأمام ليعلن وصوله إلى بوابات مصنع الشاي الأخضر. بدأ (وانغ) في الابتهاال بشكل محموم. هل سيسمح مدير المصنع لسيد الغريب بزيارة المكان؟ يقدم (فورتشن) نفسه إلى الرجل بصفته تاجرًا مخضرمًا، أتى من مقاطعة بعيدة ليرى بنفسه كيف يُصنع الشاي الرائع هنا!

أوماً مدير المصنع برأسه في أدب جم، وقادهم إلى مبنى كبير، له جدران من الجص الرمادي، وخلفه توجد أفنية واسعة، ومساحات عمل هائلة، ومخازن كبيرة. كان الجو دافئًا وجافًا، مليئًا بالعمال الذين يصنعون آخر محصول الموسم من الشاي، وكانت الرائحة المميزة للشاي الأخضر مُعلقة في الهواء. كان هذا المصنع مدعاة فخر للصينيين، حيث يُحصَر الشاي بطرق وأساليب لم تتبدل منذ ألفي عام، ويعدونه للتصدير من خلال موزعي الشاي الكبار في كانتون وتجارة الشاي المزدهرة في شنغهاي، ومنها إلى بقية أنحاء العالم. كانت هذه هي اللحظة الفارقة التي غيرت قواعد السوق العالمي للشاي إلى الأبد!

في تلك الفترة، كانت الصين تحتكر زراعة وصناعة الشاي في العالم بصورة مطلقة؛ لذلك كانت أساليب زراعته وصناعته تُعد سرًا قومياً يُعاقب من يحاول كشفه بالإعدام الفوري. ولما كانت بريطانيا الاستعمارية في ذلك الوقت تهيمن بالفعل على نصف العالم المعمور، فقد أحنقها حقًا سيطرة الصينيين على صناعة في ضخامة وحجم الشاي. لذلك تواصلوا مع هذا الرجل الإسكتلندي، (روبرت فورتشن)، وكان إلى جانب دراسته في علم النبات قد قضى ثلاثة أعوام يدرس النبات في الصين، فخير دروبها وأهلها خبرة واسعة، ليقوم بأول عملية تجسُّس اقتصادي في التاريخ!

لم ينجح (فورتشن) في هذا العام من دخول ذلك المصنع وسرقة أسرار زراعة وصناعة الشاي فحسب، بل قام كذلك على مدار إقامته في الصين بجمع أكثر من ثلاثة عشر ألف

شتلة، وقدرهم تقريبًا من البذور، هُرِّبَتْ كلها إلى الأراضي الهندية، والتي كانت وقتها تحت الحكم الإنجليزي. هكذا تمكن الإنجليز من إقامة مزارع شاسعة على أرض الهند، وتحديدًا في مدينتي (آسام) و(دارجيلينج)، وصارت من بعدها الهند من أكبر صانعي ومُصدّري الشاي في العالم أجمع!

مايسور - ديسمبر 2019

في تمام التاسعة كنت قد أتممت عملية ربط الحقائق فوق الموتوسيكل، وودعتُ (جابوش) شاكرة إيّاها على حُسن الاستضافة، ثم شققت طريقي بين شوارع (مايسور) للمرة الأخيرة وقد ضجت بمجموعات من طلبة المدارس، والعمال، والموظفين، في طريقهم إلى أشغالهم في تلك الساعة المبكرة من اليوم. ابتعد رويدًا رويدًا عن المناطق المأهولة بالسكان إلى أن استقرّ على طريق سريع تحده الأشجار والحقول الخضراء الممتدة على الجانبين. كان طريقًا حسن التخطيط، يتسع إلى أربع حارات، لكل اتجاه حُصِّتْ حاراتان، دون رصيف أسمنتي يفصل بينهما. استرعى انتباهي ساعتها أن هذا الرصيف المعتاد قد اختفى من كل الشوارع التي مررت بها منذ مغادرتي لـ(بانجلور). قد يدور بأذهانكم أن أهمية ذلك الحد الفاصل بين اتجاهي الطريق المتقابلين ضرورة لتفادي خطورة أن تنحرف إحدى السيارات فتجور على حارة بالاتجاه المعاكس مُتسبِّبة في كارثة حقيقية، أو أن يقرر أحدهم أن يرتجل ملفًا للعودة ضاربًا بقواعد السلامة عرض الطريق، ولكن أحب أن أطمئنكم يا سادة أن مثل تلك التصرفات الرعناء لا تحدث في هذه البلاد. ما يحدث في الحقيقة هو أمر مماثل لما صار معي حين خفضت عيني لجزء من الثانية لألقي نظرة على عداد السرعة بالموتوسيكل، وقد أشار إلى سرعة 80 كم في الساعة، ثم رفعتها بسرعة، فقط لأرى في اللحظة الأخيرة الفارقة ثورًا ضخماً، أشهب اللون، يعبر الطريق بكل أريحية أمامي مباشرة. بمعجزة ما تفاديته بمقدار سنتيمترات قليلة، حتى إنني أكاد أجزم أنّ قرنيه الطويلين قد أوشكا على الاحتكاك بخوذتي ذاتها في أثناء مروري من جواره بسرعتي الهائلة!

بانديبور - ديسمبر 2019

بعد ساعتين من القيادة على هذا الطريق الانتحاري، وفي تمام الحادية عشرة، رأيت لافتة ملونة حملت اسم (محمية بانديبور للنمور) تشير إلى طريق فرعي على يسار الطريق، انحرفت إليه ثم قدت لمسافة أخرى تقارب نصف كيلومتر إلى أن وصلت إلى بوابة المحمية. أمامها يقف رجلان في ثياب شبيهة بثياب الصيادين في أفلام (إنديانا جونز) الشهيرة؛ بناطيل خاكية، وقمصان مموهة، تتميز بجيوب واسعة تُغطّي منطقة الصدر على الجانبين، وتكلفت ملامحهما الغليظة وشواربهما السوداء الكثيفة باستكمال الانطباع السينمائي المهيّب. توقفت بمحاذاتهما ورفعْتُ حاجز الرياح عن خوذتي مُحيّية، فردًا السلام بإيماءة مقتضبة، وأشار إليّ بأن أعبّر من البوابة مع تحذير قصير بعدم التوقف لالتقاط الصور تحت أي ظرف من الظروف. سألت إن كان هناك تذاكر لرحلات السفاري الخاصة بالمحمية فأجابا أن عليّ الحصول عليها من مكتب استقبال الزوار، الذي يقع على بُعد ثلاثة عشر كيلومترًا قبل موقع المحمية! لم يقع المكتب على هذا البعد بحق كل آلهة الهندوس البالغ عددها ثلاثة وثلاثين على أقل الإحصاءات؟ أتوجه بسؤالٍ هذا إلى مغامري (إنديانا جونز) فتجيبني في بلاغة هزة رأسيهما في حركة (الوبلينج) الشهيرة، يصاحبها ابتسامة صامتة!

كان أمامي بضع ساعات قبل موعد السفاري، هكذا قررتُ التقدّم إلى وجهة المبيت التي رتبها مسبقًا لهذه الليلة، والتي يشير سهم الـ GPS إلى وجودها في نطاق المحمية ذاتها على كُُلِّ حال، ومن ثم العودة قُرب موعد رحلة السفاري للحاق بالأتوبيس الخاص بها فيما بعد.

ما إن عبرت من بوابة المحمية حتى بدا لي وكأنني انتقلت إلى عالم آخر، عالم تسيطر فيه الطبيعة على الموجودات، ويسوده الهدوء التام، فحتى الأصوات هنا تقتصر فقط على عناصر الطبيعية ذاتها؛ حفيف الأشجار، هسيس حشرات غير مرئية تسعى بين الحقول. لا يبدد هذا السكون الرهيب سوى صوت موتور (الشاه كابور)، وقد تعمدت تهدئة سرعته

لأنتبع في غير عجالة الطريق الأسفلتي الذي أخذ يتلوَّى كثعبان عملاق يخترق الغابة في ثقل ورتابة بدت متناسبة مع رهبة وجلال المكان.

انتشلتني من الانغماس في كل هذا الجمال لافتة ضخمة على جانب الطريق حملت الكلمات الآتية في تحذير مريب:

« لا تتوقف لأي سبب. منطقة أفيال. نحن غير مسئولين إذا هُوجمت عن طريق الأفيال! »

هنا أخذت آلاف الأسئلة الوجودية تتبادر إلى ذهني في تتابع مثل طلاقات مدفع رشاش؛ كم تبلغ سرعة الفيل؟ هل هو أسرع أم أبطأ من الموتوسيكل؟ هل صوت الموتوسيكل يعمل على اجتذاب الحيوانات المفترسة أم يدفعها للهروب؟ هل توجد هنا نمور حقًا؟ هل النمر يجري بسرعة تزيد عن 90 كم/س؟ زادت ضربات قلبي اضطرابًا وعقلي يسترجع في فزع مشهد الحيوانات الهائجة في فيلم (چومانجي) وهي تدهس كل ما في طريقها في لمح البصر. ضغطت على المقود بقوة بصورة غريزية لأزيد من سرعتي هروبًا من قطع وهمي هائج من الأفيال الهندية، ثم تذكرت أن صوت الموتور العالي قد يكون سببًا في هياجها من الأساس، هكذا أسقط في يدي فلم أدر ماذا أفعل، هل أزيد أم أخفض من سرعتي في تلك المنطقة الملعونة؟ قررت في حزم أن أنفض عن رأسي كل تلك الأفكار السوداء، وأن أستكمل طريقي في ثبات، وأن أحاول الاستمتاع مرة أخرى بمتعة القيادة وسط كل هذه الطبيعة الملهمة.

مضى بي الطريق من بعدها في سلام وهدوء نفسي لم أتمتع بهما منذ بداية الرحلة. من العسير أن يتصور البعض أن الكثيرين يعدّون قيادة الموتوسيكلات رياضة تأملية صميمة، ولكنها كذلك حقًا. فهي مبعث تلك الصحوّة الذهنية المصاحبة لكون حواسك من سمع وبصر ولمس كلها منتبهة في آن واحد، راحة يدك تتشبّث بمقود البنزين، بينما أصابعك متأهبة على المكابح الأمامية، قدمك اليمنى متأهبة على المكابح الخلفية بينما اليسرى تستقر في تراخ تحت ناقل السرعة استعدادًا للتغيير في أي وقت، عيناك مثبتة على نقطة

وهمية أمامك مباشرة، بينما تقوم بين الفينة والفينة بمسح سريع من اليمين إلى اليسار والعكس، استكشافاً لمحيط الطريق وتحسباً لأي مفاجآت. ومع كل هذا التحفّز والتأهب، إلا أن ذهنك يكون صافياً تماماً، لا تمر به أفكار من أي نوع، ونفسك راتقة هادئة البال، لا يعتربها أي مشاعر سوى السلام المطلق. لا ماضي ولا مستقبل. فقط اللحظة الحاضرة بكل حواسها وإحساسها. إنه التأمل بعينه!

كان الطريق يميل صعوداً بشكل ملحوظ، وأدركت فجأة أنني خرجت من نطاق المحمية التي تقع في وادٍ منبسط إلى الجبل المطل عليها. مضت ربع ساعة أخرى من الطريق المقفر إلا من سيارة أو اثنتين مرّتا بي بالاتجاه المعاكس، ودفعتني دفعاً للحركة في حيز شديد الضيق على يسار الطريق، ثم بدأت بضعة بيوت ريفية بسيطة البنيان في الظهور على مرمى البصر، تتماهى ألوانها بين البياض والصفار. قرية صغيرة تغفو على هامش تلك المحمية الطبيعية الساحرة، وقد سبغتها المحمية بسكونها الطبيعي، فبدت مهجورة لولا بعض ملامح الحياة البادية في تلك الثياب المعلقة من شرفاتها، وأزواج قليلة من النعال على عتباتها. قبل أن أتعبّج من الظهور المفاجئ لمظاهر الحياة البشرية هنا، أفسح الطريق مجال الرؤية عن قرى أخرى، أكثر حيوية وازدهاراً بالحركة والألوان على حدّ سواء. يلهو الأطفال أمام مساكنهم، وبين الدروب الترابية يتمشّى عجائز في مآزر بيضاء تقليدية في ثؤدة مُتكئين على عصى غليظة من الأخشاب، والنسوة تكد في سواري ملونة حاملين سلالاً وصحوناً بين البيوت. لا بُدَّ أن الرجال الأصغر عمراً يكدحون في الحقول المجاورة.

يصعد بي الطريق مدة ربع ساعة أخرى فوق ذاك الجبل الأخضر قبل أن يتوقف مؤشر ال GPS في وسط اللا شيء. كنت قد مررت بالقرية الأخيرة، قبل أن تتلاشى من حولي البيوت ويعود الطريق مقفراً، بل وغير ممهد كذلك، فقد اختفى الأسفلت منذ عدة كيلومترات مضت، وحلّ محله تراب أحمر خشن، أخذت عجلات (الشاه كابور) تضربه في مقاومة وعنف مصممة على المضيّ قدماً رغم قساوته، إلى أن أشار مؤشر ال GPS إلى وصولي إلى وجهتي.

التفتُ حولي في محاولة يائسة للعثور على لافتة خفية أو أي علامة قد تشير إلى المزرعة التي أرسلني إليها صديقنا (راچيف) صاحب (الشاه كابور)، ولكنني لم أجد سوى سور عالٍ من الأسلاك الحديدية وبوابة مغلقة بقفل بدائي. بدأ المكان مهجورًا تمامًا. أمسكت الهاتف وهممتُ بأن أتصل بـ (راچيف) لأستوضح منه العنوان، فقط لأدرك أنه لا توجد شبكة مُطلقًا هنا. صار المحمول قطعة من الحديد لا نفع لها. أسقط في يدي. فتلك المزرعة كانت وجهتي للبيات هذه الليلة، ومن دونها لا أدري أين سأذهب وقد انتصف النهار. هل ينتهي بي الحال في أحد بيوت الفلاحين؟ أم أحاول الوصول إلى محطتي التالية رغم أن هذا يعني القيادة لثلاث ساعات أخرى على الأقل، ناهيك عن اقتراب الليل مما يعني أن الطرق تصير أكثر خطورة؟! في أثناء حيرتي وتفكيرتي في الخطوة التالية انشقت الأرض فجأة عن شاب شديد السمار في ثياب رياضية قديمة متسخة، تقدم مني وأشار إلي باتجاه البوابة متمتمًا ببعض كلمات لم أُميّز منها سوى كلمة واحدة، لكنها رنّت في أذني كالناقوس ورقص لها قلبي طربًا: «مالقيكا»!

كان ذلك السور الحديدي يخص المزرعة بالفعل، و(مالقيكا) هذه هي مدير المكان وصديقة شخصية لـ(راچيف)؛ لذلك حين حكيت له عن نيتي المرور بـ(بانديبور) تواصل معها لتستضيفني في المزرعة ليلة وصولي. تقدّم الشاب النحيل ليفتح لي البوابة على مصراعها، فهرع على الفور كلب أسود كعتمة الليل، وآخر في لون الذهب، ينبحان بصوت عالٍ ويهزّان ذيليهما في حماس لاستقبال تلك الوافدة الجديدة إلى مزرعتهم السعيدة. أخذوا يركضان بجواري ومن أمامنا جميعًا يركض الشاب النحيل، الذي عرفت أن اسمه (كريشنا)، مبيّنًا لي الطريق. (الشاه كابور) يتأرجح في ثقل فوق الأرض الطينية الجافة التي تحدها الأعشاب المصفرة، إلى أن توقف هذا الركب المبجل أخيرًا أمام بناء عصري في غاية البساطة والرقي، مسقوف بالقرميد الأحمر، بدأ أقرب إلى شاليه في الساحل الشمالي منه إلى كوخ صغير في مزرعة بجنوب الهند. تناقض يُذهب العقل بين بيوت القرى المحيطة، بطلائها الأبيض المتساقط وبدائية تصميمها، وتلك الشاليهات الفندقية الأنيقة رفيعة المستوى. كانوا ثلاثة شاليهات إذا شئت الدقة، لكل منها شكل وتصميم مختلف وإن

كانت الروح واحدة. وأمام الشاليه الأول تقف فتاة سمراء نحيلة، تنتظرنا مُبتسمة في ودِّ مصحوب بخجل.

تتمتع الفتاة بأجمل ابتسامة رأتها عيناى قط. تشع أسنانها شديدة البياض من خلالها كمصاييح ساطعة تُثير عتمة بشرتها السمراء الصافية في تباين مثير للانبهار، بينما ينضم شعرها الناعم، حالك السواد، في ضفيرة غليظة، تنسدل لتغطي ظهرها بالكامل وتتلاقى مع أطراف (ساري) تقليدي بلون سماء الصيف عند كعوب قدميها. كانت لوحة فنية تعبر بجدارة عن جمال فلاحى الجنوب الهندي، حتى أننى قضيت وقتًا أتأملها في تعجب!

وقفت هناك محتفظة بابتسامتها الودودة، تنتظرني في صمت حتى انتهيت من فك أربطة الأمتعة والتأكد من سلامة (الشاه كابور). توجهت إليها لأبادلها الابتسامة سائلة إيّاها: أي الشاليهات خُصص لإقامتي؟ فهمت من نظرة عينيها الخالية من أي تعبير أنها لم تفهم كلمة واحدة مما قلت، ولكنها على كل حال أشارت إليّ لأتبعها إلى داخل الشاليه الأول. أشرت إلى صدري قائلة: «شيرين»، ثم أشرت إليها في تساؤل فقالت بصوت خفيض: «مينا».

داخل الشاليه، زاد انبهارى بالمكان أضعافًا مضاعفة، كل تفصيلة بالمكان قصة مستقلة بذاتها تحكي عن بيت عصري متأنق، بداية من المطبخ ذي الرخام الحجري الأسود والأواني الفضية اللامعة، إلى الصالة الصغيرة التي تحتلها مائدة طعام خشبية مستطيلة، تحيط بها مصطبتان عريضتان من نفس نوع الخشب السميك، وقد وُضعت على خلفية من مكتبة بعرض الحائط، تحمل صنوفًا وألوانًا من الكتب، أغلبها يحمل عناوين بالغة الإنجليزية. أما الطرف الآخر من الغرفة فيضم كنبه رمادية وكرسيًا وثيّرًا من ذات اللون، وقد أضاف مصباح أرضي مرتفع طابعًا دافئًا للمجلس يغرينى بالتطلع إلى جلسة مسائية للقراءة بجواره. تركت كل هذا ثم تبعت (مينا) إلى الغرفة الوحيدة بالبيت، وكانت على نفس القدر من البساطة والنظافة، يتوسطها سرير عالٍ، تظللّه غلالة رقيقة واقية من الناموس -كما لك أن تتوقع في مكان كهذا لا بدّ أن فترة الليل تصخب بحفلات عشاء جماعية للناموس الريفى المفترس! أشارت (مينا) إلى حجرة جانبية فمددت رأسي بداخلها لأجد حمامًا

تغطت أرضيته وحوائطه بالأحجار الطبيعية، وتماشى المراض وحوض الغسل فيه مع ألوانه المستوحاة من ذات لون الأحجار. استقرّ عزمي على أول شيء سوف أفعله فوق أن تغادر (ميناء) الغرفة: الاستحمام فوراً!

هكذا شكرت (ميناء) موحية لها بالانصراف، وأغلقت الباب من ورائها جيداً ثم توجهت إلى حقائبي وجهزت نفسي لأفضل حمام في رحلتي حتى الآن. وقد كان بالفعل الأفضل، إلى أن أدركت أن هناك نافذة تعلو المراض مباشرة، في مستوى قامة رجل متوسط الطول، فاقتربت منها في توجس، لاكتشف أن ما توقعته صحيح: كانت تطل على أرض المزرعة مباشرة، مما يعني أن أي عابر سبيل سيمر من هنا يمكنه بكل أريحية رؤية كل ما يدور في الحمام بجودة تفوق شاشة تلفاز عالي الجودة (هاي ديفينيشن)! تباً! الحلو لا يكتمل أبداً في هذه البلاد!

ارتديت ملابسني في عجالة، ثم جلست على طرف السرير في صمت. كانت واحدة من تلك اللحظات التي تقف فيها أمام ذاتك في المرأة سائلاً إياها: أي حماقة ترتكبين بحق السماء يا امرأة؟! وحيدة في مزرعة ريفية ما بجنوب الهند، تحت سقف لا تعلمين حتى من يملكه، في ضحبة خادمة لا يمكنك التواصل معها بأي لغة مفهومة، بجهاز محمول لا يلتقط أي إشارة في نطاق ثلاثة كيلومترات على أقل تقدير، والأدهى أن لا أحد على هذا الكوكب يعرف أين أنت سوى مالك الموتوسيكل الذي قابلته للمرة الأولى منذ ثلاثة أيام حرفياً! أي حماقة يا امرأة؟! أي حماقة؟!

ولكن وقت جدوى التفكير قد ولى الآن، ولا أملك سوى تذكير نفسي بإيماني العميق بأن الخير أصيل في البشر وفطري، وأن فرصة أن يقتلني أحدهم في هذا المكان هي نفس فرصة أن يغتالني أحدهم أثناء عبوري لطريق (صلاح سالم) في مصر! هذه الإحصائية التي اخترعتها للتو تكفيني الآن، لننفض عن رأسينا الجميلتين هذه الأفكار السوداء يا امرأة، ودعينا نستكشف مصدر رائحة الطعام المتزايدة بالخارج.

خرجت إلى الصالة فلمحت (مينا) تتحرك في المطبخ في همة ونشاط، وقد بدأت روائح التوابل الهندية النفاذة تداعب أغشية أنفي بلا رحمة. أخبرتني (مينا) بلغة الإشارات المحدودة مع كثير من تحريك الشفاه بتمتمات غير مفهومة أن الطعام سيكون جاهزًا بعد قليل، فأومأت برأسي تفهّمًا، وأشرت إلى الخارج بمعنى أنني سأتجول قليلًا حتى تنتهي هي من الطعام.

في الحقيقة لم يكن هناك مجال للكثير من التجول، إنما أخذت دورة سريعة حول البيوت الثلاث المتجاورة، التي خَلْتُ من الضيوف في الوقت الحالي إلا من البيت الذي احتلته أنا منذ قليل، وفيما عدا ذلك كانت حدود المزرعة تمتد خلف تلك البيوت حتى منحدر قريب، أرى من بعده بيوت قرية بعيدة. عُدْتُ إلى المنزل والتقطتُ أحد الكتب الذي شدني عنوانه، ثم جلستُ على مصطبة خشبية في ظهير المنزل تحت ظل عريشة من القرميد وانهمكت في القراءة. كان الكتاب يحمل عنوان: (الحلم بجوبيتر) أو Dreaming of Jupitar لكاتب إنجليزي يدعى (تيد سيمون).

كانت مفارقة مذهلة أن أعثر هنا دونًا عن كل بقاع العالم، في تلك المزرعة النائبة، التي وصلتها بطريقة قدرية بحثة، لم تكن في حساباني أبدًا قبل يومين من اليوم، على هذا الكتاب بالتحديد. فـ(تيد سيمون) هذا -يا سادة- يُعدُّ الأب الروحي المعاصر لرحالة الموتوسيكلات، بعد أن ألهمت رحلته التاريخية في مطالع السبعينيات من القرن الماضي، بما فيهم الأمة لله، الآلاف من المغامرين للتجول حول العالم على موتوسيكل! فما بين عامي 1973 و1977 قاد (تيد سيمون) دراجة نارية من طراز (تريومف) الإنجليزية، تحمل نفس السعة اللترية لـ(الشاه كابور)، بل وتشابه تصميمه الخارجي إلى حدٍ كبير بالمناسبة، حول العالم، ليقطع خلال هذه السنوات الأربع ما زاد عن مئة ألف كيلومتر دفعة واحدة، زار بها خمسًا وأربعين دولة من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب.

الغريب أن هذا الكتاب الذي أحمله بين راحتيّ الآن، وأنا أجلس في الشرفة الأمامية للفيلا الهندية النائبة، يعدُّ مُلحقًا لكتابه الأولى (رحلات جوبيتر) الذي دَوَّن فيه (تيد سيمون)

رحلته الأولى. فقد استخدمه، أي (الحلم بجويتر)، ليدوّن أحداث رحلة أخرى قام بها في مطلع القرن الحالي، لينتبع فيها خطأ رحلته الأولى بعد مرور ثلاثين عامًا، وهو لا يزال على دراجة نارية، وقد بلغ السبعينيات من عمره!

يحكي (تيد سيمون) في مقدمة هذا الكتاب الأخير عن مُلابسات رحلته التاريخية حول العالم على موتوسيكل، فيقول: إن القرار كان عشوائيًا تمامًا، فالفكرة تولدت في ذهنه على حين غرة، في أحد الأيام الغائمة على الساحل الجنوبي لـ(إنجلترا). يقول عن هذا القرار: «كنت كاتبًا وليس قائدًا للدراجات. على الرغم من أنني كنت معجبًا بالدراجات النارية منذ الطفولة، فإنني لم أكن أعرف شيئًا عنها، لكن هذا لم يزعجني، فقد ركبها الملايين من قبلي، فلماذا لا أفعل أنا؟ كان عمري اثنين وأربعين عامًا. قال البعض: لقد كبرت في السن بالنسبة لمثل هذا النوع من الأشياء. لكن هذا لم يزعجني. في الحقيقة اتضح أنه سن مناسب!».

أرفع عيني عن الصفحات. أتأمل (الشاه كابور) الرابض أمامي في سكون وأسرح إلى الظروف المشابهة التي بدأت بها قصتي مع الموتوسيكلات. مثل (تيد)، كنت لا أعرف أي شيء عن هذا العالم، ومثله أيضًا جاءتني الفكرة بصورة مباغتة، وكنت يومها أصغر من العمر الذي يحكي عنه بعشر سنوات.

القاهرة - مارس 2013

يوم مُبِلٌ آخر من أيام العمل التي تدور بلا انقطاع كطاحونة هواء في شتاء دائم. تصلني رسالة إلكترونية تحمل شارة النشرات العامة، تلك النوعية من الرسائل التي نادرًا ما نكترث لها كموظفين، ويكون مصيرها في الأغلب هو ضغطة صغيرة على مفتاح Del تلقي بها إلى غياهب سلة تدوير المهملات. إلا أن العنوان هذه المرة جذب اهتمامي بشكل خاص، واستوقف سبابتي في منتصف طريقها إلى المفتاح الماحي الرهيب.

كانت الرسالة بعنوان Riders Club. فتحت الرسالة، فإذا هي تحمل دعوة للقاء تعارف بين كل هواة وممارسي رياضة ركوب الدراجات بمختلف أنواعها، نارية وهوائية، من

موظفي الشركة الكرام. حسناً، لم أكن يوماً من هُواة هذه ولا تلك، ولكن الدراجات النارية أو الموتوسيكلات بالذات أحمل لها نوعاً غريباً من الحنين الذي تمكن من قلبي وجعل عيني تومض بالقلوب الحمراء، وتشع حول رأسي هالة بألوان قوس قزح كلما ذُكرت أمامي أو رأيت أحدها. هذا بالرغم من أنني لم أركبها في يوم من الأيام ولو على سبيل التجربة، ولم أحاول حتى أن أقرب منها من قريب أو بعيد.

بيد أن ما ذكرته لتوي ليس صحيحاً بشكل كامل، فالحقيقية أن الموتوسيكلات قد احتلت جزءاً مميّزاً من وجداني منذ أن وعيت السمع والإبصار أصلاً. بل إن كلمة (قيسبا) نفسها هي -صدّق أو لا تُصدّق- من أوائل الكلمات التي نطقت بها على الإطلاق قبل حتى أن يستوي لساني بكلام مفهوم. ولهذا قصة!

كنت -وما زلت- طفلة عنيدة بطبعي، أرفض تناول الطعام في أغلب الأحيان، فكان على والديّ محايلتي في كل وجبة، تارة بإلهائي في لعبة ما، وتارة بالتهديد والوعيد، هذا بينما أتلقى اليوم ذات القدر من التقريع وإنما بسبب كثرة أكلي وزيادة وزني، وهذا إن دلّ فإنما يدل على أنك لا تستطيع إرضاء أهلك أبداً يا صديقي! كان من جملة ما اخترعه والدي من أساليب المحايلة هو إجلاسي على الإفريز الداخلي لأحد الشبابيك العملاقة في بيتنا عتيق الطراز، وإلهائي بذكر لون السيارات المارة في الطريق، فأصيرُ أكرّر من ورائه بحروف متكسرة: «عبية حمرا ... عبية صفرا». وهكذا إلى أن تمر (قيسبا)، فأنطقها هذه المرة بطريقة صحيحة وبسلاسة تامة، بل وبنفس درجة الحماس المنعكسة في صوت أبي نفسه!

كان أبي يعشق قيادة الدراجات النارية، تلتمع عيناه حين يتحدث عنها، وتعلو وجهه ابتسامة مُشرقة كمن يُفكّر في حبيبته كلما ورد ذكرها أمامه. وإن لم يكن هذا العشق قد انتقل إليّ عبر الجينات، فلا بدّ أنه انتقل إليّ بسبب التعرّض المتواصل طوال سنوات طفولتي الأولى لكمية مكثفة من محفزات الذاكرة المتعلقة بالدراجات النارية، إما عبر حكايات أبي التي لا تنتهي عنها، أو عبر الصور الفوتوغرافية التي يمتلكها. فحين كبرت قليلاً ونمّت قدرتي على الاستيعاب، نما لديّ معها وُلغٌ غريب بالصور الفوتوغرافية، وكان

أبي يمتلك منها العشرات، بل المئات. صور باللونين الأبيض والأسود، ذات إطارات بيضاء بهتت أطرافها وعلاها الاصفرار، يحمل معظمها وجه أبي في مراحل العمرية المختلفة، بين أسرته وعائلته تارة، وأصدقائه أو زملائه في العمل تارة أخرى. كان أبي يحتفظ بتلك الصور في دُرج خاص يمتلك هو وحده مفتاحه، وكنت ألحُّ عليه كل فترة ليسمح لي بالاطلاع عليها، فيخرجهم بحرص شديد، ويشرف على عملية اطلاعي عليهم، ليشاركني أحياناً بوصف المكان الذي التقطت فيه هذه الصورة أو تلك، أو صلة القرابة بينه وبين الرجل الواقف بجواره، وربما توقف عند صورة بعينها فيضحك؛ لأنها ذكرته بموقف طريف فيحكىه لي.

كانت من أكثر هذه الصور القديمة تمييزاً، تلك التي يظهر فيها أبي وهو في العشرينيات من عمره، مرتدياً ملابس صيفية ناصعة البياض، وقد استقرَّ فوق (فيسبا) عتيقة الطراز، وإن دلتَّ حالتها على أنها كانت جديدة تماماً وقت التقاط الصورة، بينما يشير التاريخ المختوم بخاتم عتيق على الجهة الخلفية من الصورة إلى أنها التقطت في سبعينيات القرن الماضي. ثم هناك صورة أخرى، يبدو فيها أبي أكثر شباباً، حيث لم يتعدَّ السابعة عشرة من عمره تقريباً، وقد خط شاربه، وجلس فوق موتوسيكل من طراز (هارلي ديفيدسون)، بدا شديد الضخامة مقارنةً بجسده شديد النحول، وقد استقرَّ حذاؤه الجلدي الذي امتزج فيه اللونان البني والأبيض -وهي موضة الخمسينيات- على دواسة ناقل السرعة اليسرى، في وضعية تحمل أعتى علامات الفخر والكبرياء، بينما تبدو من خلفه الكبائن الخشبية التي ميّزت شاطئ (ميامي) بالإسكندرية في تلك الحقبة من الخمسينيات.

إن كان أبي قد أخفى عني الكثير من مغامراته الشيقة في تلك الفترة من عمره، إلا أن أبناء عمومتي الذين عاصروا تلك الفترة قد أباحوا بالكثير من الأسرار، وحكوا لي عن الكثير من المواقف الطريفة. منها مثلاً أن عمتي وابنتها كانتا يركبان الترام ذات يوم -وكان وقتها يمر عبر شارع (شبرا) الرئيسي- فإذا بجميع من في العربة يتجه إلى النوافذ اليمنى وقد اتسعت أعينهم في اندهاش وربما زعر. كان هناك شاب قد انتصب واقفاً فوق موتوسيكل وهو ينطلق بسرعة في محاولة للتسابق مع الترام! علقت عمتي متسائلة: «مين الواد

المجنون ده؟ حد يخاطر بنفسه كده؟»، فما كان من ابنتها إلا أن أجابته في بساطة: «ده أخوك!»!

لا يمكنني الجزم بمدى صحة تلك الواقعة أو غيرها بالقطع؛ لسبب بسيط هو أن أبي أصرّ دائماً على إنكارها، ربما ليحتفظ بالحق في تقريعي على تهوري وجنوني، خاصة وقد فلت الزمام، وفشل عبر السنوات في إثنائي عن ركوب الموتوسيكلات. وسواء انتقلت القدرات البهلوانية مع نفس جينات قيادة الموتوسيكلات في دمي أم لا، تبقى الحقيقة الجلية أن تلك الصور الخاصة بـ(الهارلي) الذي امتلكه أبي يوماً ما وهو بعده شاب غرير يتلقى مصروفه من أبيه، و(القيسبا) التي اشتراها من حُرِّ ماله فيما بعد حين دعت الظروف إلى ذلك، قد ظلت عالقة في ذهني لفترة طويلة، وقد شكلت جزءاً غير يسير من ذكريات طفولتي الأولى. ورغم ذلك فلم تراودني نفسي إطلاقاً طوال تلك السنوات أن أتبع سُنَّة أبي فأتحول بنفسني إلى ركوب الموتوسيكلات إلى أن كان ذلك اليوم الذي وصلتني فيه الرسالة الإلكترونية إيَّاه.

أدخل قاعة الاجتماعات الأنيقة بالدور العاشر في الشركة. هناك عدد قليل من الزملاء يتفرقون بين المقاعد في غير انتظام، بينما يقف رجل أربعيني وقور في مقدمة الحجرة مواجهاً الحضور، وقد بدت من خلفه شاشة العرض الصغيرة تحمل ذات الكلمتين اللتين لفتتا انتباهي في رسالة الدعوة: (Riders Club). استهل الرجل حديثه بالتعريف بالهدف وراء تأسيس هذا النادي الصغير لراكبي الدراجات بمختلف أنواعها، وهو تبادل المعلومات وتشجيع موظفي الشركة على ركوب الدراجات الهوائية أو النارية، سواء كهواية ورياضة، أو كوسيلة مواصلات يومية بهدف التغلب على ازدحام الشوارع ومشكلات صف السيارات. ثم مضى يشرح لنا المعلومات الأساسية التي يجب أن يعرفها كل مَنْ أراد الدخول إلى عالم الدراجات النارية، مثل الأنواع المختلفة للدراجات، والفارق بينها من حيث السعر والسرعة والأداء إلخ. إلى هنا والموضوع بالنسبة لي، وربما بالنسبة لقارئ هذه السطور، عادي، ربما إلى حد الملل. كان هذا إلى أن قامت تلك الفتاة ووقفت بجوار

المُحاضر وبدأت في مشاركته الرد على الأسئلة حول السكوتر أو (القيسبا) تحديداً، فهي تقود السكوتر بصورة يومية!

بدأت علامات الاستفهام تقفز إلى ذهني الواحدة تلو الأخرى، لا ينافسها في السرعة سوى انطلاق الأسئلة بالفعل من بين شفتاي، ساعية وراء إجابات شافية من الفتاة بخصوص قيادة السكوتر في شوارع مصر المخيفة، بحفرها ونقرها ومطباتها، وعشوائية قائدي المركبات فيها، وضربهم عرض الحائط، بصورة تكاد تكون ممنهجة، بكل القواعد المرورية والمنطقية على حد سواء، وأخيراً وليس آخراً: في الشوارع التي لا تسلم فيها حتى قائدة السيارة من التحرش اليومي!

انتهى الاجتماع، الذي لم يهدأ فيه سيل المعلومات والأسئلة طوال ساعتين، باتفاق ودي بيني وبين الفتاة على لقاء قريب، تسمح لي من خلاله بتجربة السكوتر، وتعلمني قيادته. فقد أكدت لي أن الأمر في غاية البساطة، ولن يستغرق النصف ساعة حتى أتمكن من القيادة بمفردي تماماً!

باندبيور - ديسمبر 2019

دعتني (ميناء) أخيراً إلى مائدة الطعام. كنت أتضوّر جوعاً، فلم يتسنّ لي تناول أي من الطعام منذ كوب الشاي الذي تناولته في الصباح مع (جابوش). اعتزمت في سري أن أتناول الطعام مهما كان حاراً، إنها مسألة حياة أو موت الآن يا سادة. ولكن على خلاف توقعاتي جاء الطعام خالياً من الشطة تماماً. لقد صدقت (مالفيكا) - التي تتولى إدارة المزرعة وإن كانت غائبة عنها هذه الأيام - وعدها بالتنبيه على (ميناء) بتحضير الطعام خالياً من الشطة والبهارات الحريفة. تنكشف أغذية الصحون أمامي عن خبز الروتي الشهير، والأرز البسمتي المبهر، وشورية من العدس تطفو على سطحها أوراق خضراء مجهولة الهوية، وسلطة من أوراق خضراء أخرى تختلف عن الأولى، وحبوب تشبه الفول شكلاً وموضوعاً. كان مزيجاً عجيبياً من النباتات والحبوب ولكنه كان شهياً بحق.

انتهيت من طعامي في عجلة، بسبب نهمي وجوعي أولاً، ولاقترب الساعة من الواحدة والنصف ظهرًا ثانيًا. حملت حقيبة خفيفة على ظهري تحمل أوراقتي ونقودي وزجاجة من المياه، ثم انطلقت على (الشاه كابور) لأعود مرة أخرى إلى المحمية الواقعة عند سفح الجبل. أصبح (الشاه كابور) خفيفًا رشيقيًا بعد أن تخلّص من المتاع الثقيل الذي تركته بالبيت، فقطع المسافة إلى حدود المحمية في أقل من رُبْع ساعة، ثم خرجت من بوابة المحمية وقدمته لمسافة ثلاثة عشر كيلومترًا آخرين حتى بلغت مركز ضيوف المحمية حيث يقع شبك التذاكر، ومنه تتحرك الحافلات الخاصة بجولات المحمية. كان المكان عبارة عن أرض قاحلة تستخدم بالأساس لصف السيارات، بينما يقع في زاويتها متجر للتذكارات السياحية ومبنى من طابق وحيد تحتله إدارة المحمية ومنافذ بيع التذاكر. صفت (الشاه كابور) تحت شجرة نحيلة في محاولة بائسة لوقايتها قدر الإمكان من شمس الظهيرة الحارقة، ثم توجهت إلى إحدى النوافذ الدائرية المتسخة ذات الإطار الحديدي الصدي لمكتب حجز التذاكر. يذكرني حاله بصورة مثيرة للتوتر بحال مكاتب المصالح الحكومية في مصر، بل أكاد أجزم أن هذه اللفة من ورق الجرائد التي ألقاها أحدهم بغير اكتراث على المكتب المتهالك وراء النافذة تضم شطيرتين من الفول وكيسًا من (الطُرشي)، لولا أن الكتابة عليها جاءت بحروف سنسكريتية هندية! كان موقعي هو الثالث في صف طويل من الزوار ينتظرون مثلي في مَلَل أمام نافذة الحجز المغلقة، إلى أن استقرَّ الموظف المختص في مقعده أخيرًا بعد رُبْع ساعة ليفتح النافذة ويبدأ في تحصيل أجر زيارة المحمية، وكان مبلغًا زهيدًا لا يتعدى 120 جنيهاً مصريًا. بعد ربع ساعة أخرى من الانتظار أطلق أحدهم صفيحًا عاليًا مُعلنًا وصول أتوبيسات السفاري وبداية تحميل الركاب.

مرة أخرى ينجح الهنود في تقمص روح أفلام (إنديانا جونز)، فهذا هو أتوبيس متهالك، صناعة الثمانينيات من القرن الماضي -أي من عمر الجيل الذي حضر سلسلة الأفلام هذه في أوج شهرتها- يحمل اللون الأخضر الخاكي المميز، ويستعد لحمل عشرين نفرًا من السياح في رحلة سفاري داخل غابة من الغابات الهندية التي تعج بالحيوانات البرية والمفترسة. تساءلت بيني وبين نفسي إن كان السائق يحمل سلاحًا، أليست هناك حيوانات

مفترسة في تلك المحمية؟ بل إن كلمة (النمور) توجد في اسمها ذاته؛ (محمية بانديبور للنمور)! غير أن نظرة واحدة إلى السائق النحيل، ضعيف البنية، بقميصه الغارق في العرق والتراب، والنظرة الخاوية على وجهه جعلتني أدرك أنه لو كان يحمل سلاحًا لربما كان أول ما يفعله هو إطلاق النار على رأسه للتخلص من تلك الحياة البائسة التي يحيها مُرغمًا!

تحرك الأتوبيس أخيرًا في تمام الثانية والنصف، ليعود بي مرة أخرى إلى المحمية التي - لعلك تتذكر- تقع على بُعد ثلاثة عشر كيلومترًا من مركز الزوار، وذلك لسبب لا يعلمه سوى الله والإخوة الهنود. ولكن هذه المرة، بدلًا من أن يستكمل الطريق الذي اتخذته أنا سابقًا صعودًا إلى الجبل، انحرف بعد خمس دقائق من عبور بوابة المحمية إلى طريق ترابي غير ممهد يخترق الأحراش مُبتعدًا عن الطريق الرئيس. كان الأتوبيس يصخب في البداية بكلام لا ينقطع من الركاب، سيل منهمر من الكلمات الهندية المتطايرة من الأفواه بلا رادع، إلى أن دخلنا ذلك الطريق النائي، وبدأت الطبيعة تبسط سيطرتها على الجميع، فهدأت الأصوات تمامًا إلا من همسات خافتة، وكأن الجميع قد أصابتهم رهبة المكان بخوف فطري من كسر حاجز الصمت المحيط بنا من كل الجهات إلا من صوت موتور الأتوبيس الخشن واهتزازاته الراقصة على الطريق غير الممهّد. كسر رتابة هذا الصوت فجأة صيحة سيّدة أربعينية تحتل المقعد الذي يليني مباشرة. ألتفت في فزع، لأجدها تنظر من النافذة المجاورة وهي تضرب زوجها بيدها منبهة له في حماسة مبالغ فيها، ليتبعها بقية الركاب في صيحات متتالية مفزعة وكأنهم يتابعون مباراة كرة قدم على مقهى المعاشات!

من حُسن حظي أنني اتخذت مقعدًا مجاورًا للنافذة، مما مكّني من الميل برأسي قليلًا خارج إطارها لتأمل المشهد المثير لكل هذه الحماسة والصخب. قطع من الغزلان يرعى تحت مجموعة من الأشجار على بُعد ثلاثمئة متر من موقعنا. تكالب بعض الركاب على النوافذ لالتقاط الصور التذكارية، وكاد أحدهم يعميني تمامًا برائحة إبطه المتعرق الذي ظلّ وجهي في أثناء محاولته المرتبكة لالتقاط صورة من النافذة المجاورة لي. أظن أن تأففي وإمارات الامتناع الممزوجة بالاستهجان على وجهي أردعته عن تكرار الأمر مرة أخرى! أما الصيحات الحماسية والتهليلات الطفولية فقد تكررت بعدها مرات ومرات كلما

مرَّ الأتوبيس بحيوان غريب أو قطيع من الحيوانات أو جماعة من الطيور. تشرَّب الأعناق لدى رؤية أسرة صغيرة من الأفيال تتحرك في تودة متجاهلة إيانا، وتنفرد الأصابع مشيرة إلى مجموعة من الخنازير البرية تستلقي في خمول، وتتهلل الوجوه مع مراقبتها لمجموعة من القروء تتسلى بتفلية رءوس بعضها البعض في انهماك، وتتسع العيون انبهارًا لمشهد أحد الطواويس وهو يفرد ذيله المزركش العجيب.

استمرَّ الوضع هكذا، أترقَّب بين الصيحة والصيحة، وأنا أحمل الكاميرا فى يدي استعدادًا لتصوير المخلوق التالي الذي سُنْصُدفه في الرحلة، متمنية أن يسعدنا الحظ برؤية ولو نمر واحد من تلك النمر المزعومة، ولكن لم يحالفنا الحظ للأسف. انقضت الربع ساعة الأخيرة في هدوء تام، فلم نرَ أي حيوانات أخرى. مزيج من تبدُّل لون السماء إلى اللون الذهبي المُنذر باقتراب مغيب الشمس مع رتابة صوت الموتور واهتزازات الأتوبيس المتهاك كان له أثر مُنَوِّم، أثقل جفوني، فصرت أغلب النعاس بصعوبة. لذلك ما إن عاد بنا الأتوبيس مرة أخرى إلى مركز الزور، وكانت الساعة قد تجاوزت الرابعة والنصف مساءً، حتى قفزت فوق سهوة جوادي الحديدي، وركضنا ركوضًا نحو المحمية والجبل، في صراع مع الزمن من أجل الوصول إلى المزرعة قبل اكتمال غروب الشمس، فهذا الطريق المقفر بالكاد تجاوزته في ضوء النهار دون أن أصاب بسكتة قلبية من فرط التوتر والخوف، فما بالك لو قطعته وحدي في عتمة الليل!

القاهرة - أبريل 2013

هناك مقولة أمريكية شهيرة مفادها أن «وحده من يقود دراجة نارية يعرف عن حق إحساس الكلب حين يُخرج رأسه سعيدًا مبتهيجًا من نافذة السيارة!». ومن خبر منكم هذه التجربة -أي قيادة الدراجة النارية- يعرف أن هذه المقولة صائبة تمامًا، ولكن قليلون هم من يلاحظون أن مرافقة قائد الدراجة جليوسًا على المقعد الخلفي هي التشبيه الأدق لهذا الكلب السعيد! إن المشاهد الحياتية اليومية تمر أمام عينيك في لوحات بانورامية مثيرة، وأنت مستقر فوق ذلك المقعد الخلفي، مُتحررًا من كل شيء، وحين يُلامس الهواء المنعش

وجهدك، تشعر بكل ذرة من المكان تلامس جلدك، ثم تخترقه ليصبح جسدك قطعة من محيط الوجود ذاته. لعلي لا أبالغ لو قلت إنها تجربة تُشبه خروج الروح من الجسد والطفو في الأثير!

ولكن هذا الإحساس الفريد مشروط بالاستسلام التام، أن تنغمس تمامًا في اللحظة، وتنزع عن فكري كل المخاوف والهتافات العقلية التي تدعوك للصراخ في كل مرة تتذكر فيها أن كل ما يضمن وجودك فوق المقعد وعدم سقوطك بسرعة 60 كم/س على أقل تقدير هو تشبثك بكتف قائد الدراجة أو خصره. وقد كانت تلك بالضبط هي نوعية الأفكار التي أخذت تدور في رأسي بلا هوادة في المرة الأولى التي ركبت فيها السكوتر في حياتي على الإطلاق، مما أفسد عليّ أي متعة محتملة، وكاد أن يصرف نظري تمامًا عن فكرة اقتناء سكوتر من الأساس.

كان الوقت ظهرًا، حين التقيت (مروة)، زميلتي بالعمل التي تركب السكوتر، من أجل حصة التعليم المجانية التي تفضلت بها على شخصي المتواضع. التقينا أثناء وقت الاستراحة أمام باب الشركة التي نعمل بها، وذهبنا إلى حيث تصف هي السكوتر فوق الرصيف المقابل. انتظرت حتى أنزلت السكوتر الأحمر الصغير من فوق الرصيف ثم ارتقيت الكرسي الخلفي بصعوبة، وأنا أتساءل في هلع بيني وبين نفسي إن كانت صديقتي، التي يصل وزني إلى ضعف وزنها، ستمكن من القيادة حقًا مع وجود هذا الدر فيل الصغير الذي استقر على مقعدها الخلفي؟

لم نكد نطلق وسط زحام السيارات حتى أدركت أن مشكلة التوازن هي أهون المشكلات في الوضع الحالي، هناك مثلًا مشكلة أن ظهرك في العراء التام لا يسنده شيء، فأقل حركة مفاجأة للسكوتر أو قائده تنذر بإطاحتك من فوقه فورًا. هناك كذلك مشكلة (الرُكْب)، التي يجبرني تصميم السكوتر على وضعها بمحاذاة جانبيه؛ مما يجعلها عُرضة دائمًا للاحتكاك بالسيارات المجاورة، لا سيما في شوارع المحروسة حيث تتلاحم قوى الشعب العامل مما لا يترك أي مساحة للأمان بين السيارات! لا أذكر كم (نوبة هلع) أصبت بها في مسافة لم

تتعدى بضعة كيلومترات كلما اقترب السكوتر من إحدى السيارات أو انحرف بينها متلويًا في الزحام!

وصلنا بسلام إلى ساحة متطرفة شبه خالية من السيارات، فتوقفت صديقتي على جانب الطريق وأشارت إلي بالترجُّل عن السكوتر. أخذت تشرح لي كيفية إدارة محرك السكوتر. كان الأمر أسهل بكثير مما توقعثُ. هناك صورة مألوفة تستقر في مخيلتي عن عملية (تدوير) تلك النوعية من المركبات بوجه عام، وهي عن رجل أربعيني غارق في عرقه، يقف على قارعة الطريق، وهو يحاول بعزم أن يضغط على رافعة حديدية صغيرة تبرز من هيكل (القرّبا)، تدعى (الْمَنْفَلَّة) -وهي كلمة إيطالية بالمناسبة Manovella استوردها المصريون مع استيرادهم لـ(القرّبا) الإيطالية في الخمسينيات- وهو يعالج في نفس الوقت الطرف الأيسر من المقود، إلى أن تستجيب المكنة اللعينة أخيرًا، ويصدر عنها صوت كركرة عالية، فيقفز الرجل فوقها مسرعًا قبل أن تُغيّر رأيها وتهمد إلى سكون مرة أخرى! هذه الصورة اختلفت تمامًا حين بدأت صديقتي في الشرح: هذا السكوتر من النوعية الأتوماتيك، وهو يختلف عن ذاك الذي يُدار بالمنفلة، والذي يطلق عليه سكوتر (يدوي) أو (مانيوال). فالسكوتر الأتوماتيك لا يتطلب سوى كبسة على زر صغير يقع أسفل المقبض الأيمن من المقود، مع الضغط على أحد المكبحين.

اتبعت الخطوات في حرص، فدار السكوتر على الفور، وانطلق صوت الكركرة العالية المحبب إلى نفسي. هكذا انتهت حصة (كيف تُدير محرّك السكوتر) لتبدأ بعدها بثانية واحدة حصة (الفرامل)، وهي تتكون من جملة واحدة بسيطة: «الفرامل المقابلة للمقبض الأيمن تكبح العجلة الأمامية، أما الفرامل المقابلة للمقبض الأيسر فتكبح العجلة الخلفية». أكرّر ذلك في سري عدّة مرات حتى أحفظه. ثم أشارت صديقتي إلى زر صغير يشعل الكشاف الوحيد اليتيم بمقدمة السكوتر، وزر يتحرك يمينًا ويسارًا ليشتعل نور الإشارات الجانبية الأصفر، وزر آخر كبير الحجم نسبيًا، كبسته فاطلق نفيّرًا مزعجًا.

عرفت كل ذلك وقدماي على الأرض تنعمان بأمان الاستقرار والثبات. ثم أشارت إلي صديقتي بأن أتخذ مجلسي كوني قائدة للسكوتر، وأتبع خطوات إدارة المحرك، ثم أزيد السرعة عن طريق إدارة المقبض الأيمن باتجاه الجنوب رويدًا رويدًا حتى يتحرك السكوتر. فعلت كما أشارت وانتفض جسدي مع الانطلاقة العنيفة للسكوتر، يسمونها (الكيك) أو الركلة، ربما لأنك تشعر معها بأن أحدهم قد ركل مؤخرة السكوتر (ولتحمد الله أنها ليست مؤخرتك أنت شخصيًا) ليدفعكما معًا دفعة مفاجأة إلى الأمام.

نجحت بالفعل في التحرك بالسكوتر دون أية خسائر مادية تُذكر. كان الاحتفاظ بتوازني وتوازن السكوتر هو العامل الرئيسي لنجاح الأمر، فما عدا ذلك من تحكم في استخدامك لمقبض السرعة والمكابح يرجع لمهارتك الشخصية ومدى تركيزك والتحكم العضلي العصبي لك. هناك حوادث كثيرة يتفاقم تأثيرها بسبب تشبث قائد الموتوسيكل بمقبض السرعة، أو استخدامه الخاطيء للمكابح. أما التوازن فهو بداية تعارفك وتآلفك مع السكوتر، وهو لا يختلف كثيرًا عن توازنك على الدراجة الهوائية، إن لم يكن أكثر سهولة - بعكس الفكرة الشائعة - وذلك بسبب فارق الوزن الكبير بين السكوتر والدراجة، فخفة الأخيرة ونحافة إطاراتها تجعل التحكم بها أصعب بالتأكيد.

هكذا نجحت في إكمال دورتين كاملتين بالمكان، ومن ثم عدت مرة أخرى إلى (مروة) التي تنتظرني في صبر على جانب الطريق. اقتربت منها وابتسامة جذلة تداعب شففتاي، مع شعور متضخم من نشوة الانتصار، قبل أن تتسع عيناها هلعًا إذ أدركت أن سرعتي أزيد من اللازم، وأني على الأرجح قاب قوسين أو أدنى من الارتقاء في حضنها أنا والسكوتر معًا! كرد فعل غريزي ضغطت المكابح بقوة فجأة، فانتهى الموقف الأليم بصديقتي سليمة معافاة، وأنا أقف أمامها في خجل، والسكوتر ممدد كجثة هامدة بين أقدامنا!

انتهت حصة تعليم قيادة السكوتر الأولى - والتي صارت الأخيرة كذلك - بعد نصف ساعة بالفعل. ولم تكد تمر ست ساعات أخرى على هذه الأحداث حتى انطلقت في أول رحلة للسكوتر الخاص بي!

بانديبور - ديسمبر 2019

بلغت المزرعة أخيراً قبل الغروب بثلاث الساعة تقريباً، لأجد (مينا) عند باب المنزل تستعد للرحيل، ولكنها اصطحتني أولاً إلى المطبخ لتشير إلى عدد من الصحون المغطاة التي تركتها من أجلي على رخامة المطبخ، ثم إلى سلة من الخبز وقالت وهي تهز رأسها الهزة الشهيرة: (تشاباتي). فهمتها هذه المرة، فالتشاباتي هذا هو نوع من الخبز الهندي المفضّل بالنسبة لي. جاوبتها بهزة مماثلة مع ضم يدي أمام صدري في إشارة امتنان وقلت: (شوكريا) - أي شكرًا - فأضاءت مصابيح أسنانها في ابتسامة واسعة ثم انصرفت. حسناً يبدو أن التفاهم بيننا ليس مستحيلاً على كُُلِّ حال!

أدركت بعد رحيل (مينا) أنني وحيدة تمامًا في تلك المزرعة النائبة، ربما باستثناء كلبتي الحراسة في الخارج. أسرعرت لأغلق الباب بالمزلاج الحديدي الضخم، ثم طفت بالبيت لأتأكد من إغلاق النوافذ جيدًا، قبل أن أتوجه إلى غرفتي لأقوم بطقوس المساء، والتي تتلخص في دهان وجهي ويديّ وقدميّ بالكريم، ليس كريم العناية بالبشرة، بل الكريم الواقي من لدغات الناموس بالطبع! ثم دلفت تحت الغلالة الواقية من الناموس، ومكثت في الظلام أشاهد إحدى الحلقات المسجلة من مسلسلي المفضل على الموبايل، فمع عدم وجود شبكة محمول في المنطقة كانت التسلية الوحيد المتاحة في هذه المنازل إلى جانب الكتب.

تذكرت الكتاب الذي كنت أقرؤه في الظهيرة، فخرجت مرة أخرى إلى الصالة لأحضره، ولكنني ما إن خطوت إليها حتى أفزعني صوت طرقات على الباب. تسمّرت مكاني وسألت بصوت عالٍ وبالإنجليزية: «من هناك؟». فجاءني صوت ذكوري خافت: «كريشنا»! يا إلهي! لقد نسيت أمر عامل المزرعة هذا تمامًا. حسناً، إذن فالأمر أسوأ من كوني وحيدة بالمزرعة! أنا وحيدة مع (كريشنا) وكِلايه! فتحت الباب في حذر فأشار إلى المطبخ وهو يشيح بنظره عني ويتمتم بكلمات غير مفهومة، فأشرت إليه أن (تفضّل)، فدخل في عَجالة والتقط بعض الأشياء ثم خرج مهرولاً وكأنما استشعر قلقي وتوتري من وجوده. أغلقت المزلاج مرة

أخرى في سرعة من ورائه، ولكنني لاحظت حركة فوق إطار الباب العلوي فأجفلت. هناك يقف مُلتصقًا بالجدار في ثبات، بطول كف يدي، ولون أبيض ناصع، برص أشهب عظيم الحجم! يا لها من ليلة سأقضيها في هذا البيت الأنيق! هرولت إلى حجرة النوم في فزع وأغلقت الباب من ورائي بمزلاج آخر، وأخذت أتفحص الباب بحثًا عن فتحات يمكن أن يدخل منها هذا البرص فلم أجد، لحسن الحظ.

القاهرة - أبريل 2013

أقُف في ذلك المعرض الصغير بحي (مصر الجديدة)، وقد افترشت الرصيف قبالة أنواع متعددة من الموتوسيكلات المختلفة. أتأمل في ألوان وأشكال مختلفة من الخوذ، وقد تراصت في انتظام فوق رفّ كبير. كان كل ما أراه وقتها هو الألوان والأشكال بالفعل، فلم أدرك بعد أن هناك أنواعًا متعددة من الخوذ، تختلف طبقًا لتصميمها، والهدف من استخدامها، وشهادات الجودة المصاحبة لها التي تضمن لك معدلات متفاوتة من الأمان والسلامة، إلخ. كانت النية المبيتة لديّ هي شراء خوذة فقط، وذلك تمهيدًا لشراء السكوتر نفسه. أكره بشدة التردد بشأن القرارات، أيًا كانت أهميتها، لذلك أحب أن أقطع على نفسي وعلى الآخرين تلك المرحلة المُضَيِّعة للوقت باتخاذ قرارات حاسمة في أضيّق فترة زمنية ممكنة. لذلك كانت الفترة الزمنية الفاصلة بين حصة التعليم المجاني التي تلقيتها في نهار ذلك اليوم وفقرة شراء الخوذة تلك لا تتجاوز الساعات الأربع. فقد أنهيت شغلي ذلك اليوم وأنا ما زلتُ أقبُّ الموضوع في رأسي، وإن زاد عليّ حماسة التجربة التي خضتها قبل ساعات. هكذا وجدني أدير مقود السيارة أوتوماتيكيًا لأنطلق إلى (مصر الجديدة) بدلًا من العودة إلى المنزل.

اخترت خوذة بيضاء لامعة، ذات تصميم يطلق عليه (نصف وجه). ثم ارتأيت أن أسأل صاحب المحل عن طراز معين من السكوتر، وقع عليه اختياري بعد قيامي ببحث سريع على الإنترنت. وبسؤال الأصدقاء عن أفضل الأنواع المناسبة لميزانيتي، وإن كان السبب الرئيسي لاختياري له هو شكله الكلاسيكي المميز المشابه لـ(القيسبا) الإيطالية الأصلية.

أخبرني الرجل بأن هذه النوعية بالذات قد نفدت، وأن الدفعة الجديدة منها سوف تصل إلى مصر في غضون ثلاثة أسابيع. أصبثُ بشيء من الإحباط وعزمتُ على البحث عن ذلك السكوتر في معارض أخرى في الأيام المقبلة، وهممت بالرحيل. ولكنني لمحتته يقف بالخارج أمام المحل. كان مميّزًا بلونه الأحمر القاني وسط عدد من السكوترات البيضاء والرمادية. كيف لم ألاحظه عند دخولي؟!

أشرت إليه وسألت الرجل: «طب وده؟ هل هو متاح للبيع؟» فأخبرني بأنه كذلك، ولكنه مستعمل، ثم منحني المزيد من التفاصيل: «ده يا ستي عامل 900 كم، صاحبتة بنت زيك برضو، ما ركبتوش غير كام مرة، ولسه حتى ما اترخصش». توجهتُ إليه مباشرة وأخذتُ أدور حوله بينما القرار يدور في الاتجاه الموازي له تمامًا داخل رأسي.

لم يستغرق الأمر سوى ثلث الساعة، تخللتها مكالمة قصيرة مع أحد الأصدقاء الذين يفهمون في مثل هذه الأشياء لأسأله عن رأيه في مواصفات السكوتر، وكانما رأيه سيئيني عما اختمر في الرأس وأزكمت رائحته أنف السماء! عشرون دقيقة فقط لا غير، كانت كافية لأتخذ القرار الذي غير شكل حياتي إلى الأبد، وهو تصريح لا يحمل أدنى صيغة مبالغة أو ابتذال. عشرون دقيقة فقط لا غير، كانت كافية لأحمل في جيبى عقد بيع يثبت أن المدعوة (شيرين عادل) تمتلك سكوتر من طراز SYM Fiddle II فئة 150 سي سي أحمر اللون، وقد دفعت مقابله ستة آلاف جنيهه فقط لا غير.

بعد تلك الدقائق العشرين صرْتُ أمتلك سكوتر. والآن ماذا أفعل؟ سألني صاحب المحل سؤالاً وجيهاً جداً: «أنت بتعرفي تسوقي؟» مما أفضى بنا إلى هذا الحوار الشيق:

• «بُص حضرتك، في الحقيقة أنا أول مرة أسوق سكوتر في حياتي كان من أربع ساعات بالضبط». (أقولها مع ابتسامة عريضة بلهاء، وهالة من البراءة تطفو فوق رأسي)!

• «طيب خلاص، اطلعي بالعربية وهبعت وراك واحد من عندي يوصلهوك لحد البيت». (يقولها الرجل بنبرة قلق)!

- «لا، مفيش مشكلة، أنا هسوقه وهبقى أرجع آخذ العربية». (أقولها بنفس الابتسامة والهالة الطافية).
- «تسوقيه إيه؟! مينفعش طبعًا». (يقولها وقد تحولت نبرة القلق إلى هلع صريح، وقد أمسك لسانه عن سؤالي: «أنتِ مجنونة؟!«).
- «لا، عادي، ما تقلقش. أنا هعرف أسوقه إن شاء الله مفيش مشكلة».

إزاء مماثلة الرجل، ونظرات هلهه التي صارت تزداد اتساعًا لتتناسب طردبًا مع لهجة الإصرار المتعالية في صوتي، اختفت الابتسامة البلهاء، وذهبت هالة البراءة أدراج الرياح، وحلّت محلها نظرة متوعّدة شريرة وبدأت نبرات صوتي تتحوّل إلى مشروع بلطجي لسان حاله يقول: «قصر يا برنس عشان نعدي الليلة! أنا دماغي جزمة قديمة تقفيل إيطالي فاخر وهروح بالسكوتر النهارده يعني هروح بالسكوتر النهارده. ولو طلبت هنيمه في حضني في السرير كمان.. كلمة كمان وهكسر لك المحل ده!».

إزاء هذا الإصرار الطفولي العنيد، لم يملك الرجل المسكين من أمره شيئًا سوى إلقاء وابل من التحذيرات والتوصيات المختلفة على مسامعي، وتركني أنطلق أمامه، بينما وقف هو على باب المحل بجوار أحد العمّال، يشيعاني بنظرات قلقة متوترة في مشهد درامي يليق بفيلم (ذهب مع الرياح).

كيف وصلت من حي (مصر الجديدة) إلى جراج البيت بـ(مدينة نصر) في تلك الليلة؟ لذلك قصة أخرى.

في تلك الليلة الميمونة، أدركت أخيرًا معنى تعبير أدبي فصيح، طالما قرأته في قصص الرعب العربية أو المترجمة إلى العربية ولم أفهم معناه، حتى كانت تلك اللحظة التي قُذت فيها (السكوتر) بمفردي للمرة الأولى، وسط السيارات المسرعة. هذا التعبير الأدبي البليغ هو (ارتعدت فرائصه). ورغم أنني ما زلتُ لا أفهم تمامًا ما هو موقع تلك (الفرائص) من جسد الإنسان بوجه عام، إلا أنني لا أشك مطلقًا أن فرائصي، وشعر رأسي، وكل خلية في جسدي كذلك، قد ارتعدت في تلك الليلة

المثيرة، مع محاولاتي الخرقاء المتخبطة للمرور بين السيارات، يكاد جسدها المعدني يحتك في لحم جسدي، ويرتعش بدني فلا أعرف إن كان يهتز خوفًا أم بردًا إثر لفحات الهواء المتتالية التي يُحدثها تفريغ ضغط الهواء نتيجة مرور السيارات المسرعة بجواري.

أول يوم في (كي جي 1) السكوتر لا يفرق كثيرًا عن أول يوم (كي جي 1) في المدرسة. نفس الإحساس المقيت أنك طفل وحيد ضعيف وسط غابة من العمالقة. أنت وحدك في مواجهة العالم. أنت (نوح) وعليك أن تقود مركبتك إلى برّ الأمان عبر طوفان متلاطم الأمواج من السيارات والناقلات والماكينات والبشر. عليك أن تُردّد لنفسك طوال الوقت «أنت بخير، لن يحدث لك شيء. إن الأمر أسهل من ركوب الدراجة الهوائية، وأنت تركب الدراجة الهوائية منذ أن كان عمرك سبع سنوات. هيا، لا تكن جبانًا» وأنت تحاول أن تتناسى حقيقة أن عمرك لم يُعد 7 سنوات، وإن ثقل وزنك وحده كفيل بجعل سقوطك مدويًا، فما بالك باحتمالية سقوطك إثر تصادم عنيف مع هيكل حديدي عملاق مثل هيكل سيارة؟

ولكن تلك المغامرة الليلية مرّت بسلام ولله الحمد. ونجحت بمعجزة ما في الوصول بالسكوتر سليمًا معافى حتى باب الجراج. كنت لا أملك خطة واضحة للأيام المقبلة، ولكنني أعلم تمامًا بعد هذه التجربة المروعة من الخوض العشوائي في المرور هذه الليلة أنه من المستحيل أن أقود هذه الآلة المميّنة خارج نطاق الحي إلى أن أتقن قيادتها بشكل تام. هكذا قضيت الأيام التالية متبعة برنامج صارم من التدريب اليومي على القيادة. في كل صباح، أحمل خوذتي وأنطلق على السكوتر إلى مقر عملي القريب. المسافة قصيرة، أقطعها في مُدّة زمنية لا تتعدى عشر دقائق، ولكنني كنت تدريجيًا أخترع المشاوير المختلفة لأطيل من فترة قيادتي للسكوتر، فتارة أتخذ طريقًا أطول إلى مقر عملي، وربما درت دورتين حول المنطقة قبل أن أتوقف عنده، وتارة أخرى أذهب إلى سوبر ماركت بعيد لأشتري بعض مستلزمات المنزل وهكذا. مع الوقت، ازدادت مشاويري وجولاتي لتشمل أنحاء القاهرة كلها تقريبًا، صرت أنا

والسكوتر لا نفترق أبدًا. أسميته (فريسكا)، نسبة إلى جملة كانت تتردد في أحد الإعلانات التلفزيونية عن نوع من أنواع الحلوى، وهي (فريسكا.. اندهشا!)، ولما كنت أقابل بنظرات الإندهاش أينما ذهبت، كفتاة تقود السكوتر في شوارع القاهرة، على ندرة هذا المشهد في تلك الفترة، فقد بدا الاسم مناسبًا تمامًا!

مرّت الأيام، وتحوّلت قيادة السكوتر من مجرد وسيلة للمواصلات تساعدني في التغلب على زحام (القاهرة) الخانق، إلى شغف ومُتعة حقيقية، لا سيما حين انتقلت بعد أقل من عالم إلى عالم أوسع من الدراجات النارية الأكبر حجمًا وأعلى أداءً، فاشتريت موتوسيكل طراز (هوندا ماجنا)، فئة 750 سي سي. كان عتيقًا، من إنتاج عام 1993، يدور مرة ويعطب مرات، أسايسُه كطفل صغير حتى يرضى ويزمجر بموتوره استعدادًا للانطلاق، أو يعند كطفل صغير أيضًا، فيصدر حشرجة خافتة مُعلنًا رفضه التام أن يتحرك قيد أنملة. ولكنني أحببت كثيرًا ذلك الشقي، وأطلقت عليه اسمًا يليق بتصرفاته الطفولية الحمقاء: (عاصي).

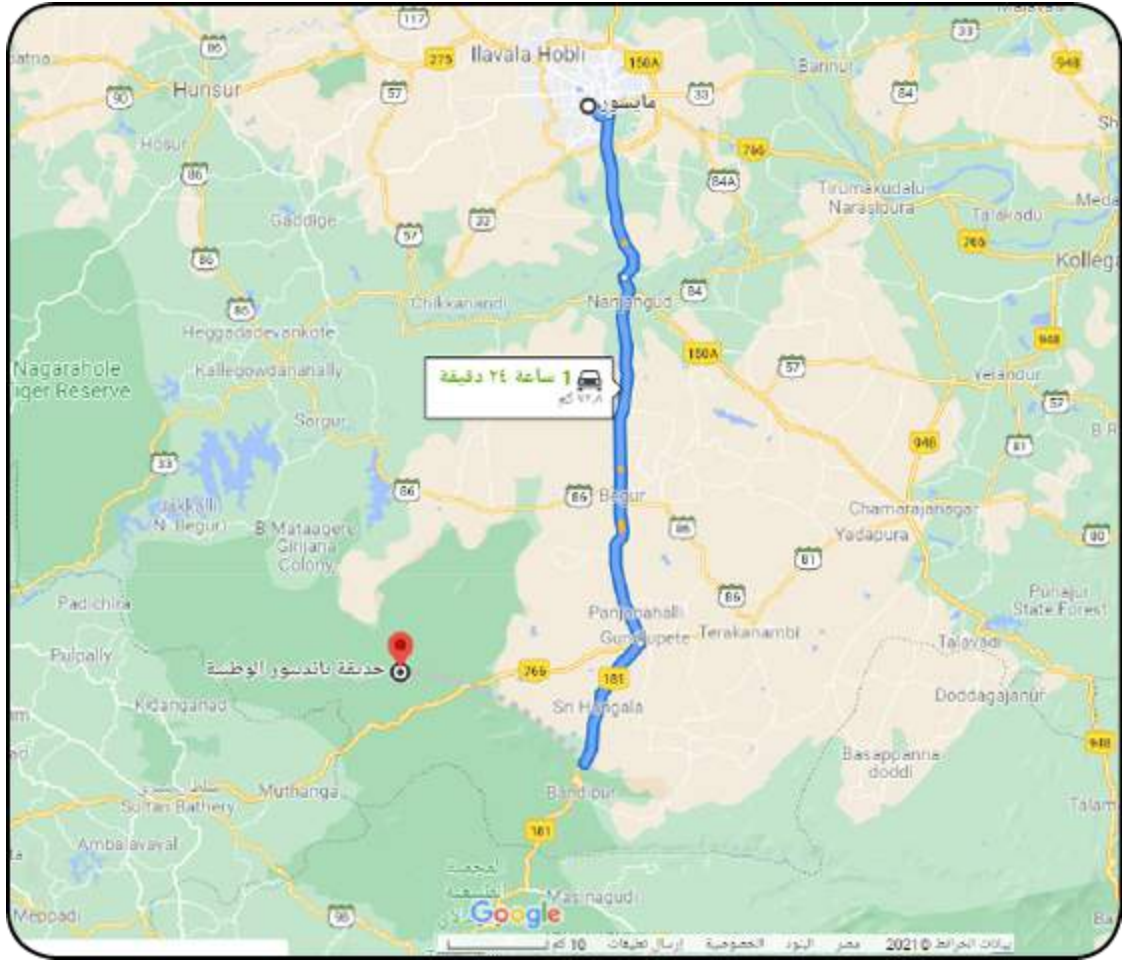
ومن بعد (عاصي) توالى الموتوسيكلات. فجاء (موري)، السكوتر الأزرق البهي الطلة، من طراز (كيمكو چي-دينك) فئة 250 سي سي، الذي رافقني في رحلة لا تُنسى إلى آخر نقطة في حدود مصر الجنوبية الشرقية وصولًا إلى بلدة (الشلاتين) المطلة على البحر الأحمر. ثم (هاريس)، المتأنق كفتى أمريكي أشقر مفتول العضلات، من طراز (هوندا VTX) فئة 1300 سي سي، والذي رافقني في رحلات كثيرة حول مصر كله على مدار ست سنوات كاملة. ولفترة قصيرة استضفت في حوذتي (دييجو)، الذي بدا لي من النظرة الأولى حاد الطباع، خشن المظهر، مما شبهه عليّ بشخصية النمر ذي النابيين الطويلين في فيلم الرسوم المتحركة الشهير (آيس أيدج)، وكان من طراز (هوندا قاريديرو) فئة 1000 سي سي، وقد رافقني في رحلة واحدة إلى (مرسى علم) في أواخر عام 2016. هذه هي سيرتي الذاتية في عالم الموتوسيكلات حتى اليوم باختصار شديد.

باندبيور - ديسمبر 2019

هبط الظلام وساد السكون، فبدأت أصوات الطبيعة تعلن نفسها في وضوح. صوت رتيب لصرصور حقل، نقيق ضفادع، زقزقة طيور ليلية ما. بدأ النعاس يغزو عيني من جديد مع شرودي في تلك الأصوات البعيدة. ربما غفوت بالفعل للحظات، قبل أن توقظني مرة أخرى أصوات موسيقى صاحبة تصدح بالخارج. أغنيات هندية قديمة بدت وكأنها تصدر عن مذياع قديم. للوهلة الأولى ظننت أن (كريشنا) يجلس بالخارج ويتسلى بالاستماع إلى المذياع، ولكنني سرعان ما أدركت أن الصوت صادر عن مكبرات صوت في إحدى القرى القريبة!

جافاني النوم مع تلك الأصوات المزعجة، فخرجت مرة أخرى إلى الصالة، وألقيت نظرة لا مبالية على البرص الذي لم يتحرك قيد أنملة منذ رأيتته في المرة السابقة. لا أكثرث لأمره حقًا طالما التزم حدود الأدب وحدود المكان فلم يتناول بالدخول إلى عرفة نومي! يذكرني هذا الأشهب كثيرًا بـ(شوكت)، صديقي البرص المصري الذي كان يزورني كل ليلة في نفس الميعاد تقريبًا، ليقف على الباب المصنوع من السلك للبلكونة في منزلي القديم بالقاهرة. بسبب (شوكت) هذا كنت قد كونت قناعة شخصية أن الجلوس في صحبة الأبراص، كونها كائنات قليلة الحركة، تصبر على الوقوف في أماكنها لساعات دون تملل أو زهق، هي أفضل معين على النوم للشخصيات مفرطة الحركة مثلي. هكذا دخلت إلى المطبخ فصنعت لنفسني كوبًا من الشاي الهندي (أي الشاي باللبن كما تعلمنا)، وأخذت قطعة من خبز (التشاباتي) ثم عدت لأجلس في الصالة، أستكمل قراءة الكتاب بينما أراقب بطرف عيني بين الفينة والأخرى، البرص الملطوع على الحائط حتى غلبنى النوم أخيرًا، فعدت إلى غرفتي ونمت في عمق حتى الصباح!

# خريطة اليوم



## من ألبوم الصور



بيت المزرعة في (بانديبور)



في محمية النمر في (بانديبور)



بين (مايسور) و (بانديپور)



## رحلة السفاري في محمية النمر



بيت المزرعة في (بانديبور)

# مزرعة القهوة

باندبور - ديسمبر 2019

حين استيقظت في السادسة صباحًا كانت الغرفة ما زالت مُظلمة، وتطلب الأمر نصف ساعة حتى بدأت أشعة الضوء تغزو أرجاء المكان لتبدد برودة الصباح وتحررني من عُزلي الاختيارية داخل البيت خوفًا مع عتمة الليل بالخارج. فتحت باب الغرفة فكانت أنوار الصالة ما زالت مُضاءة كما تركتها، وإن كان البرص إياه قد اختفى من مكانه، الله أعلم إلى أين ولكنه أمر لا يشغلني الآن. صنعت لنفسني كوبًا من الشاي - هذه المرة شاي صباحي دون حليب على الطريقة المصرية، فاحتسيته مع بقية خبز (التشاباتي) من الليلة الماضية، وبعض البسكويت المتبقي من زيارتي الوحيدة للسوبرماركت في (بانجلور). أحمد الله سرًا على تلك الأطعمة المجففة السريعة؛ فهي زادي الوحيد على الطريق هنا في بلاد التوابل الحارة.

انشغلت في الساعة التالية بللمة متاعي وتجهيز نفسي للرحلة التالية، وخرجت لتجهيز (الشاه كابور) كذلك، إلى أن ظهرت (مينا) فجأة في صُحبة سيدة كبيرة في السن، فألقت كل منهما تحية مقتضبة ثم توجهتا مباشرة إلى المطبخ لتحضير الإفطار.

في الثامنة كنت قد انتهيت من تناول إفطار سريع من البيض المسلوق والخبز الطازج، وشكرت (مينا) والسيدة العجوز بكثير من الإماءات والانحناءات وهزات الرأس المعبرة، ثم انطلقت للمرة الرابعة خلال أقل من 24 ساعة على طريق الجبل الذي أصبح فجأة مألوفًا كالطريق بين بيتي ومقر عملي. هذه المرة أتمهل كثيرًا، وأتوقف عدة مرات لالتقاط الصور، مرة لتصوير تجمهر كبير من الغزلان ترعى على بُعد خطوات قليلة من الطريق، ومرة أخرى لتصوير لقاء اجتماعي لطيف بين مجموعة من القرود ومجموعة من الخنازير البرية، ثم توقفت مرة أخيرة بالقرب من فيل يقف في هدوء على بعد 40 مترًا من الطريق، ونجحت

في تصويره في عجلة قبل أن يتحرك مبتعدًا وكأنما استشعر وجودي رغم محاولتي  
للتسلل في خفوت بعد أن أطفأت الموتوسيكل لمنع صوته من إزعاجه!

كانت سعادتي لا تُوصف بوجودي بالقرب من تلك الحيوانات وتمكّني من رؤيتها رأي العين  
في بيئتها الطبيعية، فالحيوانات التي رأيتها في تلك المحمية كان بها الكثير من الجمال  
والهيبة والانطلاق، بعكس أخواتها من الحيوانات أسيرة أسوار الحدائق العامة أو الخاصة  
أو حلبات السيرك والتي لا يظهر على محياها سوى البؤس والانكسار والألم. لهذا السبب  
كنت قد امتنعت منذ سنوات عن زيارة أي نوع من تلك المتنزهات، سواء سيرك أو حدائق  
حيوان أو أي مؤسسة أخرى تسيء معاملة الحيوانات بالحبس والتدريبات الشاقة، ناهيك  
عن انتزاعهم في المقام الأول من بيئتهم الواسعة التي خلقها الله فيها ولها وحبسهم في  
أقفاص حديدية محدودة المساحة، وما إلى ذلك من فظائع ترتكب حول العالم من أجل  
عروض ترفيهية يضحك لها بعض الأطفال وذويهم!

وصلت إلى حدود (باندبيور) نحو الثامنة والنصف، وسرّث في الطريق تجاه (مايسور)  
نحو نصف ساعة أخرى قبل أن أنحرف مع (الشاه كابور) في طريق فرعي يحمل لافتة  
باسم بلدة (بيجور) Begur. كان الطريق ضيقًا، بالكاد يتسع لمرور سيارتين متقابلتين،  
ومما زاده ضيقًا مروره بين البيوت والقرى الصغيرة كل بضعة كيلومترات، وازدحامه  
بسيارات النقل الصغيرة المحملة بالخضراوات والفاكهة، مع الحركة المتزايدة للفلاحين  
وهم يسوقون بهائمهم ودرّاجاتهم الهوائية على طرفي الطريق.

بعد بضعة كيلومترات هدأت من سرعتي إلى أقل درجة ممكنة وأنا أحاول تبين معالم  
الطريق الذي اختفى فجأة تحت أكوام من التّبن الأصفر! في حذر شق (الشاه كابور)  
عجلاته فوق الأعواد الطرية إلى أن ظهر الأسفلت مرة أخرى بعد عدّة أمتار. تكرر المشهد  
عدة مرات على مسار عشرات من الكيلومترات التالية. والرائحة! يالرائحة! تعطر الجو من  
حولي في حلاوة لم أتخيل وجودها في بقايا وجذور النباتات التي اختصها البشر بشكل  
حصري لإطعام الدواب. في بعض الأحيان، كنت أرى الفلاحين رأي العين وهم يوزعون

التبن على ساحة الطريق، قبل أن أمُرَّ من فوقه بثوانٍ. أحيانًا ترتفع الأكوام مكونة ما يشبه مطبًا عاليًا، ولكنه هش للغاية، تشقه عجلات (الشاه كابور) كسكين يمر في غيمة من حلوى (غزل البنات). وأحيانًا أخرى تكون الأكوام مسطحة تمامًا وقد تكفلت المركبات المارة من فوقها بمساواتها بالطريق. أظن أن هذا هو عين المطلوب، فالفلاحون يضعونها هناك لضغطها بطريقة بدائية وعملية في ذات الوقت، لا تحتاج إلى مجهود أو معدات، هكذا يسهل نقلها وتخزينها.

بعد مسيرة حوالي ساعة ونصف أو يزيد، مررت فيها بعدد لا حصر له من المزارع والقرى والمدارس والمصانع والبيوت، وصلت أخيرًا مع ظهور اسم بلدة (هونسور) Hunsur على إحدى اللافتات إلى طريق سريع يتكون من ثلاث حارات في كل من الاتجاهين، تحده غابات كثيفة من الأشجار متفاوتة الأطوال والأنواع. كان الطريق 275، الذي يصل بين مدن ولاية (كارناتاكا) الكبرى، ومنها مدينتا (بانجلور) و(مايسور) اللتان زرتهما في الأيام السابقة، يمتد أمامي على الخريطة مخترقًا الحد الشرقي لما يعرف باسم (الغاتس الغربية) Western Ghats، أو ما يُعرف كذلك باسم (منحدر الهند العظيم) India's Great Escarpment.

كورج - ديسمبر 2019

في أثناء التخطيط لرحلتي إلى الهند، كان لكلمتي Western Ghats وقع السحر على مسامعي. وكلما قرأت عنها ازددت رهبةً ورغبةً في رؤيتها؛ فهي سلسلة عظيمة من الجبال تمتد على طول الساحل الغربي للهند، لتغطي مساحة شاسعة، تقارب 160 ألف كيلومتر مربع دفعة واحدة؛ أي أنها تفوق مساحة بعض الدول المجاورة للهند نفسها مثل (بنجلاديش) و(نيبال)؛ أما ما تحتويه هذه المنطقة فهو السحر بعينه. يكفي أن بها ما يقارب الأربعين من المواقع التي صنفتها منظمة (اليونيسكو) عام 2012 كونها مواقع تراث عالمي. منها حدائق قومية ومحميات طبيعية للحياة البرية وغابات، تضم أكثر من تسعة آلاف نوع من النباتات، وخمسمئة فصيلة من الطيور، وستة آلاف فصيلة من

الحشرات، إلى جانب الحيوانات والأسماك والزواحف المختلفة. من كل هؤلاء يوجد ما يزيد عن ثلاثمئة فصيلة نادرة مهددة بالانقراض حول العالم. دفع هذا التنوع البيولوجي الفريد من نوعه العلماء إلى تصنيف الـ(غاتس الغربية) كونها واحدة من بؤر التنوع الحيوي العشر في العالم، وتسمى **Biological Diversity Hotspots**، وهي تلك المناطق الجغرافية التي تتميز بمستويات كبيرة من التنوع الحيوي والتي تعدُّ مُهدَّدة بسبب الاستيطان البشري.

لكم أن تتخيلوا سعادتي حين لامست عجلات (الشاه كابور) أرض (كورج)، أو (كوداجو) كما تُعرف اليوم محلياً، وهي المقاطعة المميزة في ولاية (كارناتاكا) الكبرى بجنوب الهند، التي سماها الإنجليز (إسكتلندا) الهند من فرط جمالها وغناها بالتلال والوديان الخضراء الممتدة على طول مساحتها. احتفالاً بهذا الحدث قررت التوقف للحصول على قسط من الراحة والطعام، فقد كان الـ **GPS** يشير إلى تبقي أكثر من ساعتين قبل وصولي إلى وجهتي.

توقفت على جانب الطريق، فحللتُ الأربطة من فوق الحقيبة الصغرى التي ما زالت تحمل بعض الأطعمة المجففة منذ ثلاثة أيام. أخذت أمضغ اللقيمات في صمت وأنا أتسلَّى بمراجعة خطة تحركاتي في الأيام القليلة المقبلة التي احتفظ بها على هاتفي المحمول. كان قد مضى خمسة أيام على وصولي إلى الهند، ولكن الأيام المقبلة تحمل لي الجزء الأكثر إثارة من الرحلة، أو هكذا أتمنى، بخروجي من المدن الكبرى ووصولي إلى منطقة الـ(غاتس) الشهيرة والساحل الغربي للبلاد بما يعرف عنه من شواطئ خلابة.

فجأة انشقت الأرض عن رجل متوسط البنية، تتنافس ملابسه البالية مع وجهه، الذي كادت ملامحه تختفي تماماً وراء لحية كثيفة، أيهما أكثر أنسأخاً وسواداً. ظهر أمامي فجأة من بين الزراعات المتاخمة للطريق، وتوقف أمامي ماداً راحته ذات الأظافر الطويلة المتسخة مفرودة أمام وجهه في صمت مُثير للرب. لقد قابلت الكثير من الشحاذين في رحلتي السابقة إلى الهند، فهم تحت كل حجر وخلف كل زاوية في العاصمة (دهلي) والمدن

الكبرى، لا سيما في المناطق التي تعج بالسياح. ففي بلاد تتخطى نسبة الفقر فيها الـ 28%؛ أي ما يزيد على ثلاثمئة وخمسين مليون نسمة يعيشون تحت خط الفقر، تحولت الشحاذة إلى ضرورة معيشية للبعض، وأحيانًا إلى مهنة وكار بالنسبة لعدد غير قليل منهم، يتعدى النصف مليون على الأقل بحسب آخر الإحصائيات. صارت الشحاذة مشكلة حقيقة في الهند باعتراف الهنود أنفسهم، وهي تتفاقم سنة عن سنة، ويصاحبها بطبيعة الحال عدد كبير من الجرائم، مثل خطف الأطفال والاتجار في البشر، بينما أصاب بعض هؤلاء ثروة حقيقية، فممنهم من يصل دخلهم من ممارسة الشحاذة في الطرقات إلى 1500 روبية يوميًا، بواقع دخل شهري يتعدى الستة آلاف جنيهاً مصرياً، وهو ما يعادل دخل موظف بنك مبتدئ في مصر أو يزيد!

نعود إلى الرجل المتسخ المتسمر أمامي بلا جِراك. لم ينطق ببنت شفة، أو ربما غطى صوت ضربات قلبي المرتجف على صوته بينما أصارع لإعادة ربط الحقيبة على الموتوسيكل في عُجالة قبل أن أطير من أمامه بأقصى سرعة وأنا أهرب منه ومن أفكار السوء التي تدور بشكل أساسي حول شحاذ أو مجنون أو قاتل متسلسل يرتكب جريمة قتل بحق فتاة مصرية على طريق 275 الشهير بجنوب الهند، ليسلبها متعلقاتها، قبل أن يلقي بجثتها في الزراعات القريبة!

وصلت بحلول الثانية عشرة والنصف ظهرًا إلى بلدة (كاثيري) Kaveri، وهي بلدة سياحية مزدحمة، يمر الطريق من خلالها وقد اصطفت على جانبيه الفنادق الصغيرة والمطاعم السياحية متوسطة المستوى، بينما يعج المكان بالسياح من كل شكل ولون وجنسية. توقفت للحظة لأقوم بتعديل وجهة الـ GPS، فقد قررت بما أن الوقت ما زال في الظهيرة أن أتوقف لزيارة معسكر للأفيال يقع في هذه البلدة بالتحديد، وكنت قد قرأت عنه قبل يومين. هكذا بعد بضع دقائق إلى طريق فرعي ضيق، يمر بين مزارع خاصة صغيرة، وبيوت غربية المعمار. يتلوّى الطريق صعودًا وهبوطًا لمدة نصف الساعة إلى أن أصل أخيرًا إلى ساحة كبيرة تطل على نهر (كاثيري) التي حملت البلدة اسمه.

أقوم بصف (الشاه كابور) على ضفة النهر مباشرة، بمحاذاة عدد قليل من السيارات عتيقة الطراز، ثم أتوجه إلى كشك صغير يحمل لافتة كبيرة حملت بالإنجليزية اسم (معسكر دوباري للأفيال) Dubare Elephant Camp، ولافتة أصغر تحمل أسعار التذاكر الخاصة بزيارة المكان. أتبادل حديثًا مقتضبًا مع السيدة التي تجلس في كشك التذاكر، أعرف من خلاله أن زيارة معسكر الأفيال تكون في تمام التاسعة صباحًا أو في الرابعة والنصف مساء فقط. قبل أن يصيبني الإحباط، تبادرني السيدة باقتراح مُبهج، فتشير إلى عدد من الزوارق المطاطة التي ترسو بالقرب من الكشك، وتخبرني بأن بإمكانني تجربة (الرافتينج) أو التجديف في النهر. سألتها عن إمكانية ترك متاعي عندها خوفًا من السرقة فوافقت. هكذا توجهت إلى (الشاه كابور) لأحل عنه الأمتعة وأتركها في كشك التذاكر، ثم نزلت فوق بضع درجات حجرية إلى المرفأ القريب حيث كان هناك زورق يستعد للرحيل وعلى متنه مجموعة صغيرة من الشباب الهندي، ثلاثة فتيان وثلاث فتيات في أوائل العشرينيات من العمر، انقسموا يجلسون كُلِّ مقابل الآخر على جانبي الزورق، بينما وقف شاب آخر في مقدمة الزورق، وقد بدت عليه إمارات سلطوية تؤهله ليكون حادي المركب، وهو تخمين سرعان ما تأكدت منه حين خطوت داخل الزورق فمد لي يده بستره إنقاذ زرقاء اللون ومجداف قصير ثم أشار إلي لأجلس في الطرف الأخير من الزورق، قبل أن يطلق صفيراً قصيراً معلناً استعداده للتحرك.

تحرك المركب في هدوء مُبتعدًا عن ضفة النهر، وبدأ الجميع في التجديف، ببطء وتخبُّط في البداية، ثم ما لبث الرتم أن انتظم واكتسبت حركة الزورق سرعة معقولة وهو يتوغل أكثر فأكثر في نهر (كافيري) المقدس. بالمناسبة، لو بدا وقع الاسم مألوفًا بالنسبة لك، فذلك لأنه نفس النهر الذي يقع عليه سد KRS الذي زرته قبل يومين في (مايسور)!

مرّت الدقائق ببطء. وبدأت أصوات الشباب وهم يتحدثون الهندية تبدو كمؤثرات صوتية خافتة على خلفية مشهد الغابات الكثيفة التي تطل على ضفتي النهر من حولنا. ينبض فجأة في ذهني تساؤل مرعب: هل توجد هنا تماسيح؟ أستعيد ما قرأته عن (الغاس الغربية) وفصائلها المميزة من الحيوانات والزواحف وأجد من العسير أن أستبعد التماسيح

من المشهد! ينتشلي صوت أحد الفتیان وهو يسألني في فضول: «من أين أنت؟». كنت قد تعودت على تلك المبادرات الاجتماعية الودودة، فقد وجدت الهنود في أغلبيتهم من أكثر الشعوب انفتاحًا على الآخر، وحتى الانطوائيين منهم تفضحهم عيونهم دائمًا بفضول مكبوت للتعرف إلى الغرباء. هكذا كان السؤال فاتحة حديث لأعرف فيه أنهم طلبة في كلية طب الأسنان، وقد جاءوا بالسيارة من (بانجلور) لقضاء إجازة سياحية قصيرة في (كورج).

بعد رُبَّع ساعة من التجديف المتواصل، يقرر حادي المركب فجأة أن يدور بنا دورة كاملة ليحاذي الضفة المقابلة من النهر استعدادًا للرجوع مرة أخرى إلى ساحة الزوار، ولكنه يتوقّف بعد مسافة بسيطة، ويتبادل بعض الكلمات مع الركاب، باللغة الهندية بالطبع، وهو يشير بيده إلى المياه. تعالت صيحات الشباب مع قيام أحدهم من مكانه ليقف على طرف المركب استعدادًا للقفز عن حافته!

تقفز في ذهني فجأة كل مشاهد التهام البشر أحياء التي مرّت عليّ في أفلام يجب أن يُحاكم صانعوها بتهمة التسبب في صدمات نفسية طويلة الأمد، مثل (الفك المفترس)، و(أناكوندا) و(بيرانا) و(بحيرة بلاسيد)، بينما أتابع الفتى في زعر وهو يغوص في المياه الخضراء الداكنة للنهر. يغيب؛ ثوانٍ تمر كدقائق طويلة قبل أن تطفو رأسه مرة أخرى فوق سطح الماء وهو يصيح في رفاقه مشيرًا إليهم بالنزول معه. ولكن يبدو أن الصدمات النفسية لأفلام هوليوود كانت عابرة للقارات والأجيال كذلك، فامتنع الجميع عن النزول، ولولا جهلي التام باللغة الهندية لأقسمت أنهم يكررون كلمة (تمساح) مرارًا وتكرارًا الآن!

ربع ساعة أخرى من التجديف، هذه المرة بمجهود أكبر إذ تُبجر عكس التيار، ثم يرسو الزورق سالمًا، وجميع أفراد طاقمه يتمتعون بأطرافهم كاملة، عند ساحة استقبال المعسكر مرة أخرى. يتفرق الجمع وألتقط متاعي من كسك التذاكر ثم أعود أنا و(الشاه كابور) مرة أخرى من حيث أتينا، إلى بلدة (كافيري)، ومنها استكمل الطرق إلى المدينة المركزية لإقليم (كورج)، إلى (ماديكيري)!

من بعد (كافيري) يبدأ الطريق في التلوي فوق التلال الخضراء، بينما تختفي جنبات الطريق وراء أسوار طبيعية من أشجار القهوة والجوز. مرحي، لقد صرث في قلب (الغاس الغربية) عن حق! من بين الأشجار الباسقة، وكنت قد جاوزت لتوي لافتة تشير إلى تبقي 20 كم حتى مدينة (ماديكيري)، تطل لافتة أخرى تحمل اسم الفندق الذي حجزت فيه إقامتي. فشلت في العثور على مضيف هنا عن طريق (الكاوتش سيرفينج)، والسبب في ذلك يعود غالبًا إلى وجود نوع من الفنادق هنا يسمى (هوم ستاي) أو الإقامة بمنزل عائلة، والتي تكون في الغالب مزرعة من مزارع القهوة، وهي طريقة للإقامة تبدو من الوصف مطابقة تمامًا لفكرة (الكاوتش سيرفينج)، وإن كان الفارق الوحيد هو أنك في ال(هوم ستاي) تدفع المال مقابل إقامتك وطعامك.

اتبعت اللافتة إلى ممر ترابي ضيق على يمين الطريق، وبينما أنا أتحسس طريقي بحذر على الأرض غير الممهدة، قابلني شاب على سكوتر أبيض حديث الطراز، وبادرني متسائلًا: (بوكينج؟)، وهو الموقع الذي حجزت غرفة الفندق عن طريقه، فأومأت برأسي من تحت الخوذة أن نعم، فأشار إلي بأن أتبعه ودار بالسكوتر دورة كاملة ليسبقني إلى ساحة صغيرة على بُعد بضعة أمتار، نُصبت لديها لافتة تحمل كلمة (باركينج).

ماديكيري - ديسمبر 2019

هدأ موتور (الشاه كابور) أخيرًا بعد يوم شاق، استغرق أكثر من خمس ساعات من القيادة. ساعدني الشاب الذي عرفني باسمه (ساجار) في حل أربطة الحقائب ثم حملها جميعًا وأشار إلي بأن أتبعه. التفت حولي، يمينًا ويسارًا، لا يوجد شيء سوى أشجار باسقة، كنت في قلب مزرعة للقهوة! يختفي (ساجار) من أمامي فأهرول وراءه لأجد سلسلة من الدرجات حجرية، موزعة بغير انتظام على جانب منحدر حاد، يفضي بنا إلى وادٍ فسيح، تحتله الأشجار والنباتات الكثيفة حتى لا تكاد ترى موقعًا لقدم. على بُعد عدة أمتار من حدود المزرعة الشرقية تصطف مجموعة من الحجرات الخشبية ذات لون أحمر قرميدي. يتوجه (ساجار) في خفة ونشاط يحسد عليهما إلى سلم حديدي يلتف حول الحجرة

الأخيرة في الصف، ليقودني إلى دور علوي من حجرات مماثلة، وإن تميزت بشرفة فسيحة تطل على الغابة مباشرة. فتح (ساجار) باب الحجرة الأولى وترك متاعي بالداخل وخرج مهرولاً إلى الأسفل مُفسحاً لي الطريق لدخول الغرفة دون كلمة أخرى.

دلفت إلى الحجرة، كانت بسيطة ومُرْتَبَّة، أرضيتها الخشبية تئنُّ تحت وقع خطواتي، يتصدرها سرير كبير، تجاوره طاولة صغيرة، بينما يقف دولا ب كبير في طرفها الأيمن، مواجهًا بابًا صغيرًا يختفي خلفه حمام صغير نظيف. هممتُ بتغيير ملابسي والتوجه إلى الحمام قبل أن أتوقف فجأة لألقي نظرة على الحائط المقابل للسرير، لأكتشف أن ما حسبته جدارًا للوهلة الأولى ما هو إلا ستار أبيض شفاف يكشف أكثر مما يخفي، ومن ورائه كانت واجهة الغرفة بالكامل مصنوعة من الزجاج. سأنام اليوم خلف نافذة زجاجية في قلب غابة من الأشجار الاستوائية! مرحى!

ربما كانت سذاجة مني، ولكنني طالما تخيلت أن نبات القهوة يحمل رائحة القهوة المنبّهة للأعصاب! ولكن ها أنا ذا، أقف في قلب مزرعة كاملة لنبات القهوة، ولا أشم سوى رائحة حلوة، تكاد تذكرني برائحة قصب السكر! من المفارقات المثيرة في قصة القهوة في الهند أنها دخلت البلاد سرقة، مثلها مثل الشاي، وإن كانت السرقة هذه المرة جرت قبل وصول الشاي بقرنين من الزمان، وعلى أرض العرب دونًا عن كل بقاع الأرض.

يحكي التاريخ أنه في عام 1670، ذهب أحد الهنود، ويدعى (بابا بودان)، لأداء فريضة الحج في الأراضي الحجازية، مارًا في طريقه باليمن السعيد. وحين عاد إلى الهند، لم يكن مُحملاً ببركات الحج وروحًا متخفّفة من الذنوب فحسب، بل عاد مُحملاً بسبع بذور من القهوة كذلك. قام (بابا بودان) بتهريب تلك البذور السبع من تحت أنوف العرب، وكانت قوانينهم تمنع ذلك تمامًا، ثم عاد ليزرعها على تلال (شاندراجيري) في ولاية (كارناتاكا)، التي تقع على بُعد مئة كيلومتر تقريبًا من موقعي هذا، ليفتح بذلك أول مزرعة للقهوة في البلاد، بل وفي قارة آسيا بأكملها!

بعد استحمام سريع أزال عني تراب الرحلة الطويلة من (بانديبور)، خرجت إلى الشرفة طلبًا لبعض الهواء، فوجدت رجلًا هنديًا قصير القامة يحتل الكرسي الوحيد بالشرفة. ابتسم ابتسامة عريضة حين رأيته ثم قام ماديًا يده بالسلام وعرفني بنفسه وقال: «پرامود، صاحب المزرعة، تحت أمرك سيدتي». بعد تعارف سريع سألته إن كان هناك تغطية لشبكة محمول بالمزرعة، فقد لاحظت منذ وصولي انقطاع الإشارة عن هاتفي تمامًا. فهز (پرامود) رأسه نافيًا ومجيبًا بالإيجاب في نفس الوقت، في إجابة هندية نموذجية لم تفشل يومًا في إبهاري، وأشار إلى ناحية الطريق الرئيسي قائلاً: «ربما إن تمشيت قليلاً نحو الطريق».

رحل (پرامود)، وقررت أنا الحصول على قسط من الراحة قبل الاهتمام بالحصول على اتصال بالعالم الخارجي. هكذا أستلقي على السرير بكامل ملابسي وأتسلى بمراقبة اهتزاز قمم الأشجار المتراسة أمامي عبر زجاج الغرفة إلى أن يغلبني النعاس. أستيقظ بعد غفوة بدت قصيرة لأجد الساعة قد تعدت الرابعة عصرًا. لقد استغرقت تلك الغفوة ساعة ونصف من الزمان!

نزلت من حجرتي إلى الطريق الترابي المتاخم للمزرعة، ومنه أتسلق المنحدر الواصل إلى الطريق العمومي. أرفع يدي بالمحمول في محاولة بائسة لالتقاط أي شبكة بلا جدوى. بعد انقطاع ليلة البارحة في حضان جبل (بانديبور) النائي كان عليّ الحصول على بعض الإنترنت لأطمئن أهلي عني بأي طريقة. فجأة سمعت صوت نفير عالٍ. نظرت إلى اليسار لأجد (پرامود) يشير إليّ من وراء الزجاج الأمامي لسيارة دفع رباعي عتيقة الطراز. سألتني إن كنت قد نجحت في الحصول على إشارة محمول؟ فهزت رأسي نافيةً في أسى. دعاني للركوب وأخبرني بأن عليه الذهاب إلى المدينة لقضاء مصلحة ما، وأنه يمكنه اصطحابي إلى هناك إن شئت للحصول على إشارة أقوى.

أتسلق عتب السيارة المرتفعة، وأستقر في المقعد الأيسر المجاور لـ(پرامود). كنت قد نسيته أن السيارات هنا معكوسة، فعجلة القيادة تقع إلى اليمين. يتحرك (پرامود) بالسيارة وهو يضرب بيده على الطارة في فخر، موضحًا: «هذه سيارة ماركة ماهيندرا. 100%»

صناعة هندية». تذكرت مقولة (سانچاي) الشهيرة، (نمبر وان في الهند)، وابتسمت في سرّي. كانت السيارة نسخة طبق الأصل من نظيرتها (الجيپ) الأمريكية، وتحمل نفس اللون الخاكي المميز لذلك النوع من السيارات الذي خرج من رحم الحرب العالمية الثانية. في الواقع أن قصة السيارة (الماهيندرا) تتشابه بشكل مُريب مع قصة (الرويال إنفيلد)، فكلاهما صُنِعَ للمرة الأولى إبان الحربين العالميتين الأولى والثانية، ومن ثم حصلت شركات هندية على حقوق تصنيع كل منهما على أرض الهند، وتطور الأمر مع الزمن حتى أصبحت كل من (الماهيندرا) و(الرويال إنفيلد) علامات تجارية هندية مميزة حققت وجودًا عالميًا مثيرًا للإعجاب.

تقع مدينة (مديكيري) بالكامل فوق المرتفعات، فتبدو البيوت والبنائات البيضاء كأنسجة أسمنتية تنساب في خيوط كثيفة ملقاة بلا اكتراث فوق تلالها الخضراء. بعد نحو عشر دقائق من القيادة دار (پرامود) فجأة حول سور أثري عتيق، ومن ثم دلف بالسيارة من خلال البوابة المشرعة للمكان ثم استقر أخيرًا في قلب ساحة خاوية إلا من حشائش بالية، ومدفع حربي عظيم الحجم يحتل الجزء الشمالي منها. أطفأ (پرامود) محرك السيارة ثم التف إليّ مبتسمًا وهو يقول: «مرحبًا بك في قلعة ماديكيري الشهيرة!». هكذا، دون أي مُقدمات، قرر (پرامود) أن يصطحبني في جولة سياحية مرتجلة بالمدينة التاريخية!

كان من السهل التحدّث إلى (پرامود)، فهو ودود، مُهذَّب، مثقَّف، يتحدث الإنجليزية بطريقة يتميز بها من يعمل بالسياحة، تلك التي تنساب فيها الكلمات في سلاسة وتنوع وإن كانت أكثر الجمل تفتقر إلى قواعد النحو السليمة. لم يكن فضوليًّا كذلك، مما أراحني كثيرًا، فهو لم يسألني سؤالًا واحدًا عن نفسي منذ التقينا، وإن كان عنده فضول شديد في المقابل تجاه (مصر) وآثارها. أدركت لاحقًا أن ذلك يرجع في الغالب إلى دراسته للتاريخ، وانبهاره بالأهرامات والحضارة المصرية القديمة.

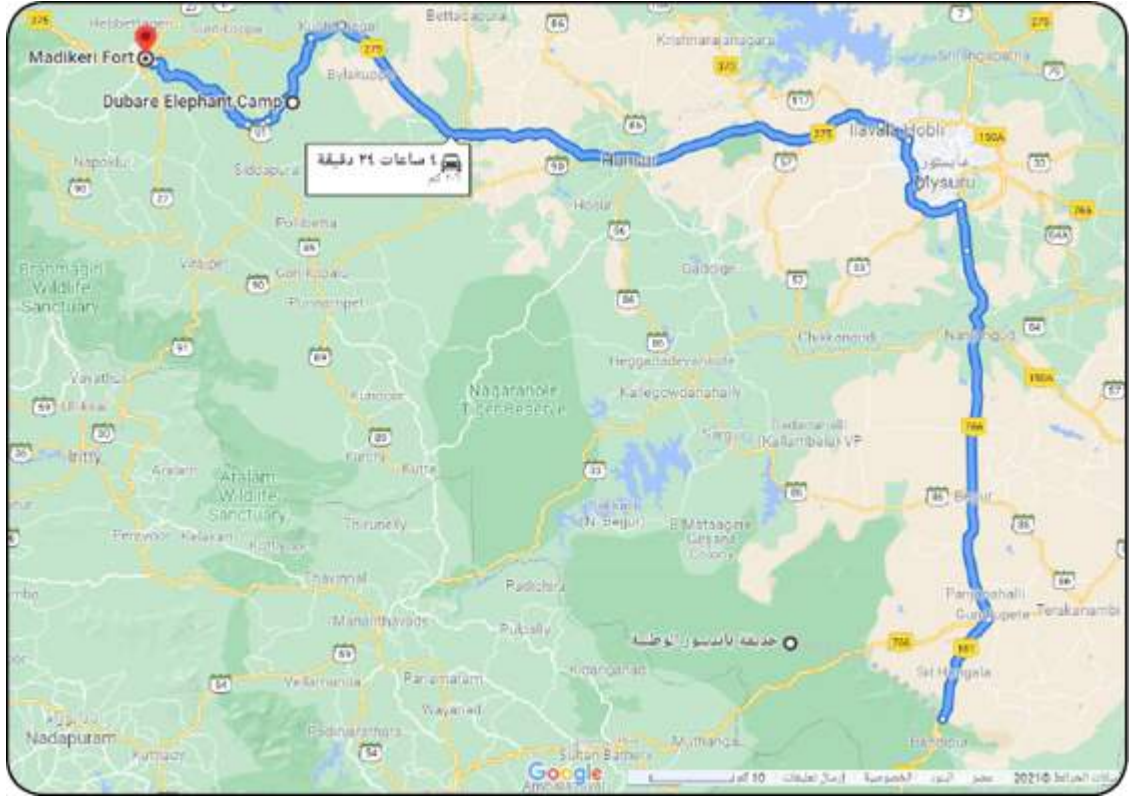
«القلعة للأسف كما ترينها، مهملة بشكل كبير». يقولها (پرامود) في أسى ونحن نتسلق السور الشرقي للقلعة. أشار بيده إلى مبنى ضخم بالجهة المقابلة، اختفى لونه الأصلي تحت

طبقات من الأتربة والسخام، وحال لون القرميد الأحمر فوق سقفه إلى لون أسود قاتم، وقال: «تخيلي أن هذا البناء كان ذات يوم قصر فخم لحاكم المملكة؟». كانت (ماديكيرى)، كما الحال مع أغلب المدن الكبرى هنا هي عاصمة لمملكة (كوداجو) أو (كورج)، حكمتها إحدى الأسر الملكية الكبرى في الهند بين القرن السادس عشر والقرن التاسع عشر، قبل الاستعمار الإنجليزي الذي انتهى بضمها إلى ولاية (كارناتاكا) كما هو الحال اليوم. كانت هذه القلعة هي مشهد النهاية في (حرب كورج) التي دارت بين القوات الإنجليزية والكورجيين، بدخول القوات الإنجليزية إلى (ماديكيرى) ورفعهم لراية الملكية البريطانية من فوق أسوار القلعة.

أشار (پرامود) إلى مبنى صغير يقع في الطرف الجنوبي الشرقي من الحديقة وقال: «ترك لنا الإنجليز كنيسة تُدعى (سان مارك)، ولكنها تحوّلت الآن، منذ استقلال الهند، إلى متحف صغير يضم بعض الأسلحة والأدوات التي تعود إلى عصر بناء القلعة وما قبل الاستعمار». انتهت جولتنا في القلعة كما بدأت فجأة. وعُدنا إلى السيارة وقد شرعت الشمس في رحلة الغروب.

في طريق العودة إلى المزرعة يتوقف (پرامود) أمام محل من سلسلة البييتزا الأمريكية الشهيرة (دومينوز بيتزا)، كالبديل الرأسمالي الغربي الوحيد عوضًا عن غياب (ماكدونالدز) عن المدينة بأكملها. كان حلاً مرضياً لي في ظل غياب أي اختيارات أخرى. هكذا طلبت بيتزا بالفراخ، وأكدّ على الموظفة ما لا يقل عن ثلاث مرات أن تخلو البييتزا من أي شطة، وهي تهز رأسها في أقصى درجات التفهم، إلى أن عدت إلى الفندق، وتناولت القطعة الأولى من البييتزا فبدأت دموعي تنساب من تلقاء نفسها! مرة أخرى أسقط في فخ الأطعمة الهندية الحارة!

# خريطة اليوم



# ألبوم الصور



في نهر كافيري



في محمية (بانديبور)



أمام غرفتي في مزرعة القهوة



بين (بانديپور) و (کورچ)



قلعة (ماديكيري)

# في ضيافة البوذا

ماديكيري - ديسمبر 2019

مَنْ كان يدري أنّ مزرعة القهوة الهادئة تلك، الغافية في حوض الوادي، كانت تحمل لي ليلة صاحبة كالتّي قضيتها بالأمس؟ بدأ الأمر في تمام الساعة العاشرة، حين بدد سكون الليل صوت شخصيات كارتونية مزعجة، تصدر من الغرفة الملاصقة لغرفتي. خمنت أن الفتاة ذات السبع سنوات، التي كانت تملأ الكون إزعاجًا في بداية الأمسية، قد رضخت أخيرًا لسلطة أبويها وجلست في الحجرة تتسلّى بمشاهدة الكارتون عوضًا عن التذمر والثرثرة، اللذين مارستهما بالتبادل وبلا هوادة طوال الساعتين الماضيتين. المشكلة الوحيدة هي أنها قررت أن تفعل ذلك مستندة إلى الجدار المجاور لرأسي تمامًا، فصارت أصوات الكارتون تدوي في أذني اليمنى مباشرة. أما الرضيع في الحجرة السفلية، فقد قرر الاستيقاظ في نفس هذا التوقيت البهيج ليملاً الكون صريحًا وبكاءً.

مرّت ساعة من الزمن تقريبًا وأنا أمارس رياضة التقلّب يمينًا ويسارًا في السرير قبل أن تستسلم عيناى أمام إرهاق اليوم الطويل فتغيب في نوم عميق برغم المؤثرات الصوتية المزعجة المحيطة بالغرفة من كل جانب. لكنني كنتُ على موعد مع أصوات أخرى أكثر إثارة للرعب من الأطفال المزعجة. كانت ساعة الهاتف المحمول قد تعدّت الرابعة صباحًا ببضع دقائق حين استيقظت مفزوعة على صوت نقرات حادّة فوق سقف الحجرة. استغرقت جزءًا من الثانية لأتذكر أين أنا، ثم ثواني أخرى لأتبين إن كان مصدر الصوت من داخل أو خارج الغرفة. النقر يزداد، تصاحبه حركة جسم ثقيل فوق سطح الغرفة. كان الصوت يوحى بكائن في حجم أرنب أو قِط. ولكن ما الذي يفعله أرنب فوق غرفتي بهذه الساعة؟ على قدر علمي أن الأرانب لا تعتلي الأسطح، ما لم تكن أرانب الهند من النوع الطائر! ربما كان كائنًا أكثر مرونة؟ قردًا أو قطة أو سنجابًا مثلاً؟

قررت تجاهل الأمر، ما دام هذا الحيوان -أيًا ما كان- خارج الغرفة لا داخلها. حاولت العودة إلى النوم مرة أخرى، ولكن هذا الخيار بدا شبه مستحيل مع الأصوات الصادرة عن هذا الكائن المصاب بفرط الحركة الليلية. استمر الدق والنقر لمدة ربع ساعة قبل أن أتخذ قرارًا بمحاربته بنفس سلاحه؛ الإزعاج. هكذا تناولت عصا (السيلفي) الطويلة الخاصة بالكاميرا، ورفعتها فوق رأسي لأطرق بها سقف الغرفة في عنف. توقف الصوت فجأة، ثم سمعت صوت هرولة سريعة تتجه نحو سقف الحمام. تبعته إلى هناك ثم كررت الدق فوق سقف الحمام بصورة متتالية، فتكررت الهرولة في اتجاهات متخبطة إلى أن سمعت صوت قفزة استقرت فوق الغرفة المجاورة لي. لقد رحل الكائن المزعج حتى يزعج الفتاة المزعجة ذات السبعة أعوام! ها هي عدالة السماء تنزل فوق سقف الغرفة المجاورة!

صحت في السابعة، رغم قلة النوم والليلة التعيسة التي قضيتها بالأمس. حين قابلت (پرامود) لاحقًا أخبرته عن الكائن الليلي المزعج، فضحك ملء شذقيه وقال: «لا بد أنه فأر، فالفئران هنا في حجم الأرانب البرية!». تقززت للفكرة، وتعهدت في سري ألا أغادر الحجرة أبدًا في المساء، وألا أنام في مزرعة مرة أخرى بعد الليلة، فلتذهب التجارب المختلفة إلى الجحيم ولنقيم في فنادق عادية مُملة خالية من الفئران السمينة مفرطة الحركة.

تناولت شاي الصباح على الشرفة أمام حجرتي، مستمتعة بمشاهدة أشجار القهوة الخلابة، والطيور الملونة الساعية بينها. كان الهدوء قد عاد ليسود المكان مرة أخرى، فالجيران الأعزاء وأطفالهم نيام. سألني (ساجار) إن كنت أرغب في تناول الإفطار فأكدت عليه أن يكون خاليًا من الشطة، ولكنه كالمعتاد ضرب بكلامي عرض مزرعة القهوة بأكملها، وجاء لي بشوربة ما صفراء اللون، ملتهبة المذاق، مع خبز الـ(دوسا) الذي يشتهر به المطبخ الجنوبي الهندي. الشهادة لله كان الخبز خاليًا من الشطة، لكنه كان خاليًا كذلك من أي مذاق آخر، لا هو حلو ولا حادق، وكأنك تأكل شريحة من ورق الـ A4 الساخن!

كانت الساعة قد تعدت الثامنة صباحًا حين خرجت مع (الشاه كابور) إلى الطريق الرئيسي متجهة إلى (دوباري)، وقد اعتزمت زيارة معسكر الأفيال مرة أخرى، هذه المرة في الموعد

الصحيح: التاسعة صباحًا. كانت المسافة لا تتعدى 40 كم، لكنني قطعتها في ساعة كاملة، وذلك لأنني تهت في الشوارع الداخلية الموصلة إلى المعسكر لمدة ربع ساعة كاملة، كما سقطت بالموتوسيكل مرتين!

في المرة الأولى كنتُ قد توقفت على جانب الطريق لأراجع الـ GPS بعد أن فشلت في الوصول إلى المعسكر اعتمادًا على ذاكرة الأمس. كان جانب الطريق الترابي يقع على مستوى أقل بكثير من مستوى أسفلت الطريق؛ لذلك فحين حاولت الرجوع فوق الأسفلت كان عليّ مراعاة هذا الفارق وتوجيه العجلة الأمامية للمرور من الجانب الترابي إلى الأسفلت بزاوية 90 درجة على الأقل، ولكنني أسأت التقدير، فانقلب (الشاه كابور) إلى اليسار بينما سقطتُ أنا على ظهري إلى اليمين. من حُسن الحظ كان هناك عدد من الرجال القريبين، فهرعوا إليّ وساعدوني على النهوض وعلى استبدال الموتوسيكل.

(حُضن الأسفلت) كما يسميه الدراجون المصريون. وكما يزعمون، فإنه مهما طالت سنوات خبرتك في قيادة الدراجات النارية، لو لم تختبر (حُضن الأسفلت) على الأقل مرة واحدة في العمر فأنت لم تختبر قيادة الموتوسيكلات قط! المشكلة في (حُضن الأسفلت) هنا أنك لو لم تنهض على الفور لتعود إلى القيادة بعد سقطتك مباشرة، مع مراعاة درجة شدتها وتبعاتها بالطبع، فأنت مُعرّض لأن تتكون لديك رهبة نفسية من الموتوسيكلات قد تستمر أيامًا أو شهرًا أو حتى مدى العمر. لِحُسن الحظ كانت وقعتي تلك هيئنة، فلم أُصَبْ بخدش لا أنا ولا (الشاه كابور).

أما في المرة الثانية كنتُ أقف على منحدر شديد الوعورة، وأردت الالتفاف في الاتجاه المعاكس، ولكنني أسأت التقدير للمرة الثانية، ونظرًا لزاوية الالتفاف الحادّة سقطت مرة أخرى، هذه المرة تشبثت بـ(الشاه كابور) فسقطنا معًا في حُضن جماعي على الأسفلت. هذه المرة لم يكن هناك مخلوق حي في محيط المكان ليساعدني، ومن حُسن الحظ أن وزن (الشاه كابور) في مجال قدرتي على رفعه من الأرض. لكنني لما حاولت إدارة الموتور مرة أخرى لم يستجب. فقط تَكَّة خفيفة ثم صمّت تام! كانت هناك رائحة بنزين قوية تملأ

المكان، فخمنت أن الموتور قد اختنق بسبب دخول كمية كبيرة من البنزين إليه، نتيجة ميله المفاجئ أثناء السقوط. انتظرت بضع دقائق ثم أدركته مرة أخرى. تنفست الصعداء حين سمعت تكات الموتور تهدر من جديد بكل إزعاج محبب إلى أذني.

عند هذه النقطة كنتُ قد بدأتُ أتطيرُ من اليوم الذي لا يمر بشكل جيد على الإطلاق. في ظروف أخرى كنتُ سأعود على الفور من حيثُ أتيت وأنا أسأل الله سلامة الوصول، لكنني اخترتُ أن أتجاهل التشاؤم حتى لا أجلب على نفسي المزيد من الحوادث، واستكملت الطريق حتى وصلت إلى المعسكر أخيرًا، وقد اقتربت الساعة من التاسعة.

لافتة المعسكر المنشود تستقبلني. تحمل موعد الزيارة الصباحي، التاسعة صباحًا، وعشرون روبية ثمن الدخول، وثلاثون أخرى للمركب التي ستنقلني إلى المعسكر على الضفة الأخرى من نهر (كافيري). وقفت على الرصيف الحجري الذي يمثل مرسى المراكب العابرة بين الضفتين، وقد أحاطت بي العيون الفضولية لجمع غفير من الرجال كانوا في انتظار المركب كذلك. أحمل في يدي تذكرة ورقية، فأناولها للموظف المسئول عن تحميل الركاب. أعرفه بفضل التذاكر المقدسة في راحة يده، وزِيَّه البُنِّي المميز لأغلب موظفي الحكومة بالهند أيًا كان موقعهم. دائمًا هو البنطال البني متكسر الثنيات، والقميص الذي اكتسب درجة أغمق من لون البنطال بفضل التعرُّق. تناول مني التذكرة بغير اكتراث، ثم أشار إلي بالتقدم لاتخاذ موقعي في زورق خشبي صغير حائل اللون، بدا وكأنه سيغرق في مكانه من فرط القِدَم والحمولة الزائدة.

تهادت المركب العتيقة التي ترزح في بسالة تحت وطء حمولتها التي زادت على اثنين وعشرين فردًا، وقد ملأ محركها الكون ضجيجًا وتلوثًا دخانيًا، حتى وصلت بمعجزة ما بعد ثلاث دقائق من الإبحار إلى الضفة المقابلة من النهر. أتففس الصعداء وأنا أهبط من ذلك النعش البحري الصغير، لأخطو فوق أولى درجات الرصيف الحجري لمعسكر الأفيال، والذي ظلَّته لافتة خشبية ضخمة تتوسطها منحوتة ذهبية لرأس فيل بينما حُط عليها اسم (معسكر دوباري للأفيال). أسير خلف جموع الركاب متبعين طريقًا ترابيًّا يحدد مساره

سور خشبي قصير على كلا الجانبين، بينما تمتد مساحات خضراء واسعة على كلا الجهتين، تتوسطها أشجار عملاقة يدل حجمها وتشعب فروعها على استيطانها لهذه الأرض منذ عقود. الضباب يغلف المكان بهالة من الغموض، تماشت مع عدم إدراكي لما يجب أن أتوقعه في ذلك المكان. هل هي أفيال ترعى في محمية مفتوحة مثل ما رأيت في (بانديبور)؟ هل هي عروض بهلوانية للأفيال مثل ما نرى في السيرك؟ أتمنى حقًا ألا تكون كذلك!

يفضي بنا الطريق أخيرًا إلى ساحة مفتوحة، تظهر من خلفها، وعلى مرمى البصر، غابة من الأشجار الكثيفة. صوت رنات أجراس تجلجل في الفضاء في رتابة منتظمة، تتماشى مع خطوات فيل ضخمة، تتدلى الأجراس الضخمة من عنقه السميك، بينما يمرّ من أمامي عابرًا الساحة في تودة، وقد اعتلاه غلام صغير شبه نائم. افتרכת عن الجمع الوافد إلى المكان لأتجول بمفرد في الساحة. كان عدد الزوار في ذلك الصباح قد تعدى المئة فرد أو يزيد. أزواج يسرون متشابكي الأيدي، وعائلات وأسّر بأطفالهم، ومجموعات صاخبة من الشباب. ينتشرون في المكان بغير انتظام، بينما من حولنا جميعًا، بل ومن بيننا أحيانًا، تمر الأفيال الضخمة، تسبقها أنيابها العاجية الثمينة. تسير بنفس التودة المعهودة، وقد تدلت خراطيمها أمامها في تناقل. تبدو لي وكأنها تتجاهل وجودنا تمامًا، أو تنكره من الأساس، تمامًا كما يتجاهل أرباب البيت ضيوف ثقلاء غير مرحب بوجودهم على أرضهم البكر الخضراء.

تقودني قدمي إلى ضفة النهر مرة أخرى، حيث ألمح مجموعة من الأفيال وقد ساقها قادتها، ويطلق على الفرد منهم (ماهوت) Mahout أو (راعى الفيل)، إلى النهر للاستحمام، في طقس يبدو أنه محور البرنامج الخاص بزيارة المعسكر. فالأفيال تخرج للاستحمام في الصباح، ما بين الساعة التاسعة والحادية عشرة، ومرة أخرى في المساء ما بين الساعة الرابعة والخامسة والنصف. مما يفسر مواعيد الزيارة الموضحة لدى مكتب التذاكر على الضفة الأخرى.

يبدو أن (دوباري) ليس هو المعسكر الوحيد للأفيال، فإدارة الغابات الخاصة بولاية (كارنتكا) تمتلك وتعتني بأكثر من مئة وخمسين من الأفيال، في عشرات المعسكرات المختلفة، بعضهم غير مُتاح لزيارة العوام، وآخرون يعدون مزارات سياحية بالمقام الأول. لعل (دوباري) هذا هو أشهرهم، حيث يتيح للزائرين فرصة مشاهدة الأفيال والتعامل معهم عن قُرب، يساعدون رجال الـ(ماهوت) في تحميمهم ودهنهم بالزيوت المرطبة وإطعامهم قصب السكر والموز وجوز الهند.

في الربع ساعة التالية أقف على الضفة العالية من النهر، لأراقب عن بُعد طقس الاستحمام البهيج. تلك الحيوانات بالغة الضخامة، التي كانت ذات يوم تعمل كتفًا إلى كتف مع الإنسان، تحمل الأخشاب عبر الغابات وتساعد في أعمال البناء والتشييد، بل وأحياناً تخوض غمار الحروب كوسيلة للتنقل والتدمير معًا، ها هي تستلقي اليوم في وداعة وسكون، مستسلمة لرشات المياه التي يلقيها عليها راعوها. مع الوقت تشجّع بعض الأطفال، فرفعوا سراويلهم عن سيقانهم وخاضوا في النهر مقتربين من الأفيال، ثم أخذوا، في حذر بداية، تبعته حماسة جزلة لاحقًا، ينهلون من المياه ويلقونها على الأفيال المستكينه، فرحين بمشاركتهم في حفل الاستحمام العجيب هذا.

حين انتهيتُ من زيارة المعسكر، كانت الساعة قد تعدّت الحادية عشرة، فأخذت (الشاه كابور) وانطلقت عائدة إلى الطريق الرئيسي الذي جئتُ عبره من (ماديكيرى)، ومن هناك حملني الـ GPS في رحلة طويلة تعدت النصف ساعة، عبر تلال (كورج) الخضراء، متجهين شرقًا إلى مدينة تدعى (كوشالناجار)، لنزور دير ومعبد بوذي الشهير، يعرف باسم (المعبد الذهبي).

في الحقيقة هناك عدد لا بأس به من (المعابد الذهبية) في الهند، تخص كل منها طوائف دينية مختلفة كذلك، ويبدو أن كل طائفة كانت تتبارى في من يمتلك المعبد الأكثر ثراءً وبهاءً في البلاد! لعل أشهر تلك المعابد هو ذلك المعبد المنتمي لطائفة (السيخ) المشهورين

بشعورهم الطويلة وعماماتهم الضخمة التي لا يخلعونها أبدًا، والذي يقع في مدينة (أمريستار) وتزين صورته كل الملصقات الدعائية للسياحة في الهند.

لقد جعلت كثرة المعابد المسماة بـ(المعبد الذهبي) العثور على معبد (نامدرولينج) Namdroling عن طريق الخريطة تحديدًا حقيقياً، فالاسم الرسمي وحده عسير بما يكفي. ولكنني وصلت أخيرًا، بعد قيادة شاقة وسط شوارع (كوشلناجار) المزدهمة. كان من السهل ما إن أعلن سهم الـ GPS اقترابي من المعبد أن أغلق هاتفي وأعتمد عوضًا عنه على تقفّي أثر وفود الرهبان البوذيين، في أرويتهم البرتقالية المميزة، ورءوسهم الحليقة، وملامحهم الآسيوية المميزة لسكان (التبت) في مرتفعات (الهيمالايا) شمال الهند.

تركت (الشاه كابور) في ساحة مقابلة للدير، وعبرت الشارع المزدهم لأمرّ من بوابة حجرية مزحرفة بنقوش ملونة يغلب عليها اللون الذهبي، تتوسطها بوابة حديدية مفتوحة على مصراعها. لم يستوقفني أحد، ولم أسأل أحدًا. فقط مررت في ثبات وهدوء وراء الرهبان وقد قررت أن أترك لروح الاستكشاف العنان في هذا المكان. كانت المرة الأولى التي أזור فيها معبدًا بوذيًا، فلم يحالفني الحظ قبل ذلك بزيارة أي دولة آسيوية بخلاف الهند؛ لذلك كنت أتوق للتعرف إلى هذا الجزء الصغير من العالم الذي يخفي خلف أسواره أسرار 2500 عام من الفلسفة والتعاليم الدينية والديوية.

خلف البوابة تستقبلني ساحة كبيرة، يصطف على يمينها عدد من المتاجر المخصصة لمنتجات الدير من أعشاب وزيوت وخلافه، إلى جانب التذكارات السياحية المعتادة في أي مكان سياحي. لوهلة أوحى إليّ المكان بساحات الزوّار في المعابد المصرية بالأقصر أو أسوان، حتى تحسبت لظهور أحد الباعة اللّوحين في جلباب وعمامة تقليديين! ولكن الباعة هنا كانوا من الرهبان البوذيين، يجلسون في صمّت وسكون ولا يتحدثون إلا إذا وجّهت إليهم الكلام، حينها يرفعون وجوههم في هدوء ويجاوبونك بابتسامة خفيفة قبل أن يعودوا إلى وضعهم الساكن المهيب.

في الطرف الآخر من الساحة يقع مبنى في ضلعين متعامدين، يرتفع إلى ثلاثة أدوار، قُسم كل منها إلى عدد كبير من الحجرات صغيرة، لا بُدَّ أنها مُخصَّصة لسُكنى الرهبان. عبرت الساحة وراء عدد من الزائرين بملابس مدنية عادية، وملامح هندية مغايرة للسواد الأعظم من سكان المكان التبتيين. حُيِّل إليَّ أن هؤلاء زائرون للمعبد مثلي؛ لذا ربما كان من الحكمة أن أسير وراءهم لعلهم يقودونني إلى المعبد المنشود. هكذا نسير جميعًا تجاه ممر قصير، نتجاوز من خلاله مساكن الرهبان إلى ممشى أسفلتي يتوسط شقَّين من المروج الخضراء. يسود الهدوء المكان إلا من زقزقة العصافير على الأشجار القريبة. حتى المارة يسودهم الصمت التام على غير عادة الهنود الذين هم بطبيعتهم كائنات اجتماعية بالدرجة الأولى، ما إن وجدت اثنين منهم أو يزيد حتى تتعالى بينهم الهمهمات كزقزقة تلك العصافير المحيطة بنا الآن.

يتربع على قمة الممشى ذلك المبنى الذي تصاحب صورته كل المراجع التي عثرت عليها عن معبد (نامدرولينج). الهيكل الرئيسي للمعبد، المزخرف باللونين الأزرق السماوي والأحمر القاني في ثلاث مصاطب يظلها اللون الذهبي اللامع، ينتهون بقبة ذهبية تحيطها هالة من ألوان الطيف، بينما يبتسم مؤسس الدير، المدعو (بيما نوربو رينبوش)، في وداعة مرحبًا بالزائرين، وقد تصدرت لوحة ضخمة له، في زيه (التبتي) البرتقالي الملتحف بعباءة حمراء، واجهة الهيكل.

أنحرف يسارًا، وأتجاوز مرجًا أخضر محددًا بعناية، تتخلله شجيرات قصيرة منمقة في تكوينات دائرية، وتتوسطه نافورة حجرية صغيرة. على اليسار، يتدلى جرس حديدي ضخم من هيكل صغير أحمر اللون. أواجه مبنى أكثر تواضعًا من الهيكل الأول، وإن لم ينقصه شيء من الألوان الزاهية، يتباين فيها الأحمر والأزرق والذهبي في تناغم صارت تألفه العين. كان البناء المستطيل، كما في المعابد الهندوسية، يخفي من خلفه قاعة الصلاة وقدس الأقداس، بينما لا يمثل الهيكل الأول، الحامل لوجه (بيما نوربو رينبوش) المكتنز باسم، سوى لافتة ترحيبية ضخمة تختطف الأبصار، مثلها مثل (الجوبورا) في المعابد الهندوسية.

لافتة صغيرة لدى باب المعبد توجهني إلى ترك حذائي في عناية (حارس الأحذية)، وهو راهب شاب يحتل غرفة في طرف الساحة خصصت لحفظ الأحذية. تناول حذائي وخوذتي كذلك، وناولني رقمًا. تذكرت في حنين مسجدي (الرفاعي) و(السلطان حسن) المتقابلين في قلب القاهرة، وقد جلس على بوابة كل منهما رجل له وظيفة مماثلة تمامًا، وإن كان يرتدي جلبابًا وعمامة عوضًا عن زي الرهبنة البرتقالي. كم تتشابه الطقوس البشرية حتى وإن تباينت العقيدة والمذهب!

أزيح بيدي ستارًا من الخرز الخشبي المجدول، لأدلف من البوابة الوسطى للمعبد إلى القاعة الرئيسية. يا لبهاء المنظر! حافية، تلامس قدمي الرخام البارد لأرض القاعة، بينما أتقدم في شرود كمن ندهته النداهة تجاه تلك التماثيل الذهبية هائلة القامة التي تهيمن على القاعة كلها، بارتفاع يصل إلى ثمانية عشر مترًا أو يزيد. كانوا ثلاثة من (البوذا) -لا تتعجب، ف(البوذا) في هذه الديانة يصل عددهم إلى 1002 دفعة واحدة!- يجلسون في وضعية اللوتس الشهيرة بينما استقرت أياديهم في وضعيات متعددة، تدعى الوضعية منها (مودرا) أو Mudra، ويفسرها البوذيون بمعانٍ روحانية مختلفة. تستخدم تلك (المودرا) كذلك في بعض وضعيات اليوجا، لعل أشهرها هو ما اتخذته التمثال الذهبي الأيمن، الذي استقرت راحتيه الواحدة فوق الأخرى في وضعية التأمل. كان التمثال الأوسط هو أكبرهم حجمًا، وهو يمثل (بوذا) الأصلي، مؤسس الديانة البوذية نفسه الذي عاش قبل 2560 عامًا أو يزيد. يحفه عن اليمين تمثال المُعَلِّم Padmasambhava الذي يعتبره البوذيون البوذا الثاني. وعن اليسار تمثال Buddha Amitayus الذي يحمل مكانة خاصة لدى البوذيين كونه مانح العمر المديد لأتباعه ومريديه. تشير اللافتات الموضوعة بالقرب من مدخل المعبد إلى أن تلك التماثيل الضخمة تضم في أحشائها العديد من الكتب المقدسة والطواطم الطينية الصغيرة التي ترمز إلى جسد وخطاب وعقل (بوذا)، لذلك يعتقد أتباع الديانة البوذية أن تبجيل هذه التماثيل والطواف بها وتقديم القرابين لها يؤلِّد في النفس الإيمان والسلام والحكمة والرحمة.

طفث بالقاعة في انبهار. الإضاءة الطبيعية تنفذ إليها عبر نوافذ ضخمة تحف القاعة من جميع الجهات، تعلوهم جداريات ضخمة (للبوذا) في وضعيات مختلفة من (المودرا)، يبتسم مطلقاً علينا في صفين متتاليين من اللوحات. أما السقف فهو قصة أخرى زاخرة بالتفاصيل، فقد قُسم إلى مربعات ضخمة، تحتل الواحد منها دائرة ملونة في أشكال مختلفة من (الماندالا)، وهي كلمة سانسكريتية تعني -لا مفاجأة هنا- (دائرة). تلك الرسومات التي انتشرت في العالم كله كونها وسيلة للتأمل عبر التلوين، وأدمنها الكبار قبل الصغار. صدق أو لا تُصدق أن هذه الرسومات في الديانات الشرقية من الهندوسية والبوذية والجينية والشتوية، تُمثل الرحلة الروحية للإنسان، بدءاً من الخارج إلى القلب الداخلي، عبر طبقات مختلفة من الارتقاء الروحي.

خرجتُ من المعبد وقد مسني شيء من هدوئه وسكونه. من العسير أن أستوعب أن خلف هذه الأسوار يوجد عالم آخر، بل بلد آخر وثقافة أخرى. بدت لي هذه الجنة الصغيرة التي صنعها التبتيون في قلب تلك المدينة الهندية الصغيرة ذات الشوارع الصاخبة، والحياة طاحنة، ضرباً من الخيال! لقد نزح التبتيون إلى هذه البقعة من الأرض قبل ستين عاماً أو يزيد، هرباً من قوات الجيش الصيني الذي غزا إقليم (التبت) عام 1959. على مرّ هذه العقود الستة المنصرمة تحول المجتمع الصغير -الذي وصل إلى هنا بعدد قليل من اللاجئين- إلى ثاني أكبر مستوطنة (تبتية) في الهند؛ إذ يُقيم هنا أكثر من سبعين ألف (تبتية). من المذهل حقاً كيف نجحوا في الحفاظ على إرثهم الثقافي بهذا الشكل المثير للإعجاب. بل الأكثر إدهاشاً هو كيف احتوتهم (الهند) وساعدتهم بينتها المتعددة الأطياف على النمو والازدهار.

في مقهى صغير مجاور لسلسلة المتاجر المخصصة للزوار عند الساحة الأمامية للدير تناولت غذائي. للمرة الأولى منذ وصولي إلى الهند أشعر بنهم حقيقي للأكل، فقائمة الطعام رغم أنها نباتية تماماً فإنها مُغرية بحق. كان هناك بطاطس محمرة مع الكاتشب، وقطع من البطاطس المهروسة والمقلية في دوائر لتبدو مثل الفلافل، هذا إلى جانب كرات البطاطس

المحشية بالخضراوات. باختصار كان احتفالاً صغيراً ممتلئاً بالبطاطس في جميع أشكالها وصورها، لكنني كنت في غاية الامتنان لمذاقها الشهوي والخالي من الشطة بالطبع!

(ماديكيرى) مرة أخرى. وصلتها بعد ساعة كاملة وقد انتصف النهار وازدادت الطرق ازدحاماً. ارتقى تل (ستيوارت) الذي يمثل مركز المدينة القديمة في حدّ. الطريق ضيق، بالكاد يسمح بمرور سيارتين متقابلتين، يتلوّى طوال الوقت في منحنيات حادّة ومفاجأة، يصعد ويهبط بلا هوادة كأفعوانية مدينة الملاهي. تلبستني الأفكار السوداء التي تمر بعقل كل قائد موتوسيكل في هذا الموقف؛ لا بد أن هذا الطريق يصير قاتلاً متسلسلاً يحصد أرواح المارة في ساعات الصباح الأولى، حين يغلفه الضباب الكثيف المميز لهذه المنطقة جاعلاً الرؤية شبه معدومة. من حُسن الحظ أن الشمس ساطعة اليوم، فليكتب لي يوم آخر على الطريق إنز!

وصلت إلى (مقعد الملوك) أو Raja's Seat، كما يطلق المحليون على هذه الحديقة الرائعة الغنية بالزهور المتنوعة والنوافير الاصطناعية والتي تستقر فى أعلى نقطة من تل (ستيوارت). أتجوّل بين ممراتها المتشعبة المحاطة بأحواض الزهور، والمظللة بأشجار البلوط العتيقة. كل الممرات تؤدي إلى تلك الشرفة النصف دائرية، المعبدة بالبلاط الأحمر، المطلة على الوادي السحيق. أقف مبهورة الأنفاس لأتأمل المشهد الخرافي. طبقات فوق طبقات من المساحات الخضراء تمتد أمامي إلى ما لا نهاية، وسلسلة من الجبال متباينة الارتفاعات ما زالت تغفو بين الضباب رغم اليوم المشمس. تحكي الأسطورة إن تلك البقعة المذهلة كانت المنتزه المفضل لملوك (كورج) القدماء، الذين اعتادوا مشاهدة غروب الشمس وقضاء بعض الوقت الرومانسي اللطيف مع ملكاتهم هنا. من هنا اكتسبت الحديقة اسمها المميز (مقعد الملوك).

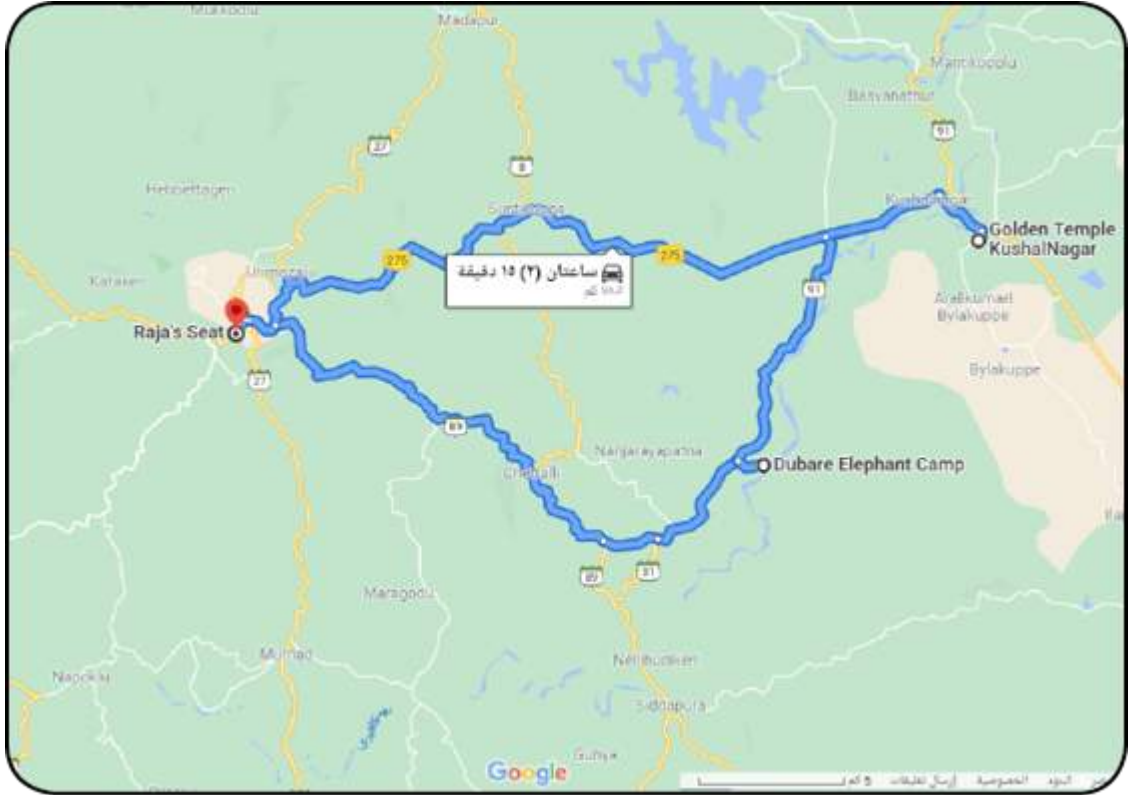
تقترب الساعة من الثالثة ظهرًا، وأنا أتلوّى بين طرقات (ماديكيرى) الضيقة مرة أخرى نزولاً من أعلى التل. أقضي وقتًا حثيثًا في البحث عن مقهى يسمح لي بالجلوس للانفراد بشبكة الإنترنت غير المتاحة في النزل الذي أقيم فيه. وجدت غاييتي في مقهى أنيق تتباهى

لافتته بتقديم القهوة الكورجية الشهيرة. تلفحني الرائحة القوية للقهوة المعدّة في المكان ما إن أَدفع الباب. أتخذ مقعدًا خلف الواجهة الزجاجية يسمح لي بمراقبة (الشاه كابور) المنتظر بالخارج كحيوان أليف ينتظر سيده في صبر ووفاء.

بعد مرور ساعة تقريبًا، مع تناولي لكوب من اللبن بالقرفة والزنجبيل اخترعه الساقى لي خصيصًا نظرًا لعدم تناولي القهوة -وهو أمرٌ مخجلٌ حقًا كوني في معقل زراعة القهوة وصناعتها بالبلاد- أنطلق مرة أخرى في طريق العودة إلى المزرعة، لأدخل غرفتي في تمام الخامسة، بعد يوم شاق زاخر بالأحداث والمشاهدات.

ما زال الوقت مبكرًا جدًّا للنوم. ماذا يفعل من هو مصاب بفرط الحركة مثلي لقضاء ساعات الوحدة والصمت هنا؟! انتهزت فرصة وجود (پرامود) في الجوار ودعوته للجلوس على الشرفة المقابلة للغرفة. هكذا انقضت ساعة أخرى في إثررة طويلة عن مصر، والموتوسيكلات، والمحاصيل الزراعية، وأنواع القهوة. بعد انصراف رفيق السهرة، قضيت بعض الوقت في القراءة وتدوين يوميات الرحلة، إلى أن حانت فقرة الفأر المفضلة لي! هذه المرة بدأ الاحتفال مبكرًا، فلم تكن الساعة قد تجاوزت العاشرة حين سمعت وقع أقدامه الثقيلة فوق سطح الغرفة. هكذا انقضت نصف ساعة أخرى في الجري والدقّ والمطارادات إلى أن سمعت صوت قفزته من فوق السقف إلى ما وراء الحجرة ليختفي في ظلام الغابة. ليلة أخرى جميلة من ليالي الأنس والونس في الغابة العامرة!

# خريطة اليوم



# ألبوم الصور



في معسكر دوباري للأفيال



المعبد الذهبي في (كوشالناجار)



المعبد الذهبي في (كوشالناجار)



مقعد الراجا - مديکيري

# Route 66

طريق 275 الوطني - ديسمبر 2019

يعبق الهواء برائحة نبات القهوة الحلو، فيغمرنى بشعور دافئ رغم أنف لسعة برد الصباح الباكر على مرتفعات (كورج). بلدة (ماديكيري) تغط في سبات عميق تحت لحاف ثقيل من الضباب. مجال الرؤية لا يتعدى العشرين مترًا، وثمان الـ GPS الزاحف على الخريطة المثبتة أمام عيني فوق مقود (الشاه كابور) يتلوّى في جنون على طريق 275 الرابط بين مدن (كارناتاكا) مرة أخرى. حين يتجسد الطريق الافتراضي على الشاشة في شكل أفعى، فإن هذا يحمل لقائد الموتوسيكل وعدًا ضمنيًا بالكثير من المرح القادم.

أعادت الخمسون كيلومترًا التالية تعريفي للجَمال الربّاني؛ فالطريق يحملني صعودًا فوق التلال الخضراء وهبوطًا إلى وديان أكثر خضارًا وازدهارًا. غابات مديدة تحجب الأفق. جنات تظاهرها جنات لم تدنسها يد بشر قط. بدا لي وكأنّ الطبيعة هنا تتكاثر ذاتيًا مع كل كيلومتر يمر. أشجار تفسح المجال لنبتات أقل حجمًا، وأزهار تنسقت بيد خفية كيفما اتفق بين الحشائش، وبين هؤلاء وأولئك ينساب شريط أسفلي ناعم، وقد خلا في تلك الساعات البكر من البشر تمامًا، إلا من فتاة مصرية وحيدة، تتمايل في جزل وحبور على متن مركبتها الضئيلة ذات العجلتين.

وحيدة تمامًا، لا يؤنسي سوى دقات موتور (الشاه كابور) الرتيبة المحببة، وصوت الرياح المداعبة لأوراق الشجر. تتناوبي مشاعر متناقضة، ما بين النشوة المطلقة للقيادة وسط كل هذا القدر من الجمال، وبين الخوف الغريزي الذي يتولّد في أحشائي مع كل منعطف حاد يقابلني، وما أكثرهم على هذا الطريق الأفعواني الرهيب. جملة واحدة تتردّد بين جنبات عقلي مع ظهور كل منعطف جديد: «قاومي الرغبة في كبح الفرامل». يجب عليّ إن أردت أن أعبّر إلى الجانب الآخر من مرتفعات (الغاس الغربية) الشهيرة بكامل أطرافي وعظامي

سليمة أن أقاوم تلك الغريزة الطبيعية الطاغية التي يولدها الشعور بالخطر، والتي تفرض على يدي وقدمي قبض المكابح تلقائيًا رغمًا عن أنفي وعقلي. «قاومي الرغبة في كبح الفرامل»!

تتزايد المنعطفات وتتوالى في جنون، أحيانًا يصل عددها إلى أربعة أو خمسة منعطفات حادة متتالية بفارق شبه منعدم من المسافة بين المنعطف والآخر. أضف إلى ذلك الانحدار الشديد للطريق الجبلي في أغلب الأحيان. بعملية حسابية بسيطة، يقوم بها مخ قائد الموتوسيكل بطريقة شبه تلقائية أغلب الأحيان، نجد التوقيت بين كبح الفرامل قبل دخول المنعطف وبين إفلاتها في الوقت المناسب لا يتعدى ثواني معدودة، بل ربما استغرق جزءًا من الثانية لا أكثر. استدعى الأمر طاقة خرافية، وكما هائلًا من التركيز والانتباه، ومهارة لم أحسبها في نفسي قبل اليوم، كي أتخطى هذه المرحلة من الطريق. بالرغم من ذلك كان إغراء كبح الفرامل يطغى أحيانًا على كل ما تعلمته وخبرته خلال السنوات الماضية، متناسبًا طرديًا مع شعوري الغريزي بالخطر، لذلك حدث أكثر من مرة أن أخطأت التوقيت المناسب لإفلات المكابح، فانجرف (الشاه كابور) بي إلى الحارة المقابلة من الطريق، وبرعاية من الله لا مهارة مني تمكنت من العودة إلى خط سيرى في اللحظة الأخيرة قبل أن تفاجئني مركبة أخرى من الزاوية العمياء للمنعطف بثوان!

بعد تلك الكيلومترات الخمسون الجنوبية، ومع استقرارى على أرض منبسطة مرة أخرى، أتوقف على جانب الطريق لالتقاط أنفاسي، والسماح لدفقات الأدرينالين المجنونة بالاستقرار في عروقي، والتفكير في ما حدث للتو. شعور غامر بالفرحة يعتريني. كانت هذه أجمل رحلة قطعتها على موتوسيكل في حياتي دون مبالغة. بعد يومين من هذه اللحظة تحديدًا سوف يسألني أحدهم إن كنت أفكر في ابنتي الصغيرة في لحظات مثل تلك التي مررت بها للتو؟ حين أرى الحادث يحدث في مخيلتي تمامًا كما أرى حروف هذه الكلمات أمامي بالضبط، مع درايتي الكاملة بعواقب ما قد يحدث في ثانية أو أخرى؟

الحقيقة أنني في اللحظة نفسها التي يواجهني فيها خطر ما على الطريق لا يسيطر على تفكيري سوى العثور على مخرج آمن من الموقف ذاته. ما التصرف الصحيح؟ ما الاحتمالات؟ فقيادة الموتوسيكلات في حد ذاتها هي لعبة احتمالات. حتى في أثناء القيادة في أكثر شوارع الأرض ازدحامًا، يعمل المخ دائمًا بسرعة وثبات لقراءة كل السيناريوهات الممكنة واحتماليات حدوثها. هناك طفل أفلت يد والدته على الرصيف المجاور لي، على بُعد عشرة أمتار مني، هناك إذن احتمالية أن يركض هذا الطفل الأرعن بشكل مفاجئ تجاه الشارع لتدهسه عجلاتي. هناك سيارة أجرة تتقدم الطريق أمامي مباشرة، وشاب يقف من بعيد، تعلق وجهه علامات ضجر الانتظار، ما احتمالية أن يقوم الشاب باستيقاف السيارة الأجرة فينحرف قائدها أمامي فجأة ويتوقف أمام الشاب لأصطدم به في عنف وأطير في الهواء؟ هكذا تعمل العين كما مسح ضوئي فائق الجودة، تدرس كل جوانب المشهد المحيط في جزء من الثانية، ثم ترسل بياناتها للعقل فيقوم ذاك باتخاذ القرار المناسب لحركة الموتوسيكل التالية، ما الحارة المناسبة للمرور؟ والسرعة المثلى؟ والإشارة المطلوبة؟ وهكذا، في سلسلة طويلة من الحسابات المعقدة. الحق أنني أعد قيادة الموتوسيكلات رياضة ذهنية في المقام الأول.

ولكن ما إن تمرُّ اللحظة الصعبة، يصير كل ما يدور في ذهني هو امتنان عميق؛ لأنني مُنحت الفرصة لأضم (صوفيا) في حضني مرة أخرى. لا أؤمن إطلاقًا بالتوقف عن ممارسة شيء تحبه لمجرد أنه يحمل قدرًا من خطورة. كل خطوة يخطوها الإنسان تحمل نسبة ما من الخطر على حياته. يدركه الموت وهو يعبر الشارع لابتاع علبة سجائر من كشك قريب، وهو في طريقه إلى عمله في سيارته المكيفة، وهو يجلس إلى مائدة الطعام ليتناول آخر قطعة من الدجاج كُتب له أن يتذوقها. بل إنني أعرف بشكل شخصي ثلاثة أشخاص بعينهم عاشوا حياة تدور بشكل أساسي حول قيادة الموتوسيكلات، بل منهم من احترف القيادة على الطرق الوعرة في الصحراء؛ الأول لقي حتفه في حادث سيارة أليم وهو في طريقه إلى المنزل، والثاني قضى غرقًا، والثالث أُصيب بسكتة قلبية مفاجئة وهو بعد في الخمسين من عمره! يقول لي أحدهم: إن الله يقول: {وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ}.

حسنًا، ولكنه يقول كذلك: {أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ}.  
الحقيقة التي يصعب علينا -نحن البشر- تقبلها هي أننا منتجات محدودة الصلاحية،  
مخلوقات تحدد لها في لحظة التكوين تاريخين؛ تاريخ ولادة وتاريخ وفاة. أما ما يحدث  
بين اليومين فهو رهن اختياراتك الشخصية، أردت أن تقضيها في مساحة آمنة فيها وكفى،  
أردت أن تقضيها في مطاردة الموت بعينه، فيها وكفى. كلا الاختيارين لن يُبدلاً شيئاً في  
تاريخ وفاتك المحدد مسبقاً.

الخروج من (كورج) كان أشبه بالطرد من الجنة. كيف اجتمع كل هذا القدر من الجمال على  
رقعة واحدة من الأرض؟! أعجزت التجربة لساني عن النطق، وقضيت فترة لا بأس بها في  
محاولة لتحليل مشاعري الداخلية. هل أنا سعيدة أم خائفة؟ قلقة أم مبهورة؟ أم هو مزيج  
من كل ما سبق؟ فتكون الإجابة هي صمت تام يتردد في تجاويف صدري!

استكملتُ طريقي مرة أخرى متجاوزة (الغاتس الغربية)، تجاه الساحل الغربي المطل على  
بحر العرب. بعد فترة غير قليلة اختفت المنحنيات من الطريق تمامًا، وصار أكثر استقامة،  
وبدأت معالم الحياة البشرية تظهر في صورة قرى صغيرة على جانبيه. بحلول الساعة  
التاسعة والنصف، أي بعد ساعتين من بداية الرحلة، وصلت إلى مدينة تحمل لافتتها اسم  
(بُتور) Puttor، وبعدها بخمسة وأربعين دقيقة أخرى حملت لافتة أخرى اسم مدينة  
(بانتيال) Bantwal. عشرون كيلومترًا فقط تفصلني الآن عن (طريق 66) الهندي.

يكتسب (طريق 66) في الهند شهرة محلية واسعة، فهو يمتد لمسافة ألف وستمائة  
كيلومتر، موازيًا الساحل الغربي للهند، من مدينة (مومباي) شمالاً وحتى الطرف المستدق  
لشبه القارة الهندية جنوبًا، وتحديدًا لدى التقاء حدود ولايتي (كيرلا) و(تاميل نادو). بيد  
أن اسم (طريق 66) أو (Route 66) يكتسب شهرة عالمية كذلك، ولكنه لا يرمز قط إلى  
ذلك الطريق الهندي، وإنما يشير إلى طريق أطول بكثير، يقع في الولايات المتحدة، ويقطع  
مسافة تقارب الأربعة آلاف كيلومتر، من مدينة (شيكاغو) في الشرق إلى حدود ولاية  
(كاليفورنيا) في أقصى غرب الولايات، حتى نال لقب (الشارع الرئيسي) في أمريكا!

وبالنسبة للرحالة من قائدي الموتوسيكلات، يُعدُّ (طريق 66) الأمريكي من أشهر طرق رحلات الموتوسيكلات في العالم؛ إذ يستغرق الأمر عشرة أيام إلى الأسبوعين لقطعه من أقصاه إلى أدناه، في خط شبه مستقيم، مرورًا بالكثير من المعالم الأمريكية الشهيرة مثل نهر (الميسيبي)، والوادي العظيم (جراند كانيون)، وصحراء (موهافي)، ومدينة (لاس فيجاس) بكازينوهاتها الشهيرة، قبل الوصول أخيرًا إلى مدينة (لوس أنجيلوس) وعاصمتها السينمائية الشهيرة!

بيد أن الطريق 66 الأمريكي ليس هو الوحيد على قائمة الطرق المفضّلة رحلات الموتوسيكلات وإن كان أشهرها، فلكل قارة في العالم نصيبها من هذه الطرق؛ ففي آسيا هناك رحلات جبال (الهمالايا)، وطريق (هو تشي مين) الذي يقطع (فيتنام) من الشمال إلى الجنوب، وفي أمريكا اللاتينية يتتبع البعض حُطًا (التشي چيفارا) في رحلته الكلاسيكية التي دوّن مسارها في كتابه الشهير (مذكرات الدراجة النارية). أما في قارة أفريقيا، فكانت محظوظة كثيرًا كوني أقيم في بلد تُعدُّ (بوابة أفريقيا) بالنسبة للرحالة هواة الموتوسيكلات حول العالم، ونقطة الانطلاق لواحد من أقدم وأطول طرق الرحلات الكبرى في العالم، وهو الطريق المعروف باسم (القاهرة-كيب تاون)!

القاهرة - نوفمبر 2015

«أعتقد بأنني سأتناول عصير الليمون، أما صوفيا فستتناول الكوكاكولا». تقولها (ميلاني) أو (ميل)، بلكنة إنجليزية أصيلة، بينما تجلس على أحد المقاعد البلاستيكية في مقهى شعبي شهير بمنطقة وسط البلد بالقاهرة، تجاورها ابنتها (صوفيا) ذات التسعة أعوام.

كانت (ميل) قد وصلت (القاهرة) مع ابنتها قبل يومين، بعد مرورهما بعشر دول أوروبية دفعة واحدة ما بين (إنجلترا) و(اليونان)، لتسبقا الموتوسيكل الخاص بها الذي شحنته من اليونان إلى ميناء (الإسكندرية) على أن تلتقطه من هناك في غضون أسبوع.

تُخرج (ميل) هاتفها المحمول لتريني صورة للموتوسيكل. كان من طراز (أورال)، وهو يشبه (الشاه كابور) كثيرًا، فقد بدأ إنتاجه كذلك خلال الحرب العالمية، ولكنه استخدم وقتها من قبل الجيش الأحمر الروسي لا الجيش الإنجليزي، وأشتهر بذلك المقعد الجانبي الذي يثبت إلى جانب الموتوسيكل الأيمن، والذي استخدمه المصريون على مدار العقود الماضية استخدامات شتى لحمل وتوزيع البضائع، من أول حاويات الألبان إلى الجرائد الورقية!

تناول (ميل) ابنتها مشروبها ثم تقول لي: «أريد لصوفيا أن تخرج خارج حدود عالمها الضيق، فمع مرض التوحد تدور كل حياتها داخل نطاق ضيق جدًا من (الكومفورت زوون) الخاصة بها. أؤمن بأن اختلاط الطفل المتوحد بالطبيعة يحمل تأثيرًا إيجابيًا في إدراكه للموجودات من حوله، وأريد لـ(صوفيا) أن تحصل على هذه الفرصة؛ لذلك اخترت أفريقيا تحديدًا مقصدًا لهذه الرحلة».

منحت (ميل) لرحلتها شعار (أفريقيا مع التوحد)، وتوقعت يومها أن تستغرق ستة شهور أخرى حتى تصل إلى وجهتها، ولكنها في الحقيقة استغرقت تسعة شهور كاملة، قطعت خلالها أكثر من خمسة وعشرين ألف كيلومتر حتى وصلت أخيرًا إلى (كيب تاون) بجنوب أفريقيا في أواخر عام 2016.

كنت محظوظة كما سبق أن ذكرت بمعيشتي في القاهرة، فقد منحني ذلك فرصة لقاء الكثير من الرحالة في أثناء رحلاتهم الكبرى في أفريقيا. كانت ملاقة (ميلاني) أكثرهم إغزازًا على قلبي؛ إذ حققت -وهي أم وحيدة برفقة ابنتها المصابة بداء التوحد- ما يحلم الكثيرون حول العالم بتحقيق ربه، فقطعت واحدًا من أشهر وأصعب طرق الموتوسيكلات في العالم، في مغامرة يحسدها عليها الكثيرون وأولهم أنا. أتمنى يومًا أن أصطحب (صوفيا) الثانية، ابنتي التي جاءت إلى الحياة بعد ذلك اللقاء بستة عشر يومًا فقط، في رحلة مشابهة يومًا ما.

طريق 66 - ديسمبر 2019

عند التقاء طريق 275 الوطني، الذي حملني من (ماديكيري) عبر مرتفعات (الغاس الغربية)، وطريق 66 الساحلي، تقع مدينة (مانجلور) Manglore. هنا يبدأ جزء مختلف تمامًا من الرحلة! لفحتني فجأة رائحة اليود القوية، يصاحبها ارتفاع مفاجئ في درجة الحرارة ونسبة الرطوبة بالجو. ألقى نظرة على الهاتف، فإذا بالحرارة قد وصلت إلى 31 درجة مئوية. انحدر الطريق فجأة بشكل حاد، ليكشف الستار عن مشهد بحر العرب المهيّب. توقفت للحظات للراحة على كورنيش (مانجلور). تشير الساعة إلى العاشرة صباحًا. فكرت في تناول الإفطار في أي مطعم قريب، غير أنني فشلت في العثور على معلومات كافية عن المطاعم المتاحة بالمنطقة فقررت تأجيل الإفطار لحين الوصول إلى الفندق.

مضيتُ قُدماً على الطريق الساحلي، المتجه شمالاً نحو مدينة (أودوبي) Udupi، وقد حددت الفندق وجهة لي على الـ GPS. إلا أنني فوجئت بالمؤشر يتوقف قبل عشرين كيلومتراً كاملة من المدينة، في منطقة تعج بسيارات النقل الثقيل، أمام بناية قصيرة من أربعة طوابق حملت اسم الفندق المنشود. لا أتذكر حقاً الملابس التي أدت إلى قيامي بالحجز مسبقاً في ذلك الفندق تحديداً، ولكنني بالتأكيد ارتكبت جريمة حقيقة في حق نفسي حين أغفلت التأكد من موقعه ومحيطه، بل ومستواه كذلك، يا إلهي! يبدو كاستراحة لسائقي النقل أكثر منه فندقاً سياحياً!

لم يكن أمامي خيار آخر سوى التقدم إلى مكتب الاستقبال على كُّل حال. فبعد قيادة قاربت الخمس ساعات، استنفدت خلال الساعة الأولى منها وحدها كل طاقتي الجسدية والذهنية لعبور منطقة المرتفعات، كان جُلّ ما أرغب في الحصول عليه هو حمام مُنعش وسرير ناعم الملمس. حتى الطعام كنت زاهدة فيه في هذه المرحلة.

خالفت الغرفة توقعاتي تماماً، وبشكل إيجابي هذه المرة. فبالرغم من موقع الفندق المريب وحجمه الصغير كانت الغرفة المخصصة لي واسعة ونظيفة، حديثة الأثاث، ذات حمام أنيق. تنفست الصعداء، فعلى الأقل سأستمتع بنوم مُريح هذه الليلة، بعد ليلتين متتاليتين من مطاردة فأر المزرعة الكورجية الشرير.

أفاقني الاستحمام السريع إلى حد كبير. وأعدت إليّ بعض لقيمات من الخبز والبسكويت القليل من الطاقة. أنظر في الساعة فأجدها قد تعدت الظهيرة بقليل. أمن الأفضل أن أنام الآن أم أذهب إلى المدينة لأستكشف الشاطئ كما خططت لليوم؟ تصورت أنني لو نمت الآن فلن أفيق قبل ثلاث ساعات كاملة، حينها تكون الشمس في طريقها للمغيب. لا أحب القيادة ليلاً، لا سيما على هذا الطريق السريع المحفوف بالناقلات العملاقة. هكذا أتخذ قراري سريعاً، إلى (أودوبي) إذن.

حارات (مالبي) Malpe الضيقة تتشعب، وتتداخل في شبكة مزدحمة حتى تلقى بي أخيراً على شاطئها الشهير الذي منح مدينة (أودوبي) كلها صيتاً سياحياً واسعاً في هذه المنطقة من الهند. فبلدة الصيادين الصغيرة تلك التي تقع على أطراف المدينة تتمتع بواجهة بحرية فريدة وشاطئ مثالي للاصطياف والتنزه.

الطريق الأسفلتي الضيق الموصل إلى الشاطئ ينتهي إلى ميدان دائري صغير، يحده صف من المتاجر الصغيرة التي تقدم المأكولات والتذكارات السياحية للزائرين. تتوسط الميدان صخرة ضخمة، يقبع فوقها تمثال أسود لامع لـ (المهاتما غاندي)، في هيئته الشهيرة التي ميزت سنواته الأخيرة، حليق الرأس، عار تماماً إلا من سروال قصير، وقد استقرّ مستنداً إلى راحته اليمنى، ضاماً ساقيه إلى جانبه الأيسر، وبدا كما لو كان ينظر إلى القادمين في تأمل وترقب، بينما تمتد من خلفه الرمال الذهبية، وأشجار النخيل المتباعدة، وتتلاطم الأمواج، في مشهد سينمائي بارع التصوير.

أدهشني أن هذا الشاطئ الجميل، بموقعه الفريد، وإطلالته الساحرة كان مفتوحاً على امتداده للجميع. لا يوجد سور، ولا بوابة، ولا حُرَّاس. بل إنني تركت (الشاه كابور) بكل أريحية بالقرب من الميدان، في حراسة (غاندي) شخصياً، ولم يستوقفني أحد. لا يوجد هنا تذاكر دخول، أو تذاكر لإيجار شمسية أو كراسي. كما أن دخول المأكولات طبيعي تماماً، لا يُستثنى من ذلك حلل المحاشي إن وُجدت! لا بُدَّ أن أحداً من الهنود لم يكتشف بعد كيف يستغل كل شبر ساحلي في البلاد للمنفعة الخاصة وكمصدر اقتصادي ثمين!

أتجول بحرية تامة على الشاطئ، الذي كان متوسط الازدحام في ذلك الوقت من الظهيرة. مجموعات من الشباب اللاهي؛ البعض يمارس الرياضة. تتجمع العائلات حول المقاعد المنتشرة على الشاطئ وأمام المطاعم القريبة، بينما يركض الأطفال هنا وهناك. ويعلو صوت الأمواج القريبة فوق صخب الجميع.

قادتني قدامي إلى سقيفة خشبية تتوسط الشاطئ على بُعد أمتار من البحر. لفت نظري اللافتة المعلقة فوق جدارها التي حملت بحروف إنجليزية ضخمة إعلاناً عن (مراكب جُزُر سانت ماري). تقدمت من الموظف الجالس خلف مكتب صغير، حافي القدمين، مرفوع طرف السروال اتقاء للرمال. ناولني تذكرة ورقية ثم أشار في صمت إلى مركب صغير يرسو على بعد عشرين متراً أو يزيد.

أتوقَّف لبضع ثوانٍ، في منتصف الطريق إلى المركب، لأشمر أطراف سروالي قبل الاقتراب من البحر. ثوانٍ كانت كفيلاً لينطلق أحدهم، وكان يقف مع زميل له بجوار المركب، في الصياح بكلمات هندية لم أفهمها، وإن أخبرتني نبرة الصوت أنه النداء الأخير قبل الإبحار. بشكل ما تحمل كل نداءات الركاب مهما اختلفت وسيلة المواصلات، سواء كانت طائرة أو حافلة أو مركب، ذات الطابع المميز للنداءات الذي لخصته السينما المصرية ذات يوم في الإفيه الشهير (النداء الأخير لطيارة الدوحة!). هكذا أهول لأقطع الأمتار القليلة الباقية في عجلة، فيساعدني أحد الرجلين على ارتقاء حافة المركب، ثم أستقر فوق أحد المقاعد البلاستيكية الزرقاء، بينما يتأرجح المركب فوق المياه كمهد رضيع.

أصفر زاهٍ، كنقطة نور وضوء، يُبحر بنا المركب في انسيابية فوق أمواج بحر العرب. رذاذ من المياه يضرب وجهي حين تزداد سرعة المركب تدريجياً فابتسم في سعادة كطفلة تختبر الإبحار للمرة الأولى. يصحبني على المركب زوجان شابان، بدأ من صغر سنهما وحرصهما على التقاط عشرات الصور معاً، وهما يبتسمان في حبور ويتبادلان نظرات الوله، إنهما في إجازة شهر العسل. انشغلت عنهما بالتقاط عشرات الصور بدوري، إلى أن وصلنا

أخيرًا بعد ربع ساعة تقريبًا إلى شاطئ الجزيرة الصغيرة النائية، واحدة من مجموعة صغيرة من أربع جزر بكر التي تُعرف باسم (جزر سانت ماري).

حافية القدمين أخطو خطواتي الأولى على الرمال البيضاء الناعمة. هل هذا الملمس هو ما شعر به الرحالة البرتغالي (فاسكو دا جاما)، قبل هذا اليوم بستة قرون كاملة، حين لامست قدماه الأرض للمرة الأولى، هنا على هذه الجزيرة بعينها، بعد أن نجح للمرة الأولى في التاريخ في الالتفاف حول القرن الأفريقي، ليشق طريقًا بحريًا جديدًا بعيدًا عن البحر المتوسط الذي سيطر عليه العرب والرومان وقتها، وليفتح المجال لعقود سوداء مريرة من الاستعمار البرتغالي والأوروبي للبلاد؟

الجزيرة خالية من أي مظاهر للحياة، اللهم إلا من بعض الشجيرات الخضراء المتناثرة والنخلات الباسقة. تتراص على شاطئها تكوينات صخرية من أحجار البازلت الأسود، تكونت بفضل الجَمَم البركانية التي سببها انقسام تلك الجزر عن جزيرة (مدغشقر) يومًا ما. تطلب الأمر ثمانية وثمانين مليون عام، على حسب تقدير علماء الجيولوجيا، حتى تنجرف تلك الأخيرة مع التيارات البحرية لتستقر أخيرًا قبالة الساحل الغربي لقارة أفريقيا كما هي اليوم!

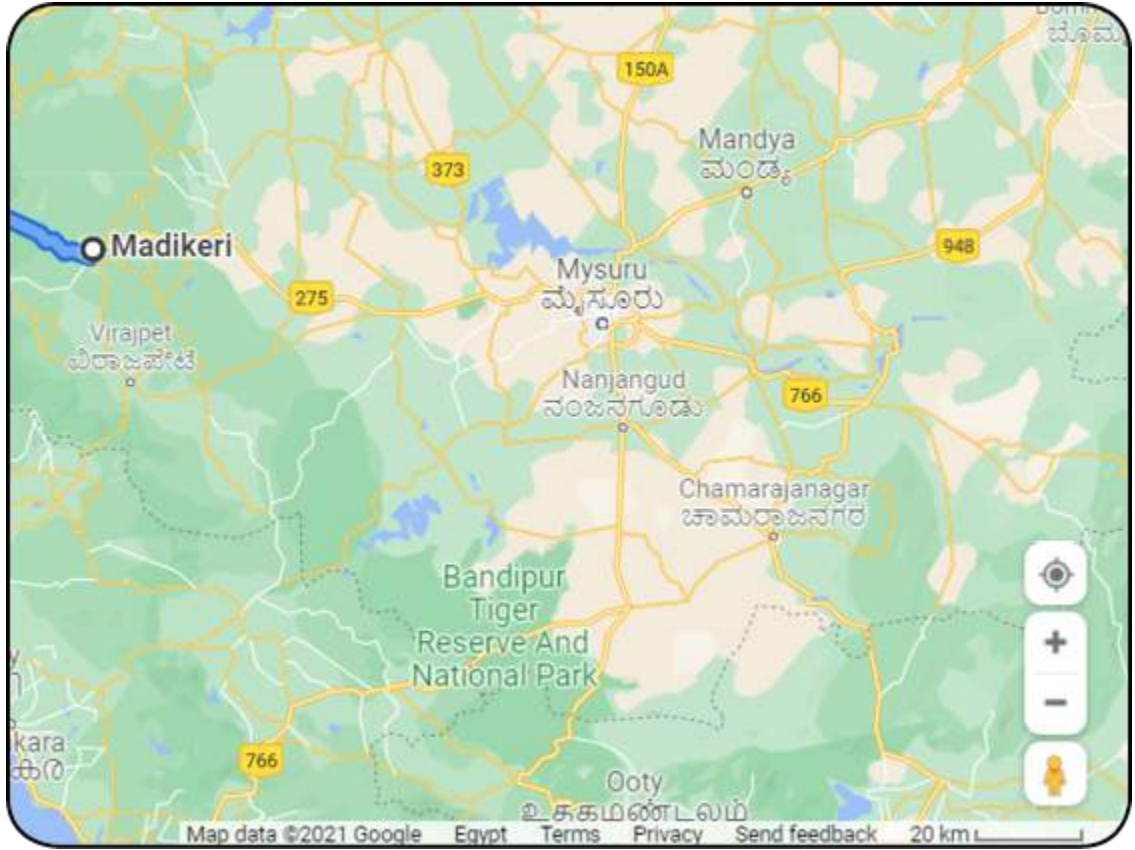
بعد رحلة بحرية قصيرة أخرى، أعود إلى (الشاه كابور)، فأطمئن لوجود سترة الحماية التي تركتها في الحقيبة الجانبية له. كنت قد اطمأنت بعد كل هذه الأيام أن فرص السرقة ضئيلة للغاية في الهند. أرى قادة الموتوسيكلات يتركون خوذهم ومتعلقاتهم فوق الدراجات طوال الوقت. تركت السترة مكانها مرة أخرى، فحرارة الجو والرطوبة لا تُطاق. أكره أن أقول ذلك، ولكن بعد القيادة المتواصلة طوال الأسبوع الماضي أصابني شيء من الاعتقاد، وربما الثقة الزائدة في (الشاه كابور)، أو في مهاراتي القيادية، أو حتى من باب التعب والإرهاق، فأصبحت أقل اهتمامًا بعوامل الأمان. صرثُ أرتدي الحذاء الرياضي الخفيف في جولاتي القصيرة داخل المدن عوضًا عن حذاء الأمان، وأتخلّى عن سُنرة الأمان الثقيلة بعض الأحيان، لا سيما في الأيام المشمسة. كان هذا التفكير الذي استوقفني

للحظات كفيلاً بدق ناقوس خطر في ذهني. عادة، وأنا لا أدعي قيامي بأي إحصائيات هنا، تكون تلك المرحلة من الإهمال والثقة المفرطة هي المرحلة السابقة مباشرة لحادث أو سقطه مؤلمة، أياً كانت تبعاتها. هكذا أعود إلى رُشدي مرة أخرى وأذعن لقواعد السلامة، فأتناول السترة في ضيق وأنطلق في رحلتي الأخيرة لليوم، رحلة البحث عن طعام!

بعد عشرين دقيقة كاملة، تحملني شوارع (أودوبي) المزدهمة إلى أحد فروع (ماكدونالدز). صارت العلامة التجارية الأمريكية هي الراعي غير الرسمي لرحلتي. أفتش عنها في كل مدينة بنفس أهمية بحثي عن محطات الوقود في الطريق. فكما يجب على (الشاه كابور) أن يتزود بالبنزين، يجب عليّ أن أتناول ولو قدرًا يسيرًا من الطعام كل يوم بخلاف الخبز والمقرمشات. أعتقد أنني فقدتُ بعض الكيلوجرامات من وزني بالفعل، كلها بفضل الطعام الهندي الحار الذي زهدت تمامًا في تناوله على مدار الأيام السابقة.

عدتُ إلى الفندق وقد حلَّ المساء، بعد أربعين دقيقة أخرى من القيادة على الطريق الساحلي، ليصل إجمالي ساعات قيادتي اليوم إلى ست ساعات كاملة؛ لهذا كان من الطبيعي أن أنهار على السرير فور دخولي الغرفة، قبل أن أتمكن حتى من تبديل ملابسني.

# خريطة اليوم



# ألبوم الصور



الطريق بين (ماديكيرى) و(مانجلور)



الرحلة البحرية من (مالبي) إلى جزر (سانت  
ماري)



جزر (سانت ماري)

# بالوليم

الطريق 66 الساحلي - ديسمبر 2019

أستيقظ مع الساعات الأولى من الصباح. اليوم أمامي طويل وشاق. فرحلة اليوم، كما حدّدها لي الـ GPS، تبلغ 240 كيلومتر تقريبًا؛ أي ما يُعادل المسافة بين القاهرة والإسكندرية، ولكن لسبب ما لم أفهمه بعد، يطلب الأمر، كما يشير الجهاز، ست ساعات كاملة للوصول إلى وجهتي! لم يكن هناك مجال للتساؤل. على كل حال، أيًا ما كانت حالة هذا الطريق، عليّ أن أقطعه اليوم قطعًا إن أردتُ الالتزام بجدول الرحلة المُعد مسبقًا، حتى لا تتأثر مواعيد رحلات الطيران التي ستحملني إلى أرض الوطن خلال أيام.

ألقيت أمتعتي في غرفة استقبال الفندق الصغيرة، ودفعْتُ حسابي، ثم خرجت لتجهيز (الشاه كابور). كان موعد تغيير الزيت قد حان، ولكن المكابح والكاوتش في حالة طيبة. من حُسْن الحظ أن آلية نقل الحركة هنا لا تعتمد على سير حديدي، وإلا استدعى ذلك عملية مرهقة من التنظيف والتشحيم كل خمسمئة كيلومتر تقريبًا؛ أي بصورة شبه يومية في مثل هذا النوع من الرحلات الطويلة.

مرّت الكيلومترات الثلاثون الأولى في سلام، قبل أن أشعر بثقل طفيف في توازن الموتوسيكل جهة اليسار، دفعني لأمد يدي من خلفي لأتحسّس الحقيبة الكبيرة المربوطة على المقعد الخلفي، فقط لأتأكد من صدق حدسي. كانت الحقيبة تميل بشدة على الجانب الأيسر من الموتوسيكل، وقد أوشكت على السقوط عنه تمامًا. توقفت إلى جانب الطريق، وشرعت في إعادة ربطها مرة أخرى. من حُسْن الحظ أنها وقعت على الجانب الأيسر، فلو كانت قد تدلت من الجانب الأيمن للامست ماسورة العادم واحتترقت!

لم تمض لحظات حتى وجدت موتوسيكلًا من طراز (رويال إنفيلد)، بل ومن نفس موديل (البوليت) مثل (الشاه كابور) يتقدم مِنِّي سائرًا عكس الطريق. ترجّل عنه شاب ثلاثيني

ضخم الجثة، يرتدي سترة حماية تزينت بالعديد من الشارات والدبابيس المميّزة لمن ينتمي إلى نادي للموتوسيكلات أو Motorcycle club. نزع الشاب خوذته، وأرعى عن وجهه منديلاً قماشياً مزيئاً بالجماجم ليكشف عن لحية كثيفة، ثم تقدم مني مُتسائلاً، إن كان هناك مشكلة؟ تقدم (عبد الرزّاق)، أو (عبدول) كما عرّف نفسه في البداية لمساعدتي على الفور، فأحكمتنا معاً ربط الأحزمة مرة أخرى.

يطغى فوق صوت حديثنا الصخب المصاحب لمرور مجموعة من الموتوسيكلات متباينة الموديلات -وإن غلب عليها (الرويال إنفيلد) بالطبع- بجوارنا. كان الدراجون يسرون في خط مستقيم، على مسافات شبه متساوية من بعضهم البعض، وقد ارتدى كل منهم سترة أو صديرية سوداء، مصنوعة من الجلد، تزينها الشارات الملونة المختلفة، بينما تُزيّن ظهر كل منهم شارة ضخمة، تحمل صورة موتوسيكل يحيطه اسم النادي الذي ينتمون إليه بخط عريض متقوس. يُطلق على هذه المسيرة عادة اسم (تشكيل) أو Formation. وهي طريقة تنظيمية هدفها الأول توفير الحماية للمجموعة على الطريق. يتخذ فيها عدد من أفراد المجموعة أدواراً محددة، فمنهم (قائد الطريق) الذي يكون هو الدراج الأول في ترتيب الصف، ومنهم (الذيل) وهو الأخير، ثم هناك عدد قليل يسرون بمحاذاة التشكيل في حركة حُرّة، مهمتهم منع المركبات الأخرى من اعتراض المسيرة، وهؤلاء يطلق عليهم (المانعون) Blockers أو (الكثّاسون) Sweepers.

كانت تلك هي الصورة النمطية لأغلب نوادي الموتوسيكلات حول العالم، بكل رموزها الثقافية من شارات وإشارات وتشكيلات، في تقليد بدأ في الولايات المتحدة في بدايات القرن العشرين، واستمر حتى يومنا هذا حتى صار في كل بلد حول العالم مجموعات متنوعة من تلك النوادي، بل أحياناً ينقسم النادي الواحد إلى عدد من الفصائل أو Chapters، ليكون لها وجود محلي في عدد مختلف من المدن أو الدول. تنقسم هذه النوادي حسب موديل أو ماركة معينة للموتوسيكل الذي يركبه أعضاؤها، وأشهرها على سبيل المثال نوادي (مالكي الهارلي دافيدسون) Harley Davidson Owners، أو ال

HOGs اختصارًا، أو حسب نوعية النشاط الذي يمارسه أعضاؤها مثل القيادة في المناطق الوعرة Off-road أو رحلات المسافات الطويلة Touring أو المغامرات Adventure.

أخبرني (عبدول) بأنني قد فوت للتو (أسبوع الموتوسيكل) أو Bike Week الذي يقام هنا في الأسبوع الأول من ديسمبر كل عام، وهو تجمهر ضخم، يتوافد خلاله أعداد كبيرة من الدراجين والمهتمين بالموتوسيكلات ومُصنّعيها، الذين يتخطى عددهم العشرين ألفًا أحيانًا، على ولاية (غوا) الساحلية على الاحتفالية التي تستمر لمدة يومين متتاليين، تقام خلالها عروض فنية ورياضية وترفيهية متنوعة، إلى جانب عرض حي لأحدث موديلات الموتوسيكلات.

كان (البايك ويك) تقليدًا أمريكيًا آخر، انتشر مثله مثل الثقافة التنظيمية للموتوسيكلات التي شرحتها للتو حول العالم عبر عدة عقود، وإن كان في أمريكا يبلغ عدد المشاركين فيه مئات الآلاف من الدراجين والمنظمين، وتقام فيه عدد من السباقات الاحترافية كذلك. في مصر، تقام تلك الاحتفالية -في نسخة محلية مصغرة بطبيعة الحال- تحت تأثير قلة عدد الدراجين والمحدودية الاقتصادية لسوق الدراجات في مصر بوجه عام- في يوم الجمعة الأول من شهر أبريل، تزامنًا مع (يوم اليتيم)، في مفارقة أجدها هزلية ساخرة لفرط دلالتها السوداوية، حين يقترن اليوم المُختار بنشاط يشتهر بتيتيم الأبناء وترميل الزوجات!

عرض (عبدول) أن يتقدم طريقي، توفيرًا للصحة والحماية، فقد كان لنا نفس الوجهة على أي حال. هكذا ينطلق الموتوسيكلان الشقيقان على الطريق مرة أخرى في تشكيلة موتوسيكلات صغيرة مُرتجلة. يستخدم (عبدول) يده الحرّة وقدميه طوال الطريق في إشارات تنبيهية متعارف عليها دوليًا للدراجين، فيشير بقدمه اليسرى إلى بالوعة على جانب الطريق، ويلمس يده برأسه ثم يشير إلى جهة اليمين بمعنى «انتبهي للجهة اليمنى» عند مرورنا بمفترق طرق. تتكرّر الإشارات في تتابع مع مرورنا بمنطقة وعرة من الطريق، حتى يبدو للسائرين وكأنه يمارس رقصة ما فوق الموتوسيكل أو يقوم بطقس من طقوس الشعوذة!

افتقرت عن (عبدول) بعد ستين كيلومترًا تقريبًا، فقد توقف عند إحدى الإستراحات على جانب الطريق طلبًا للراحة وتناول القهوة، بينما قررت التقدم حتى لا يسرقني الوقت، فالرحلة أمامي ما زالت طويلة. كانت الساعات الثلاث التالية مُرهقة بحق، وقد أدركتُ أخيرًا سبب استغراق المسافة لكل هذا الوقت المبالغ فيه. كان هناك عدد لا حصر له من الإصلاحات والتحويلات على مسافات متباعدة من الطريق، إلى جانب مروري بالكثير من المرتفعات والمنحدرات الملتوية، أضف إلى ذلك الكثير والكثير من سيارات النقل الثقيل التي تجري بجنون في كلا الاتجاهين مع قليل من الاعتبار لأي مركبة أقل منهم حجمًا! كل هذا فرض عليّ تقليل سرعتي إلى النصف أحيانًا، فصارت المئة كيلومتر تستغرق نحو ساعتين كاملتين.

رأيتُ الموت بعيني عدّة مرات اليوم في صور متنوعة. من بينها مرة في صورة سيارة نقل تسير بشكل مخالف، وتتقدم نحوي مباشرةً لتدفعني إلى جانب الطريق الترابي حتى كدت أسقط بعُنف لولا ثبات يدي فوق المقود، ومنعي لنفسي من كبح الفرامل فوق التراب الناعم. ومرة أخرى في صورة منعطف شديد القسوة، يقع على قمة تل شديد الانحدار، مال معه (الشاه كابور) ميلًا شديدًا حتى كاد يسقط. بمعجزة ما نجحت في تثبيت قدمي في الأرض بقوة لأمنعه من السقوط، وتطلب الأمر عدة محاولات، مع التوقف بينها لالتقاط أنفاسي، قبل أن أستجمع عزم قوتي لأرفعه مرة أخرى إلى وضعية مستقيمة، بينما يطغى صوت دقات قلبي على لهائي خوفًا من ظهور أي مركبة من الزاوية العمياء لقمة التل لتكتسحني في طريقها في أي لحظة.

بحلول الحادية عشرة صباحًا، وبعد ثلاث ساعات من القيادة المتواصلة، ما زلت لم أتخطّ حدود ولاية (كارناتاكا)! كانت الحرارة قد ازدادت، وثقل السترة الواقية يزيد من حرارة جسمي أضعافًا. تذكر أن السترات المخصصة لقيادة الموتوسيكلات مصنوعة من خامات قماشية خالية من المسام، حتى لا تسمح بمرور الرياح من بين ثنياتهما! لذلك فمع الحرارة يصبح الوضع له تأثير البيت الزجاجي إلى حد ما، حيث لا منفس للهواء لا إلى الداخل ولا إلى الخارج. لم أتوقع حقًا أن يكون الجو بهذا السوء، بل انشغلت باتخاذ تدابير الوقاية من

الأمطار عن التحضير للجو الصيفي الحار. على الأقل كنت تجهزت بسترة وقاية صيفية عوضًا عن هذه. تذكرت أن السترة تحمل طبقة حرارية داخلية قابلة للخلع، فتوقفت للحظات على جانب الطريق لأخلعها. كنت قد اقتربت من مدينة (جوکارنا)، وهي التي تشتهر بإحدى القلاع الأثرية على الطريق. هل أتوقف لزيارتها كما خططت مُسبقًا أو أستكمل الطريق قبل أن يزداد وضع الجو سوءًا مع اقتراب الظهيرة؟

أتحجج بالسماح لـ(الشاه كابور) بالحصول على قسط من الراحة، ولكن الحقيقة التي لا أنكرها أنه الفضول والرغبة في عدم تفويت أي مشهد في الرحلة قد تغلبا على الإرهاق والحرارة والجوع معًا؛ مما دفعني لأضع قلعة (مِرچان) وجهتي على الـ GPS، وأتحرك مرة أخرى. لم تمض ربع ساعة حتى انحرفت إلى طريق ترابي فرعي، يتلوى بين مروج خضراء ناحلة حتى يصل إلى هيكل القلعة الضخم، المختفي خلف أسوار عالية، بينما يُرفرف علم الهند فوق أحد أبراجها.

أمرٌ بمجموعة من طلبة المدارس يصطفون وراء معلمهم، منتظرين بصبر نافذ وضيق من الحرارة دورهم في الدخول. قبل البوابة بيضعة أمتار كشك صغير لبيع الأطعمة الخفيفة يضع أمامه ثلاثه مفتوحة، تحمل زجاجات من الليمون المعبأة محليًا. عند هذا الحد تنهار مقاومتي. لم يكسرها التعب أو الجوع أو ثلاث ساعات من القيادة المتواصلة، بل كسرتها زجاجة مجهولة الهوية من الليمون المثلج في مثل هذا الجو الحار شديد الرطوبة!

بعد أن فرغت من تناول الليمون الذي أعاد إلى روعي ذاتها انتعاشًا مفقودًا، اتبعت جمهور الوافدين على القلعة عبر بوابة حجرية ضخمة، تفضي إلى ساحة صغيرة تحيطها الحوائط الحجرية المرتفعة من كل الجهات. بدت الساحة وكأنها مصيدة، وربما كان الهدف منها كذلك بالفعل، أن تحبس من ينجح من الغزاة في عبور أسوارها الخارجية وبوابتها في أرض منخفضة، حتى يتمكن من كان بالحامية -أيًا كان- من الانقضاض عليهم من فوق الأسوار.

كان تصميم القلعة فريدًا حقًا، متاهة حقيقية من الممرات، والخنادق المبطنة بين الأسوار المزدوجة، وأبراج المراقبة الدائرية الشبيهة بقطعة (الطابية) أو (القلعة) في لعبة الشطرنج. بل بدت تلك الأبراج كما لو كانت النموذج الأصلي الذي صممت على شاكلته كل قلاع لعبة الشطرنج. من المفارقة هنا أن الشطرنج أصلًا لعبة اخترعت في الهند؛ لذلك ففرضيتي ليست بعيدة تمامًا عن الحقيقة! أما السمة الغالبة على وصف قلعة (مرجان) فهي أنها تتلحّف في كل شبر منها بالحشائش الخضراء الكثيفة، التي تغطي أسوارها وجدرانها بصورة كاملة، حتى تبدو لطيور السماء وكأنها نبتة عملاقة تنبتق من الأرض.

نيودلهي - نوفمبر 2007

ينطلق بنا التاكسي في شوارع العاصمة شديدة الازدحام، لنمرّ بجوار قلعة عظيمة الأسوار، ذات لون أحمر قرميدي، ويحمل اسمها لونها ذاته، فتسمى (القلعة الحمراء). يحف بوابتها بُرجان، تعلو كل منهما قبة إسلامية المعمار، وهو أمر ليس بغريب، لأن المهندس الذي بنى القلعة هو ذاته من بنى أيقونة المعمار المغولي الإسلامي بالهند؛ (التاج محل)، وبأمر من صاحبها (الشاه جاهان) كذلك! فوق هذه البوابة تحديدًا رفع (نيهرو)، أول رئيس وزراء للهند المستقلة، علم الهند بألوانه الثلاثة، البرتقالي والأبيض والأخضر، للمرة الأولى بعد استقلال الهند عن الحكم البريطاني عام 1947. من يومها والهند تحتفل كل عام، في مثل هذا اليوم، الخامس عشر من أغسطس، بعيد الاستقلال، وذلك برفع رئيس وزرائها للعلم فوق القلعة الحمراء.

بالقرب من القلعة، ينحرف بنا السائق إلى شارع شديد الازدحام، حتى إن السيارة أخذت تتحرك فيه شبرًا شبرًا من فرط تزاخم السائرين فيه. كانت هذه المنطقة -المشهورة باسم (تشاندي تشوك)- هي أكثر أحياء الهند ازدحامًا وشعبية، فهي سوق شعبية كبيرة، تعج بصنوف وألوان من المحلات التجارية، بينما يفترش الباعة كل سنتيمتر مربع من المكان عارضين بضاعتهم من كل الأصناف والألوان للرائح والغادي. وهي سوق قديمة قدم كل

الآثار المحيطة به، فقد أنشأها أيضًا (الشاه چاهان) في القرن السابع عشر لتكون مركزًا اقتصاديًا ضخمًا بعاصمته الجديدة للبلاد، المعروفة اليوم باسم (دهلي القديمة).

صف السائق سيارته في ساحة انتظار قريبة، ثم أشار إلى موقف تجمعت فيه عربات (الركشة). يلمحنا أحد قادة العربة البدائية ذات العجلات، فينادي تجاهنا بصوت جهوري: «چاما ماسچيد.. چاما ماسچيد». بدأ أن (الريكشة) هي السبيل الوحيد لزيارة المسجد القريب، الذي يعرف باسم (المسجد الجامع)، أو (مسجد الجمعة) في روايات أخرى، ما لم نرد الخوض سيرًا على الأقدام بين هذا الطوفان من البشر الذي يمتد لمسافة لا تقل عن كيلومتر كامل حتى بوابة المسجد المهيمن من فوق ربوة عالية فوق السوق.

انحشرت أنا وأمي في المساحة الضيقة من العربة الشبيهة بعربة الحنطور، وإن كان يجرها هنا عوضًا عن الحصان دراجة هوائية صدئة، يجاهد سائقها المسكين، نحيل الجسد، لتحريكها بصعوبة. أخذ الطريق في التصاعد لربع ساعة تقريبًا. يتصاعد الطريق، وتتصاعد أنفاس الرجل المسكين تحت وطأة وزننا الثقيل، حتى كاد يلفظ آخرها أمام أولى الدرجات الحجرية المؤدية لبوابة المسجد العظيم.

المبنى العظيم بأسواره الحمراء الشبيهة بأسوار القلعة القريبة، وكأنهما توأمان انشقت الأرض ففصلت بينهما، تزين واجهته أقبية بيضاء، وثلاث قباب مستديرة مغولية الطراز. كانت له ثلاث بوابات، من الشمال والشرق والجنوب، مسورة بأبواب حديدية خضراء تحمل أسماء عربية، مكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية، منها (باب عبد الغفور) و(باب عبد الله). خلعنا الأحذية بجوار الباب، ثم دلفنا إلى صحن المسجد المفتوح، الذي يتوسطه حوض كبير مربع من المياه. مررت بجواره، فلم يفزعني مشهد المياه الراكدة كمياه البرك وما يغطي سطحها من فضلات الحمام والعصافير المنتشرة بكثرة في سماء المكان، بقدر ما هالني مرأى ذلك الهندي الشاب الذي مَدَّ يدهُ في هذا الماء ليغتسل، مُبعدًا بيده الفضلات في سلام نفسي يُحسد عليه!

تنتهي زيارتنا للمسجد سريعًا، فلم تتمكن أُمي من الصلاة بالداخل كما أرادت؛ إذ علاوة على تشكُّبها العام في نظافة المكان، لا سيما بعد ما رأته من الفتى الهندي المتوضىء بمنقوع فضلات الطيور، اكتشفنا أنه لا يوجد بالداخل مكان للنساء، فالنساء في الهند لا يُسمح لهن بالصلاة في المساجد، بل هي حكر على الرجال فقط دون النساء! نعود إلى البوابة لنجد سائق الركشة الوفي في الانتظار. تنظر أُمي إلى الرجل بأسى، وتقول له مازحة باللغة العربية التي لم يفهمها حتمًا: «معلش يا ابني، قدرك تجر البقرتين دول ثاني النهارده، ربنا يديك الصحة!».

كاناكونا - ديسمبر 2019

بعد زيارة قلعة (مرجان) أعود مرة أخرى لاستكمال الطريق، بعد أن هدأت حرارة جسدي وحرارة (الشاه كابور) كذلك، لأصل بعد ساعتين آخرين إلى إقليم (جوا). هنا تصير الأجواء أكثر هُدوءًا وأقل وعُورة. سيارات النقل الثقيل قد اختفت، وصار الطريق أوسع وأكثر استواءً. ثم بدأ ساحل بحر العرب يظهر مرة أخرى إلى يساري، تحدُّه غابات صغيرة من النخيل والأشجار.

أنفصل عن (طريق 66) عبر طريق فرعي، يحملني إلى شوارع مدينة (كاناكونا) Canacona الممهَّدة. لم يمض وقت طويل حتى ازدادت الشوارع ضيقًا، وانتشر السياح من حولي من كل جنس ولون، يتهادون في ملابس صيفية فضفاضة ونعال خفيفة بين لافتات المحال والفنادق الصغيرة. لحظات وانتهيت إلى شارع أخير مزدحم، تصطف على أحد جانبيه المطاعم والمتاجر السياحية، وقد ظهر في نهايته شاطئ رملي فسيح.

كانت هناك ساحة انتظار كبيرة على حدود الشاطئ مباشرة، وإن كانت غير مجانية هذه المرة. لم يكن هناك مكان آخر لأترك فيه (الشاه كابور) على كُُلِّ حال. فصففته بصعوبة بين العشرات من الدراجات الأخرى التي غطت أرض الساحة بالكامل حتى صارت الحركة بينهم شبه مستحيلة.

أحمل أمتعتي الثقيلة وأتوجّه إلى الشاطئ في حماس. يمينًا ويسارًا تمتد الرمال الناعمة لمسافة ميل كامل، بينما تطل عليها أكواخ خشبية، وقد تلون كل منها بلون مميز، وحملت أسماء نُزل متعددة، تُظللها في الخلفية أشجار جوز الهند العالية في مشهد بانورامي رائع. أبحث بعيني بين اللافتات عن نُزل يدعى (براندون). سألت أحد المارة الهنود وقد أوجت لي ملابسه بأنه من العاملين بالمكان، فأشار إلى ناحية اليمين. وجدته أخيرًا بعد ثلاث دقائق مرت ببطء ثقيل تحت حمل الأمتعة والخوض بصعوبة في الرمال الناعمة.

الواجهة الأمامية للنزل تحتلها موائد طعام خشبية، تعلوها مفارش قماشية تآكلت أطرافها بفضل الرطوبة والأملاح، وقد جلس بعض النزلاء هنا وهناك يتناولون الطعام والمشروبات المثلجة. يبدو أن كل النزل هنا صمموا على نفس الشاكلة، المطاعم تحتل واجهاتها، بينما شُيدت من ورائها الغرف في باحات محدودة المساحة على خلفية غابة من أشجار جوز الهند والنباتات الساحلية. جاءت حجرتي وسط ست حجرات خشبية أخرى في الساحة الرملية الخلفية للنزل، مستقلة بذاتها، تبدو أقرب إلى سقيفة خشبية كبيرة، تتمتع بسرير ضخم، وحمّام خاص نظيف.

لا أطيع الانتظار، لا أكرث حتى بموعد الغذاء الذي كاد ينقضي. أتخلص من ملابسني المختلطة بالعرق وعفرة الطريق دفعة واحدة، وأندس في ثوب السباحة، ثم أهرول إلى الشاطئ مرة أخرى. أخوض في مياه البحر بإقدام يشجعه دُفء المياه. كان هادئًا، يكاد يخلو من الأمواج، والمياه صافية، يميل لونها إلى الخَضار. أستلقي على ظهري في سكون، إلى أن تلمح الشمس وجهي بأشعتها الحارقة. أغطس رأسي تحت المياه ثم أرفعها لأتأمل مشهد الشاطئ البعيد، بخلفيته الملونة الزاهية. كان يتخذ شكلاً هلالياً، تحده الصخور السوداء من طرفيه، وتتناثر على رماله زوارق الصيد الملونة كأنما طرحها البحر هناك بغير انتظام أو ترتيب.

يحمل الشاطئ اسمًا ذا وَفَعٍ مثير للضحك على الأذن العربية. (بالوليم). استغرق مني الأمر عدة محاولات حتى تمكنت من نطقه بشكل صحيح، ودون أن أتبسّم ضاحكة في كل مرة.

هو في الأصل اسم قرية للصيادين ما زال يسكنها أهلها ويمارسون نشاط الصيد بشكل أساسي برغم هذا الاكتساح السياحي لواجهتها الساحلية.

- «مرحبًا».
- يفاجئني الصوت في أثناء استلقائي على صفحة المياه فينتزعني من لحظة استرخاء طويلة. أعتدل لأواجه زوجين ستينيين يبتسمان في ودِّ الزوج يستلقي على مرتبة هوائية بينما تتعلق الزوجة بطرفها وهي تداري عينيها خلف نظارة سوداء ضخمة اتقاء لشمس الظهيرة اللامعة. سألاني: من أين أتيت؟ وقد ظنًا في البداية أنني هندية. حسنا، لم يكونا أول من يظن ذلك ولا آخرهما، فلامحي المصرية وشعري الأسود وبشرتي المائلة إلى السمار تتشابه إلى حد بعيد مع أغلب فتيات الهند لا سيما سكان الشمال. قلتُ في عفوية: إنني من مصر. وعلى الفور لاحظت تلك النظرة الخاطفة التي تبادلها الزوجان. لم يكن عليّ أن أسأل حقًا لتأكد مما أيقنّته بعد هذه النظرة بشأن جنسيتهما، لكنني سألت على كل حال. مع ذلك اقشعر جسدي حين نطقا بالاسم: (إسرائيل)!
- هل كنتُ أتفادى الاختلاط بهؤلاء في معسكرات سيناء الحبيبة طول السنوات الماضية، فقط لأقابل زوجين منهم هنا في جنوب الهند وفي شاطئٍ يحمل اسما مضحكا كـ(بالوليم) دونًا عن كل جهات الأرض؟! قررتُ مجازاة أولاد العمّ على مضض. إن الفصل بين هويتي المصرية والعربية التي تربت على كراهية الكيان الصهيوني أبا عن جدّ، وبين إنسانيتي المجردة التي اخترت لها أن تتقبل كل البشر بغض النظر عن ديانتهم أو ثقافتهم أو هويتهم السياسية، صار عسيرًا بحق أمام هذه اللحظة التصادمية بين هويتانا. شعرت في هذه اللحظة، التي بدأت بمجرد رغبة صادقة في الاسترخاء في المياه، بأن كل قناعاتي الشخصية ومعتقداتي قيد اختبار.
- كان الرجل، الذي عرّف نفسه باسم (زفيكا)، من أصل نمساوي، يظهر ذلك في ملامحه الأوروبية الخالصة، بشرته البيضاء الناصعة ووجهه المتورد وعينيهِ الزرقاوين. بينما المرأة عربية الأصل حتمًا، ترى أصولها المغربية في بشرتها السمراء، وشعرها الأسود

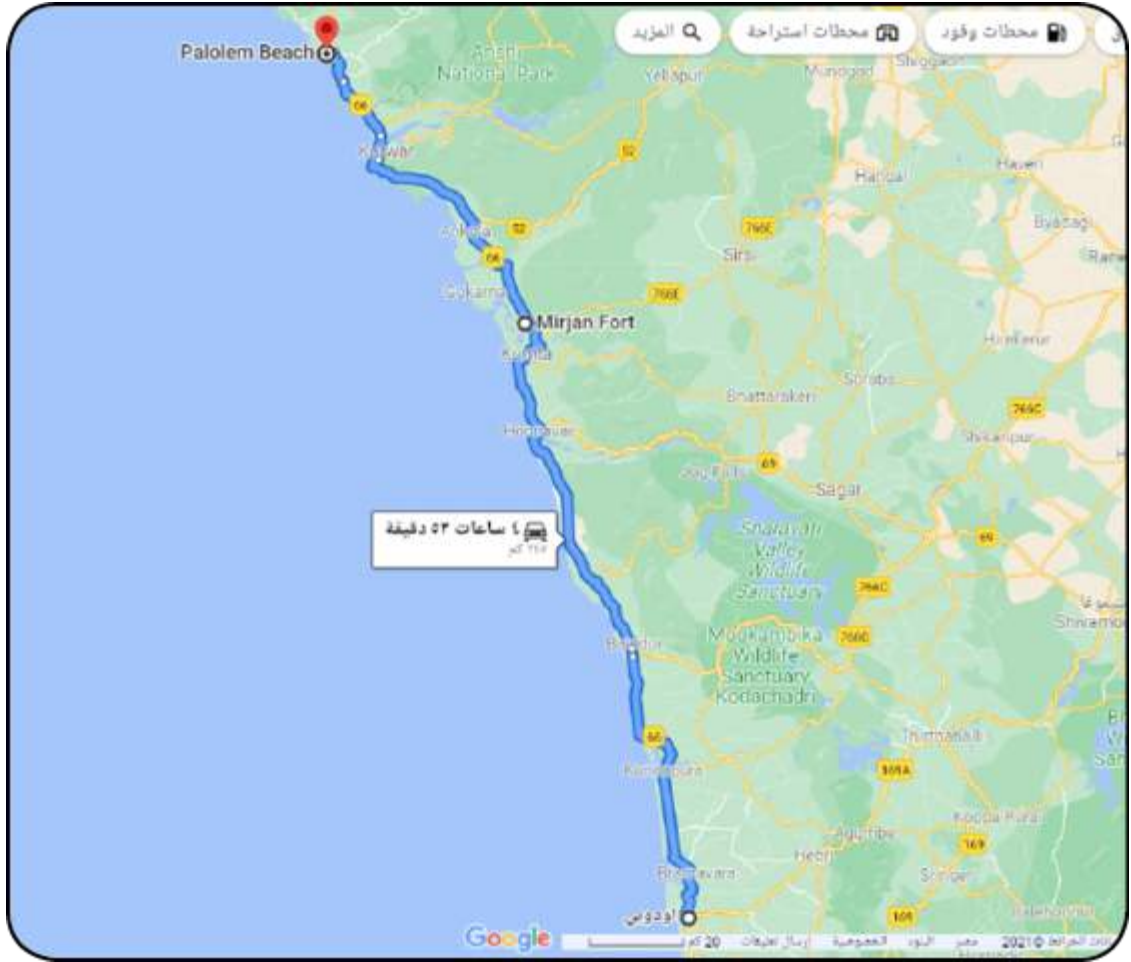
المُجَعَّد الذي تتخلله شعيرات بيضاء طويلة، بينما عكس اسمها كذلك مسحة عربية، فهي (رُخامة)، قالت لي إنه مشتق من كلمة (رحمة). يتواصل صراعي النفسي على خلفية حكايات (زفيكا) عن زيارتهم المتعددة إلى الهند. فهم يأتون إلى هذا الشاطئ بالتحديد، وينزلون في نفس الغرفة، في ديسمبر من كل عام، في طقس لم يتوقف منذ خمسة عشر عامًا كاملة!

- بعد قليل، أستأذنهاما للتوجه إلى غرفتي لنيل قِسط من الراحة. أتففس الصعداء لتخلصي من عبء الإحساس غير المبرر -أو ربما هو مبرر بشكل أوضح من قدرتي على الاستيعاب- بالذنب من التواصل مع أولاد العم بهذا الشكل الحميمي القريب غير المألوف، وغير المريح بالتأكيد. لا أحمل أي ضغينة حقًا بشكل شخصي ضدكما بالذات، فقد وُلدا وتربيا وعاشا كل هذا العمر المديد على أرض واحدة لم يعرفا غيرها، هل ذنبهما أنها أرض مُغتصبة منذ واحد وسبعين عامًا؟! أي ما يفوق عدد سنوات عمرهما! قواعد الإنسانية تُحتم عليّ أن أتعامل معهما برقي ولُطف، طالما لم يعتديا عليّ. ولكن من الذي اعتدى على سيناء إذن حين كانا صغارًا؟ ألم يكن أبأؤهما؟ ومن قتل محمد الدرة وغيره من شهداء القضية الفلسطينية؟ ومن قصف وقتل وشرّد آلاف الفلسطينيين على مدار العقود الماضية؟ ألم يكن ذلك على مَسْمَع ومشهد منهما وهما آمنان في بيت لا حَقَّ لهما فيه بحكم التاريخ؟ يبدو أن هذا الصراع النفسي بداخلي سيظل غير محسوم إلى الأبد، مهما فكرت فيه باستمرار وتقلبيه على كل الوجوه. لذلك قررتُ أن أنسى أمرهما تمامًا، وأنفض عني كل ذلك، لأعود للاستمتاع بما تبقي من ساعات اليوم في إجازتي الساحلية القصيرة هنا.
- أعود إلى غرفتي للحصول على قِسط من النوم. صحوثُ بعد ساعتين وقد مالت الشمس إلى المغيب. أخرج إلى الشاطئ مرة أخرى للتمشية وتأمل الشمس الغاطسة في بحر العرب من وراء الصخور. قادتني قدمي إلى الممشى السياحي المزدحم بالمطاعم والمتاجر، حيث تركت (الشاه كابور) منذ ساعات. كان هناك مطعم يُقدّم المأكولات التبتية -نسبة إلى إقليم التبت بـ(نيبال)- وكانت تجربتي الجيدة مع الأكل التبتية قبل يومين، حين كنتُ في زيارة الدير إياه ببلدة (كوشالناجار)، حافزًا لي

لتجربة المزيد هنا. لم يخب ظني هذه المرة أيضًا، فقد كان طبق الـ (مومو) Momo - وهي لفائف محشوة بالخضراوات واللحم المفروم، وتُقدم من صوصات متنوعة من التمر الهندي والصويا- لذيذًا فوق التصوّر، حتى إنني طلبت طبقًا آخر. أول وجبة مُشبعة ومُرضية تمامًا منذ ما يزيد على الأسبوع!

- بعد العشاء المبكر، عُدتُ إلى التزل مرة أخرى، فأحضرتُ كتابًا وجلستُ على شرفة المطعم. طلبت شايًا؛ شايًا هنديًا أصيلًا بالحليب، لأقضي ما تبقى من الأمسية في قراءة هادئة على أضواء الشموع وعلى خلفية مشهد البحر الساحر، وقد تكسر ضوء القمر على سطحه مُخلِّفًا آلاف المصابيح الصغيرة الطافية في سكون مع تياره الهادئ.

# خريطة اليوم



# ألبوم الصور



قلعة (مرجان)



قلعة (مرجان)



شاطئ (بالوليم) - غوا



بالقرب من (كاناكونا) - غوا



شاطئ (بالوليم) - غوا

# تحية إلى الملكة

بالوليم - ديسمبر 2019

في الصباح التالي لوصولي إلى شاطئ (بالوليم) أستيقظ في تمام الساعة صباحًا. لم أضبط منبهًا، ولم يكن أمامي أي مهام أتطلع إليها، بل كان اليوم يُعدُّ الإجازة الوحيدة المخصصة للراحة التامة بين كل أيام الرحلة الشاقة. تبًا للساعة البيولوجية الخرقاء التي لا تفسح لي مجالًا للاسترخاء حتى في أيام الراحة المفترضة!

أعجز عن النوم مرة أخرى، فأقوم لأرتدي بعض الملابس الخفيفة وأخرج للتمشية على الشاطئ. تدبُّ الحياة بالمكان رغم الساعات الأولى من الصباح. زوارق الصيد قد تراصت على الشاطئ، في أزواج أو أفراد كل بضعة أمتار. بعضهم ما زال محمولًا على أكتاف الصيادين الذين عادوا للتو من البحر. يخرجون في الخامسة فجر كل صباح، ليعودوا بعد الشروق؛ أي في مثل توقيتنا هذا. هذه الأيام يخرجون مرة ثانية قرب المساء، فموسم الصيد الوفير قد انقضى، وصارَ عليهم الخروج أكثر من مرّة خلال اليوم لسد حاجاتهم من الصيد.

نفر من الأجانب يمارسون رياضة الجري في نشاط، وآخرون قد استقروا في وضعيات اليوجا فوق الرمال الذهبية. عمّال المطاعم قد انهمكوا في رصّ المقاعد والموائد استعدادًا لوجبة الإفطار. عمّال النظافة يدفعون أمامهم بسلال مخلفات كبيرة. في المساء يمكنك رؤية المخلفات والزجاجات تفرش الرمال، وفي الصباح تختفي بفعل هؤلاء السحرة. وكأنها لم تكن هنا أبدًا، ويعود الشاطئ بكرًا كما كان قبل قدوم البشر وتدنيهم لأرضه.

إلى جانب البشر، لم يخلُ المكان من ممثلي عالم الحيوان كذلك. فهناك بقرتان سوداوان، قد اتخذتا موقعًا متوسطًا من الشاطئ، بينما تلهو بقرة صغيرة عمرها أيام معدودة من حولهما في حبور. بدت كأسرة صغيرة سعيدة في إجازة عائلية سنوية! هناك أيضًا مجموعة من

الكلاب، لا صاحب لها، ولكنها تتجمّع في عصابات متفرقة، تسيطر كل منها على جزء من الشاطئ، ولا يُسمح لأحد أفراد هذه العصابة أو تلك بالتعدّي على أرضية عصابة أخرى، وإلا ملأت الكلاب المُعتدى على أرضها الكون نباحًا وزمجرة حتى يرتدع المُعتدي ليعود إلى أرضه. ليت الأمور بهذه البساطة والحديّة في عالم الإنسان. أتذكر أولاد العم وأتمنى ألا أصادفهما اليوم كذلك.

ولكنني فعلت! هذه المرة نتقابل أمام النّزل، لأكتشف أنهما يسكنان في النّزل المجاور لي تمامًا، في غرفة أمامية تطلّ شرفتها على الشاطئ مباشرة. يدعواني إلى تناول الإفطار معهما. أنظر في الساعة وأفكّر. إن أمامي ساعات طويلة من الوحدة هنا. وأنا كائن لا يُطيق الوحدة ولو لساعة. فلأقض بعض الوقت معهم إنن، لأحاول على الأقل تنفيذ هذه المعضلة الأخلاقية بداخلي حفاظًا على سلامتي النفسية. كان (زفيكا) مُسليًا، يهوى السفر، ويمارس رياضة الدراجات الهوائية فوق الجبال، ويحمل في جعبته الكثير من الحكايات والمغامرات، بينما زوجته (رخامة)، تحمل نظرة أمومة حانية، رغم ملامحها الحادة التي ذكرتني بـ(جولدا مائير)، فزاد ذلك من اضطرابي بين تقبّل لهما واستمتاع بدردشتنا الصباحية، وتلك العُصّة المصاحبة لتذكّر هويتهما.

أتناول إفطارًا سريعًا من الشاي والكعك الإنجليزي. أحنقني أن الشاي من نوع (ليبتون) الإنجليزي عديم المذاق. كيف نكون في الهند، ثاني أكبر مُصدّر للشاي في العالم بعد الصين، ويُقدم إليّ شاي يرفض حتى البُسطاء من المصريين تناوله لرداءته، بل يفضلون عليه أنواعًا أخرى محلية أقل سعرًا وألذ مذاقًا مثل شاي (العروسة)؟!

لندن - عام 1920

يقف ذلك الرجل الهندي ضئيل الحجم، ذو الشارب الرفيع، والنظرات الثاقبة الحادة، في ملابس إنجليزية بسيطة، أمام واجهة معرض فخم للسيارات، متأملًا سيارات (الرولز رويس) البرّاقة في استمتاع. يقرر أن يخطو إلى الداخل ليُلقي نظرة أفضل على السيارات التي تعد فخر الصناعة الإنجليزية والاختيار المفضّل لأثرياء الطبقة الأرستقراطية.

يتقدم (چاي سينج) من البائع الأنيق ذي البزة السوداء، ليبادره بإنجليزية سليمة تشوبها لكمة هندية صريحة بأسئلة حول مواصفات كل سيارة وسعرها. ولكن البائع ينظر إلى ملبسه العادية وملامحه الهندية في تعالٍ ثم يخبره بأن عليه الانصراف فوراً، فمثله غير مرغوب في وجوده بالمعرض الأنيق. يستشيط (سينج) غضباً، ولكنه يبتلع الإهانة الشديدة ويخرج من المعرض عازماً على الانتقام، لا من البائع فقط، بل من (رولز رويس) ذاتها!

هكذا يعود (سينج) إلى الفندق الفاخر الذي يُقيم به في لندن، ليطلب من أعوانه طلب زيارة رسمية لحاكم إمارة (ألوار) الهندية إلى معرض (رولز رويس). وفي اليوم المحدد، يقف (سينج) أمام مرآة غرفته، متأملاً في زهو زيه الرسمي المرصع بالمجوهرات، والنياشين التي تعلو صدره، وعمامته العظيمة المزينة باللؤلؤ، استعداداً للخروج. أما في المعرض، فقد صارت التجهيزات تجري على قدمٍ وساق استعداداً للزيارة الملكية المقبلة، ففرش المدخل بسجادة حمراء زاهية، وتراص الموظفين في أكثر ثيابهم أناقة على جانبيها استعداداً لوصول (المهراچا چاي سينج براكار)، الذي لم يُدرك أحدهم أنه هو ذاته الرجل الضئيل الذي طردوه بكل صفاقة في اليوم السابق.

أمضى المهراچا ساعتين كاملتين في المعرض، جرب خلالها السيارتين المعروضة كلها، والكل يتبارى للإجابة عن أسئلته، وبالنهاية أعلن رغبته في شراء كل السيارتين الموجودة، بل ودفع ثمنها نقدًا، بما في ذلك تكلفة الشحن إلى إمارته بالهند. لم يُصدّق موظفو المعرض أنفسهم. لقد باعوا في ذلك اليوم ست سيارات دفعة واحدة!

لدى عودته إلى الهند، أعطى (چاي سينج) أمرًا لجهاز البلدية بالعاصمة باستخدام السيارتين لجمع القمامة. وسرعان ما كانت هناك ستة طرازات جديدة من (الرولز رويس) الأنيقة تجتاح شوارع (نيودلهي) لتجمع القمامة وتحملها بعيداً! حين انتشر الخبر في أنحاء العالم أن سيارات (رولز رويس) صارت تُستخدم لجمع قمامة عاصمة الهند، كانت تلك صفة قوية للعلامة الإنجليزية العريقة، تأثرت بها سمعة الشركة كثيراً، حتى اضطر المسؤولون بها

إلى إرسال تلغراف اعتذار رسمي إلى المهراجا، مصحوبًا بست سيارات أخرى، متوسّلين إليه أن يُوقف استخدام السيارات الأولى في جمع القمامة!

بالوليم - ديسمبر 2019

بعد الإفطار أتوجّه إلى غرفتي لتبديل ملابسني. قررتُ السباحة لبعض الوقت. المياه باردة في تلك الساعات الأولى رغم دفء الطقس بوجه عام. لا أطيق المكوث في البحر لأكثر من نصف ساعة، عدتُ بعدها إلى غرفتي مرة أخرى لأستمع بقليلولة طويلة استمرت ثلاث ساعات كاملة.

حين صحت مرة أخرى كان النهار قد انتصف. يقرصني الجوع بصورة لم أعدها منذ فترة طويلة. قضيتُ الأيام الماضية في انتصار ساحق، أحسد عليه، على غريزة الجوع ذاتها، مهما طالني من إرهاق جسدي وذهني، حيث كنتُ أقضي الساعات الطوال دون طعام، لا ترفعًا مني عنه بالطبع، بل لعدم توافر ما يناسبني منه -أي طعام خالٍ من الشطة- بسهولة، لا سيما مع حركتي المتواصلة من مكان إلى آخر ومن مدينة إلى أخرى. لذلك أجد من الغريب، الآن وقد صرتُ في فترة راحة جسدية تامة، أن أشعر بكل هذا القدر من الجوع المفاجئ.

في السوق المجاور للشاطئ مرة أخرى، أختار اليوم مطعمًا هنديًا. بدا من ازدحام طاولته بالسياح أنه خيار مُفضّل للجماهير هنا. تناولتُ طبقًا من الدجاج المشوي، يشبه الشيش طاووق، وإن كانوا يطلقون عليه هنا (شاشاليك). قررتُ أن أكافئ نفسي على وصولي إلى هذه المرحلة المتقدمة من الرحلة بطبقٍ من الحلوى. قطع من البسكويت، والموز، تعلوهما طبقات من الآيس كريم وغيمة من الكريمة المخفوقة. (تحية إلى الملكة). هكذا يُطلق على هذا النوع من الحلوى. Hello to the queen!

نيودلهي - نوفمبر 2007

تمد (ميهر) يدها بصحن صغير، تُغطّيه مكعبات صغيرة صفراء من الكعك الإسفنجي، وتعلن أنها قد صنعتها خصيصًا من أجلنا. تمد أُمي يدها لتذوق واحدة، قبل أن تلعو وجهها ابتسامة عريضة لتخفي ما تتفوه به شفتاها: «اللللله!.. تقققققرف ما شاء الله!». استبشرت خيرًا واضطرتت تأدبًا أن أمد يدي أنا الأخرى لأتذوقها. كانت (الدوكلا)، وهو ما يطلق على هذا النوع من الكعك، هو أشنع ما تذوقته في الهند حتى يومنا هذا، لم يفرق طعمها الذي لا مذاق له ولا رائحة عن طعم الإسفنج الحقيقي بالفعل!

كان الشكل خادعًا، فتلك لم تكن كعكة بالمرة، بل مجرد طبق جانبي مصنوع من عجين الحمص والأرز! أما الحلوى، فلها مكانة أخرى تمامًا لدى الهنود، شهدتها بنفسني في مواقف مختلفة؛ فالهنود يعشقون حلوياتهم بالفعل، ويقدرونها حق تقدير، فلا يخلو منها منزل في صباح أو مساء، ويتبادلونها دائمًا في كل الأعياد والأفراح والمناسبات. ولك أن تتخيل الحلويات المستهلكة في بلد تحتفل بما يقارب المئة وسبعين عيدًا قوميًا ودينيًا! لا عجب إذن أن الهند تصنف بأنها عاصمة مرض السكري في العالم!

والحلويات الهندية تتشابه إلى حد كبير جدًا مع الحلويات الشرقية، بل إن أكثرها يحمل أسماء عربية كذلك! أذكر منها حلوى تدعى (روسجوللا) -أو (رزقُ الله)- وهي كرات بيضاء من الجبن والسמיד، تغوص في سائل أبيض شديد الحلاوة. و(حلوى الجزر)، التي حُرّف اسمها في الهندية ليصير (ججر هلوى). أما حلوى (چليبي) فهي المعادل الهندي لما نعرفه نحن العرب باسم (زلابية)، وإن كانت تختلف شكلاً وموضوعًا عنها، ف(الزلابية) الحقيقة هناك، أو (لقمة القاضي) كما يعرفها العرب، تُعرف في الهند باسم (جولاب چامون)؛ وهي الحلوى التي تتربع على عرش الحلويات الهندية قاطبة، وعلى عرش قلبي كذلك!

بالوليم - ديسمبر 2019

انقضت ساعات النهار الطويلة ما بين تمشية على الشاطئ، ومراقبة حركة السياح حول المكان، وبين كتابة بعض يوميات الرحلة والتخطيط لليوم التالي. قبل الغروب، أستمتع بسباحة أخيرة في بحر العرب الهادئ، ومن ثم بعد الاستحمام السريع، أستعد لتناول العشاء

على مائدة خشبية صغيرة أمام التُّزل. أستمتع بوجبة أخرى شهية، من الدجاج المطهو بالزبدة والكارى على الطريقة الهندية، والأرز الكشميري المُبهر. لو كان هناك سبب واحد للوقوع في غرام هذا الشاطئ عجيب الاسم، بجانب مناظره الخلابة وبحره الهادئ وأجوائه الكوزموبوليتانية الودودة، فليكن هو طعامه الهندي الشهي الخالي من الشطة على غير العادة!

في المساء، يتوجه جمع كبير من نزلاء المكان إلى الجهة الشرقية من الشاطئ، حيث تقام حفلة صامتة للموسيقى! كيف تكون الحفلة صامتة وموسيقية في نفس الوقت؟ تساءلت في اندهاش. أجباني أحدهم -لا فُضَّ فوه- أن الحاضرين في هذه الحفلات يرتدون سماعات رأس خاصة تلتقط موجات الراديو، فيرقصون على الموسيقى التي يمكنهم هم وحدهم سماعها. تأكَّدتُ من زعمه حين وقع في يدي منشور دعائي للحفل، يفيد أن الموسيقى تُذاع بثلاثة أنواع مختلفة، منها الكلاسيك والديسكو والهيب هوب، على ثلاثة موجات إذاعية مختلفة، وعلى مُرتادي الحفل اختيار موجة الإذاعة المفضلة لديهم فتصلهم الموسيقى المختارة عبر سماعات الأذن. كان الهدف من وراء هذا الاختراع، الذي يحظى بشعبية واسعة على شواطئ (غوا)، هو حماية البيئة من التلوث الضوضائي. وهو هدف نبيل في حدِّ ذاته بالطبع، لولا أن الناظر إلى المحتفلين من بعيد سيحسبهم مجموعة من السكارى أو فريقيًا هرب من عنبر الذَّهان حتمًا!

نيودلهي - نوفمبر 2007

في طريق عودتنا إلى الفندق، وكانت الساعة تقترب من منتصف الليل وشوارع (دلهي) قد خَلَّتْ إلا من قليل من الساهرين، تسألني (ميhero) إن كنتُ أودُّ حضور عُرس هندي كبير، مُعلنة أن ابنة أخت صديقة لها تتزوج الليلة في ساحة عُرس غير بعيدة عن الفندق. تساءلت عن درجة القرب والحميمية بين (ميhero) وخالة العروس، حتى تسمح صداقتهن لـ (ميhero) يجر زوجين من الغرباء -أمي وأنا- إلى عرس الفتاة المسكينة. ولكنني لم أمانع

بالطبع، خصوصًا وأن تجربة الزفاف بالهند من التجارب الفريدة حقًا، كما ننقلها لنا أفلام (بوليوود)!

وصلنا إلى مقرّ الزفاف العظيم، فإذا بنا أمام مساحة شاسعة من الأرض، مسوّرة بسياج قماشي من الألوان الصفراء والبرتقالية الزاهية، بينما امتدت سجادة حمراء طويلة أمام بوابة حديدية مزينة بذات الألوان الاحتفالية. أمام الساحة تقف سيارة لامعة، من طراز حديث، جديدة تمامًا، وقد التفت حولها شريط أحمر قبل أن ينعقد في (فيونكة) ضخمة. سألت (ميhero) عن مغزى هذه السيارة المربوطة كالهدية، فأوضحت أن هذه السيارة هي هدية بالفعل، يقدمها أهل العروسة لأهل العريس كما هو العرف السائد هنا. أكرّر، هذه الهدية مقدمة من أهل العروسة إلى أهل العريس وليس العكس! من المعروف أن زواج الفتاة في (الهند) أمر جَلَل، تكرر له الأمهات حياتهن منذ ولادة الأنثى؛ إذ يُعدُّ تقدّم سن الفتاة دون الزواج عارًا يصيب الأسرة بأكملها. ربما لذلك صار الوضع معكوسًا، فأهل الفتاة هم من يبحثون عن الزوج صراحة، ويبدلون في ذلك الغالي والنفيس، من هدايا وعطايا لإرضاء العريس المرتقب.

تتأبط أمي ذراعي ونسيرُ فوق السجادة الحمراء كالمتهجين إلى حفل (الأوسكار). تستقبلنا صديقة (ميhero) في ترحاب شديد، مصحوب بتوتر من لديها الكثير من المهام الاجتماعية الجسيمة في انتظارها، ثم تقودنا إلى الداخل. يتصدر الساحة مقعدان ضخمان جدًّا، بلون الذهب، هما المقابل الموضوعي لـ (الكوشة) لدى المصريين. على اليسار منهما، استقرت مائدة عظيمة، تمتد لما بدا وكأنه كيلومتر كامل، يحتلها كل من بالحفل تقريبًا من أفراد العائلة وأصدقائهم وجيرانهم وجيران جيرانهم، بينما يتوسطها العريس وعروسه.

يرتدي العريس زيًّا هنديًا تقليديًّا، من سروال حريري ناعم، يعلوه معطف طويل الكمين، يصل إلى ما تحت الركبتين، مشغولًا بخيوط ذهبية في رسومات زخرفية دقيقة. يعرف هذا الزي باسم (شرواني). وقد علّت رأس العريس عمامة ضخمة، مُرّصة بالأحجار الملونة، بينما ينتعل في قدميه حذاء مُذهب مُدبّب الأطراف، يدعى (ماجوري)، ويشبه إلى

حد مريب حذاء (علاء الدين) في القصص الأسطورية! كان الزي مميزًا بحق، جعل العريس يبدو وكأنه حَرَجَ من بين ثنانيا حكايات (ألف ليلة وليلة). أما العروس، فكان رداؤها أشد تميزًا وتفصيلاً، فهو يتكون بصورة تقليدية من ست عشرة قطعة دفعة واحدة، ويعرف باسم (صولا شرينجار)، وهو لا يقتصر على الزي فقط، بل يشمل ألوان الزينة والمجوهرات كذلك، حيث تتدلى قطعة ضخمة من المجوهرات فوق رأس العروس، بينما يترصّع زيناها المكون من قطعتين منفصلين لدى الخصر بالعشرات من القطع البراقة التي تندمج في خيوط ذهبية فوق القماش الأحمر الداكن في براعة، وينسدل غطاء رأس من نفس التصميم فوق رأسها الذي تصبغت ناصيته بالحناء الحمراء القانية، التي تزينت بها يدا العروس وقدميها كذلك في زخارف دقيقة رائعة الجمال.

ما إن نستقر في مقاعدنا، على طرف المأدبة العظيمة، حتى تنطلق الأغاني الهندية الراقصة فجأة، ليهرول الجميع إلى ساحة الرقص المقابلة في سعادة. إن الهنود يعشقون الرقص حقًا، يهز الرجال أكتافهم في سرعة ولياقة، بينما تتمايل النساء بخصورهن العارية من تحت السواري التقليدية الزاهية في حركات تتميز بها الرقصات الهندية بشكل خاص.

بالوليم - ديسمبر 2019

مضى اليوم في (بالوليم)، على طول ساعاته، قليل الأحداث، رتيبًا، ولكنه ساعدني على استعادة نشاطي وصحتي المتداعية بعد إرهاق الأيام الكثيرة الماضية. تنتهي الأمسية الهادئة -وكل الشكر هنا لمنظمي الحفل الصامت- في تمام العاشرة حين خلدت إلى النوم استعدادًا للقاء (الشاه كابور) مرة أخرى في الغد. لقد أوحشني هذا الشقي بحق، أحن إلى صوت تكات محركه المزعجة ربما بنفس مقدار اشتياقي لموتوسيكلي الخاص الذي تركته في مصر.

# المدينة البرتغالية

غوا - ديسمبر 2019

أتناول الإفطار الإنجليزي من الشاي والكيك للمرة الأخيرة، في صباح يومي الثالث على شاطئ (بالوليم) الهادئ. أودع بعيني المكان متمنية زيارته مرة أخرى. حان وقت استكمال الرحلة، وقطع الشوط الأخير، بعد كَسَل اليومين السابقين.

كدتُ أعانق (الشاه كابور) عناقًا حميمًا في شغف لقاء الحبيب بعد غياب. أتأكد من مستوى الزيت وصلاحية المكابح والإطارات، وحسن استقرار الأربطة فوق الأمتعة، في روتين الرحلة المعتاد، ثم نتلوى معًا مع شوارع (كاناكونا) في رقصة صباحية ناعمة لم يرَها سوانا، إلى أن أمسكنا بداية الخيط إلى (بانجيم).

(غوا). تلك الولاية التي تعدُّ الأصغر على الإطلاق في الهند، ولكنها الأغنى كذلك. (غوا) بلد المرح والحفلات الشاطئية الصاخبة والكاзиноهات العائمة والثقافة والفنون. لذلك فهي تفتح ذراعيها لمئات الآلاف من السياح كل عام، أغلبهم من الأجانب والطبقة المخملية للهند. هل ترقى العاصمة، التي يطلق عليها أهلها -بلغتهم الخاصة المدعوة (كوكاني) والتي تشربت باللغة البرتغالية عبر عقود- اسم (بانجيم) Panjim، بينما يعرفها بقية العالم باسم (باناچي) Panaji، إلى وصفها المنتشر الذي يشبهها بمدينة (لاس فيجاس) الأمريكية الشهيرة؟

هذه المرة أتخلى عن (طريق 66) الوطني، لأتبع الطريق الساحلي الضيق الذي يخترق المدن والقرى. منحني ذلك فرصة القيادة وسط التلال الخضراء المتدرجة، والأبنية ذات الطراز المعماري الأوروبي الفريد، الغالب عليها اللون الأبيض. هناك عدد لاقت للنظر من الكنائس هنا، مما يتناسب ونسبة السكان المدينين بالكاثوليكية في الولاية والتي تعدت

الربع تقريبًا. تذكر أن هذه المنطقة رضخت للاستعمار البرتغالي على مدار أربعة قرون ونصف كاملة، ولم تنضم مجددًا إلى دولة الهند سوى عام 1961!

أتوقف لاستراحة قصيرة في الطريق، عند قلعة وحيدة منسية، تبدو كجندي أنهكتته الحرب فجلس ليستريح فوق جرف أخضر مخيف قبالة ساحل البحر، في مشهد سريالي لا ينافسه سوى اسمها المثير للخيال: (كابو دي راما) Cabo de Rama. أتأمل الهيكل الخارجي للمكان، بجدرانه الحمراء الكالحة، وخنادقه المغطاة بالطحالب والأعشاب، وأبراجه الأسطوانية، قبل أن أخطو عبر مجوز صغير إلى ما وراء الأسوار العالية. يستقبلني مدفع ضخم، يعلوه الصدا، واحد من 21 مدفعًا تركهم البرتغاليون قبل الرحيل عن البلاد. عن اليسار تقف كنيسة يتباين لونها الأبيض الناصع المؤطر بالأزرق السماوي تباينًا صارخًا مع الحالة المتردية للحطام المحيط بها، وكأنك تقف على خط وهمي يصل بين الماضي والحاضر. كان هناك بعض المصلين يخرجون منها في هدوء يتماشى مع سكون المكان. لا بد أن هذه هي أكثر كنائس (غوا) روحانية، كيف لا وهي مُحاطة بكل هذا الإبداع الإلهي!

درجات حجرية متعددة، تكاد تختفي تحت الطحالب النامية، تحملني فوق أسوار القلعة إلى برجها الشرقي، ليباغتنني المشهد الخرافي لبحر العرب الممتد إلى ما لا نهاية، والغابات الكثيفة الممتدة على ساحله. وقفت مبهوتة، عاجزة عن النطق، لفترة لم أدركم طالت. كان واحدًا من تلك المشاهد التي يقف لديها الزمن مشدوهاً بدوره.

أفقت من شرودي أخيرًا لأعود إلى (الشاه كابور) العزيز فنستكمل الطريق مرة أخرى تجاه (بانچيم). مرّت أكثر من ساعتين، ومشاهد الطريق تتنوع ما بين الغابات الكثيفة، والقرى الصغيرة الناعسة في أحضان التلال، مرورًا بمدينة (فاسكو دا جاما) التي تُعدُّ العاصمة غير المعلنة للإقليم.

وصلت (بانچيم) والساعة تشير إلى الثانية عشرة ظهرًا، وحرارة الشمس قد بلغت مداها، فتعدت ٣٥ درجة مئوية. الشوارع مزدحمة زحامًا لم تألفه عيني بعد، لا سيما بعد يومي العزلة الاختيارية على شاطئ (بالوليم) الهادئ. تعكر مزاجي كمن عاد للتو من إجازة طويلة

إلى زحام العمل اليومي. نسبة التلوث في الجو لا تُخطئها أنفي التي اعتادت الأوكسجين الصافي، ناهيك عن التلوث الضوضائي للسيارات والحافلات المزدهمة عن بكرة أبيها في تلك الساعة من النهار.

تنفّست الصعداء قليلاً حين ألقى بي الموقع الذي أرسله لي (شون) على الطرف الجنوبي الغربي للمدينة المترامية الأطراف؛ إذ وجدت الشوارع في تلك المنطقة هادئة بصورة كبيرة، وإن لم تكن بعيدة عن الطرق الرئيسية. كان مضيّفي (شون) في استقبالني، على أعتاب فيلا أنيقة داخل مجمع سكني بسيط. مرة أخرى لجأت إلى (الكاوتش سيرفينج) فلم يخذلني!

(شون) شاب ودود، نحيل القامة، شديد السمار، تنتمي أصوله إلى إقليم (راچستان)، استقرّ في (غوا) منذ سنوات؛ إذ يمتلك شركة تختص بإدارة العقارات، وقد تفضّل بقبول طلب استضافتي بعد أن وجدنا بيننا اهتماماً مشتركاً بالموتوسيكلات؛ فهو أيضاً يمتلك (رويال إنفيلد)، بل من نوع (البوليت) كذلك. كان هذا الموتوسيكل في لونه الأحمر القرميدي هو أول ما لاحظته لدى وصولي إلى الفيلا بالطبع.

كانت المرة الأولى التي يستضيفني فيها رجل على الإطلاق. كنت متخوفةً بهذا الشأن بطبيعة الحال، ولكن التقارير الموجودة على موقع (الكاوتش سيرفينج) عن (شون) جاءت من أكثر من عشرين ضيفاً زاره من قبل، وكلها تصف التجربة بطريقة إيجابية، وتمدح في حُسن ضيافته وأخلاقه.

بعد جلسة ترحاب قصيرة يصحبها الشاي والبسكويت، قادني (شون) في جولة توجيهية سريعة بالمكان. أشار إلى الغرفة المخصصة لي، وساعدني في حمل أمتعتي إليها. كانت تقع في الدور الأرضي، في موقع متوسط بين الصالة والمطبخ، وتتمتع -لحسن حظي- بحمام خاص. ثم دخلنا إلى المطبخ الواسع، وكانت هناك سيدة ريفية تحتله في ذلك الوقت لتقوم بتحضير الطعام، فأرشدني (شون) سريعاً إلى مكان المياه والشاي وبعض الخبز والبسكويت، حال حاجتي إليهم.

استأذنت مضيبي في الاعتزال إلى غرفتي طلبًا لقسط من الراحة. أفرغت محتويات حقيبتي، وتأكدت من عدم وجود أي كاميرات خفية بالمكان. نعم، هذا وارد بالطبع! توجهت بعدها للاستحمام ثم ارتديت ملابس نظيفة استعدادًا للخروج مرة أخرى، في جولتي السياحية الأخيرة لهذا اليوم.

كانت الساعة قد تعدت الثالثة عصرًا حين وصلت إلى البلدة الأقدم تاريخيًا بالمنطقة والتي يُطلق عليها اسم Goa Velha أو (غوا القديمة) في اللغة البرتغالية. عشرة كيلومترات فقط تفصلها عن (بانجيم)، وقرون من الزمن تفصلها عن يومنا هذا، فقد كانت هذه البلدة هي عاصمة (الهند البرتغالية) إبان فترة الاستعمار البرتغالي لتلك المنطقة في القرن السادس عشر. لم تكن تلك المنطقة من الثقافة البرتغالية باسمها فقط، بل بدت هي ذاتها كقطعة صغيرة من البرتغال زُرعت على هذه الأرض الهندية قسرًا. أيما التفث حولك تراها، في تخطيط الشوارع والبيادين الواسعة، والمباني الكلاسيكية البيضاء، والكنايس الأثرية العملاقة. ربما الشيء الوحيد الذي يُعد في غير موضعه هنا هو وجوه المارة التي تحمل ملامح هندية صارخة لا تخطئها العين!

استقرَّ (الشاه كابور) في منطقة تعجُّ بالسياح، أمام مبنى أثري عملاق، يغلب السواد على جدرانه المشيدة بالطوب الأحمر، بينما تحاول واجهته جاهدة إبراز تفاصيلها الزخرفية المميزة من تحت أكوام الغبار وعوامل الزمن. أعلى الواجهة تستقر جدارية عملاقة، تحمل شعار من ثلاثة أحرف: IHS، يندمج في منتصفه مع شكل للصليب الكاثوليكي. كان هذا هو شعار طائفة (اليسوعيين)، أو (الجزويت)، الذين اقترن اسمهم بالرحلات التبشيرية الموسعة فيما عُرف إبان القرن السادس عشر باسم (العالم الجديد)، وهو -ببساطة ودون الدخول في تفاصيل أخلاقية حساسة- العالم الذي استولت عليه الدول الأوروبية عن طريق الفتوحات الاستعمارية خارج أراضيها، سواء في أفريقيا أو آسيا أو أمريكا اللاتينية. كانت هذه البقعة من الهند، أي (غوا) وما حولها من أراضٍ وقعت تحت سلطة الإمبراطورية البرتغالية، من نصيب الراهب التبشيري إسباني الأصل (فرانسيس زافير) Francis Xavier الذي يعد من الآباء المؤسسين للحركة اليسوعية ذاتها. قضى الراهب اليسوعي

جل حياته في (غوا) البرتغالية، ومنها انطلقت رحلاته التبشيرية إلى كل ربوع آسيا، إلى اليابان والصين وإندونيسيا وغيرها. وبفضل تلك الرحلات وأعماله التبشيرية الموسعة على مدار أعوام طويلة، أُدرج في قائمة القديسين من قبل الكنيسة الرومانية الكاثوليكية بعد وفاته بسبعة وستين عامًا كاملة، بينما حفظت رفاتة في (بازيليكَا يسوع الطيب) Bom Jesus Basilica التي أقف أمامها الآن، لأكثر من 400 عام!

من هنا تأتي أهمية هذه البازيليكَا إنن، ويكمن سر الإقبال الجماهيري الرهيب على زيارتها، فهي إلى جانب كونها أولى المؤسسات الكاثوليكية التي بُنيت على أرض الهند إبان حكم البرتغال، فإنها تُعد كذلك قبلة للحجاج الراغبين في التبرُّك برفات القديس (فرانسيس) الذي يعتقدون بأنه يشفي المرضى. دخلت مع الجموع إلى قاعة الصلاة. الأرض الرخامية تشيع في المكان برودة محبة بعيدًا عن درجة الحرارة المرتفعة بالخارج. يسود الصمت في المكان بينما عدد كبير من الهنود يقفون أمام المذبح ضامين أياديهم في صلوات خافتة. من فوق المذبح يطل عليهم تمثال ذهبي يمثل (إغناطيوس دي لويولا)، Ignatius of Loyola، الراهب اليسوعي الأول وقائد الطائفة اليسوعية الأكبر، بينما طاولة المذبح المطلية بالذهب تحمل منحوتة بارزة تمثل (العشاء الأخير) للمسيح وسط تلامذته. في قاعة منفصلة يقع ضريح القديس (فرانسيس)، بينما تستقرُ رفاتة في تابوت من الفضة الخالصة، في تناقض صارخ مع صندوق النذور القريب الذي يحمل لافتة (تبرعوا للفقراء)!

ألقى نظرة مطمئنة على (الشاه كابور) بعد خروجي من البازيليكَا، ثم أتركه وأعبر الشارع إلى الساحة المقابلة، حيث تحمل لافتة إرشادية ضخمة عنوان (كنائس وأديرة غوا)، بجوار شعار منظمة (اليونسكو) الشهير. كان هذا هو الاسم الجمعي الذي أطلقتته المنظمة على مجموعة متجاورة من الآثار الكاثوليكية تقع قبالة (بازيليكَا يسوع الطيب) عبر حديقة شاسعة مترامية الأطراف. من بعيد تصطف الكنائس والكاتدرائيات في معمارها الأوروبي العريق، في مشهد يحاكي مدينة (فاتيكَا) مصغرة.

عبرت الحديقة الأمامية إلى المبنى الأول، الذي حمل اسم (كاتدرائية سي) والتي تعد الكنيسة الأم ومقعد بطريركية جزر الهند الشرقية، وهي التي أُسست احتفالاً بالانتصار على الجيش الإسلامي لسلطنة (باچيبور) وسقوط حكم (غوا) في قبضة البرتغاليين، لتستمر في حكمهم من بعدها لمدة 550 عامًا كاملة! من المفارقة هنا -بالنسبة لي كمصرية على الأقل- أن تلك الكاتدرائية تحديدًا أُهديت لاسم القديسة (كاترين)، أو (سانت كاترين)، المواطنة الإسكندرية التي حكم أبوها مدينة (الإسكندرية) المصرية في فترة حكم الرومان، والتي يحمل اسمها اليوم الجبل الأشهر في سيناء!

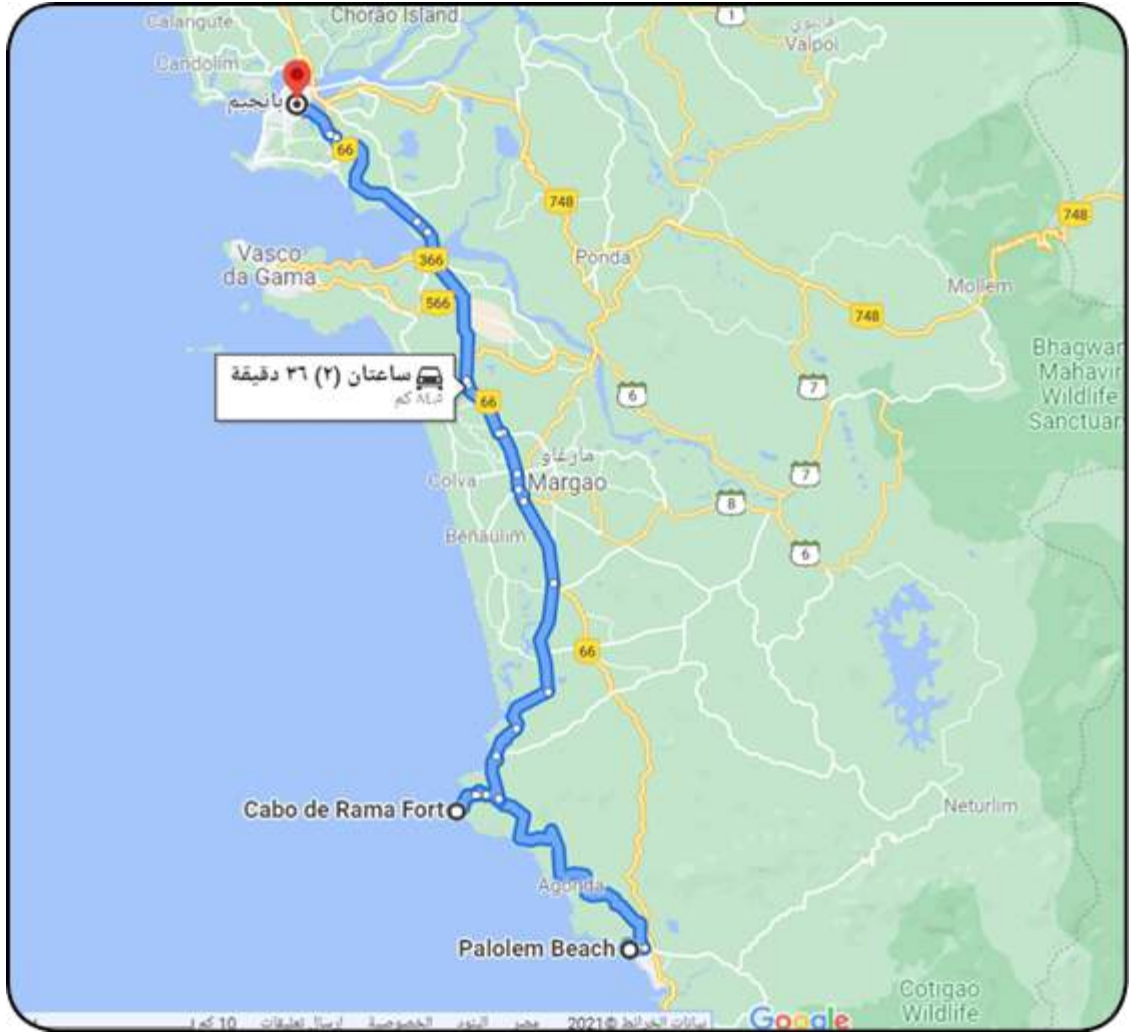
كان هناك عدد آخر من الكنائس الصغيرة والأديرة بالمكان، بعضها مفتوح للزوار وأخرى مهجورة أو محطمة. ولكن الإرهاق قد بلغ مني مبلغه الآن، وأوشكت الشمس على المغيب، فقررت تخطي بقية المنطقة الأثرية، التي بدت لي متشابهة على كل حال، والعودة إلى (الشاه كابور) مرة أخرى لاتخاذ طريق العودة إلى البيت.

عُدتُ إلى الفيلا الصغيرة في المساء لأجد وافدتين جديدتين بالبيت! فتاتان في العشرينيات من العمر تقريبًا، وصلتا منذ ساعات، ليستضيفهما (شون) في غرفة بالدور العلوي. أخبرني فيما بعد أنه يستضيف البعض، مثلي، دون مقابل مادي عن طريق منصة الـ (كاوتش سيرفينج)، بينما يقوم بتأجير بقية الغرف الخالية في الفيلا عن طريق منصة Airbnb الشهيرة. لم أفهم الفائدة من استضافة (الكاوتش سيرفينج) بالنسبة له إن كان بوسعه تأجير غرفتي كذلك، ولم أسأل، بل اكتفيت بالامتنان لوئس الصُحبة الجديدة، فقد صرنا أغلبية نسوية في المكان!

اجتمعنا في الصالة في لقاء تعارف سريع. الفتاتان تعملان في مجال الفنون، وقد جاءتا من (مومباي) خصيصًا لحضور مهرجان يحمل اسم (مهرجان سرنديبتي للفنون) Serendipity Art Festival أو (صدفة)، وهو مهرجان فني ضخم يُقام في (غوا) بشكل دوري في ديسمبر من كل عام، ويحضره فنانون ورسامون وموسيقيون وأدباء من كل أنحاء الهند والدول المجاورة، حيث يُعرض من خلاله جميع ضروب الفنون تقريبًا، من

رسم ونحت ورقص ومسرح وسينما وأدب، على مدار أسبوع كامل. يتصادف أن أكون هنا في هذا الأسبوع تحديداً؛ لذلك سأحاول في الغد حضور عرض من هذه العروض. قد يكون الأمر مُسلياً.

# خريطة اليوم



# ألبوم الصور



قلعة (كابو دي راما) - غوا



بازيلیکا Bom Jesus - غوا القديمة



مجمع كنائس غوا القديمة

# رويال إنفيلد

بانچيم - ديسمبر 2019

اليوم أستيقظ بثقل كبير في قلبي. فالיום أخرج مع (الشاه كابور) في رحلتنا الأخيرة معًا، لأودعه المكان الذي طلب مني صاحبه (راچيف) أن أتركه فيه قبل رحيلي عن الهند. اليوم نقطع عشرين كيلومترًا قصيرة، ليقرأ عداد (الشاه كابور) ما يقارب الألف وستمئة كيلومتر، قضيناها معًا على مدار أحد عشر يومًا لا تُنسى. سأفتقدك بحق يا صديقي!

الساعة تقارب التاسعة صباحًا. نسير بمحاذاة كورنيش (بانچيم) الشهير، حيث الكازينوهات العائمة ما زالت تتعافى من سهرة البارحة بصخبها وازدحامها، وعمّال النظافة في الشوارع يحاولون إزالة آثار الليل عن الطرقات. الشوارع مزدحمة، والعوادم خانقة، ولكنني أتسلّى بمراقبة البناءات الملونة على جانب الطريق، وحركة الحافلات الصغيرة، ووجوه المارة المثقلة بأعباء يوم عمل جديد. يحملني الـ GPS عبر جسر مُعلّق ضخم، يمر فوق نهر (مادوخي)، ممتدًا لأكثر من خمسة كيلومترات كاملة، إلى خارج حدود المدينة، وعبر بلدات صغيرة مجاورة، إلى أن نصل إلى بلدة تحمل لافتتها اسم (أربورا) Arpora. عدة كيلومترات أخرى، وسط غابات من الأشجار والنخيل، وجسر صغير يمر فوق نهر (باجا)، ثم تلوح من بعيد رايات حمراء حملت اسم (رويال إنفيلد).

أربورا - ديسمبر 2019

نتوقف أخيرًا مع وُصولنا إلى الرايات الحمراء قبالة مبنى أنيق ضخم، يتكون من ثلاثة قطاعات، ويفصله عن الطريق الفرعي الصغير سور قصير من الطوب الأحمر، حمل جزءًا منه حروفًا فضية لامعة باسم (رويال إنفيلد)، بينما استقرّ أمامه ما لا يقل عن عشرة موتوسيكلات. أصف (الشاه كابور) بجوار إخوته، وأدير مفتاح المحرك للمرة الأخيرة

ليتوقف صوت هدير الهليكوبتر المؤلف. لا أصدق أنني لن أسمع كل هذا الإزعاج المحبب إلى أذني مرة أخرى!

تجاوزت البوابة الصغيرة للمبنى، مرورًا بلافتة حملت اسم (جراچ كافييه). على اليمين المقصف الأنيق يتكون من (بار) وعدد من الطاولات الخشبية. اتخذت مجلسي على أحدها، بينما استقرَّ زوجان من الأجانب، في الخمسينيات من عمرهما، على طاولة مجاورة، وقد حملت لي أصواتهم المنخفضة بعض الكلمات الفرنسية. الأجواء هادئة ومريحة، تزيدها الإطالة المميزة على نهر (باجا) حلاوة وصفاء. في الخلفية يأتي صوت (كيني روجرز) الرخيم وهو يحاول أن يقنع سيدة ما أنه (فارسها في درعه اللامع) وأنه يحبها، على نغمات أمريكية حالمة يحفظها مواليد السبعينيات والثمانينيات حول العالم جيدًا.

كان كل شيء هنا يرمز للموتوسيكلات، فالجدارية العملاقة التي تغطي خلفية المقصف بأكمله، تحمل رسومًا يدوية لخريطة طرق الدراجين حول (غوا)، مع أشهر المعالم السياحية والحضرية بها، بينما طاولة البار الطويلة تحمل جملة (صنع مثل بندقية) أو **Made like a Gun**، وهو شعار تاريخي للعلامة التجارية (الرويال إنفيلد)، يحمل إشارة واضحة إلى أول مصنع الذخيرة الإنجليزي الذي أنتج هذا النوع من الموتوسيكلات للمرة الأولى في أثناء الحرب العالمية. في الخارج، تصطف الموتوسيكلات في حديقة مجاورة للمقهى في عَرْضٍ حي لأحدث ما تطرحه الشركة في الأسواق. أما في الجهة المقابلة، تظهر الإكسسوارات المختلفة من السترات الجلدية والخوذ المتنوعة والأحذية الثقيلة من خلف الجدران الزجاجية السميكة للمحل التجاري الخاص بنفس العلامة التجارية (الرويال إنفيلد).

طلبت فطورًا بسيطًا، وسألت عن السيد (سونيل سينج)، فأخبرني النادل أنه على وشك الوصول. قررت قضاء الوقت حتى وصوله في التجوُّل بالمكان. كانت اللافتة على المبنى الملاصق للمقهى مباشرة تحمل اسم (المتحف). في الداخل تفاجئني أروع مجموعة وقعت عليها عيناى من الموتوسيكلات الكلاسيكية العتيقة! لقد أبدع مُصمِّمو المتحف في جمع

نماذج من مراحل مختلفة من عمر (الرويال إنفيلد)، تبرز تطور موديلاته عبر العصور، بداية من حقبة الحرب العالمية، مرورًا بفترة انتشاره الأكبر في الستينيات والسبعينيات ووصولًا إلى العهد الحديث. مما لفت نظري هناك، على سبيل المثال، دراجة نارية حملت اسم (البرغوث الطائر) Flying Flea وهي من إنتاج عام 1939. هذا الموتوسيكل شارك قوات المظلات التابعة للجيش البريطاني في الحرب العالمية الثانية، حيث أسهم وزنه الخفيف البالغ 65 كجم، وأبعاده الصغيرة في اختياره للإنزال عبر الإسقاط الجوي في ساحات المعارك ليستخدمه جنود المراسلات في التنقل بين معسكرات القوات وساحات القتال.

أما درة المتحف بحق، فهو ذلك النموذج المصغر الذي يحتل صدارة المكان لموتوسيكل (500 الكلاسيكي) المعروف باسم (بوليت)، والذي ينتمي إلى فئته (الشاه كابور). كان الاهتمام بالتفاصيل فيه مُبهرًا للعين، بداية من خزان الوقود الحقيقي المصنوع من الفولاذ، إلى الأجزاء المطلية بالكروم، وعلامة (الرويال إنفيلد) التجارية المنقوشة بعناية على جانبه. كان كل عنصر من عناصر هذا الجسم قد مرَّ بنفس مراحل تصنيع أجزاء الموتوسيكل العادي؛ لذلك فقد استغرق صنعه وتجميعه أكثر من عامين كاملين. وهو يعد موتوسيكلًا حقيقيًا، وإن كانت أبعاده تبلغ ثلث حجمه الطبيعي!

وصل الرجل أخيرًا، بعد أن أنهيت جولتي بالمتحف بعشر دقائق. أخبرت السيد (سينج) بأنني أتيت له من طرف السيد (راچيف) لأترك (الشاه كابور) في رعايته. اصطحبته إلى حيث صفت هذا الأخير، فتفقد حالته سريعًا، وأشرت إلى أوراق التسجيل الخاصة به والتي لم تخرج من مكانها في المقصورة العدة الجانبية للموتوسيكل منذ وضعها (راچيف) بيده هناك. سلمته المفتاح في أسي وألقيت نظرة أخيرة على (الشاه كابور) العزيز قبل أن أحمل خوذتي وأغادر المكان بحثًا عن وسيلة مواصلات تعيدني إلى (بانجيم) مرة أخرى.

بعد عدة محاولات باءت جميعها بالفشل لطلب سيارة أجرة عن طريق تطبيق (أولاً) الذي عدت إليه بعد غياب أيام، ومحاولات أخرى باءت بالفشل كذلك لاستيقاف أي سيارة أجرة

على الطريق، قررت أن أستوقف أي سكوتر أو موتوسيكل ليحملني إلى أقرب محطة أتوبيس. لا أعرف من أين جاءتني فكرة الـ(هيتشينج) وقتها، ولكنها نجحت على كل حال! وكان السكوتر الذي توقف لي يحمل مفاجأة! فدوّنًا عن كل الدراجين الهنود الذين تجاهلوا إشاراتي وسؤالي، تتوقف أمامي أخيرًا فتاة روسية شقراء تقود سكوتر أبيض صغيرًا، وتخبرني في لُكنة روسية مفخمة أنها تعيش في تلك المنطقة وكانت في طريقها بالفعل إلى أقرب محطة أتوبيس! أي حظ هذا؟!

نطلق في شوارع (أربورا) الهادئة، إلى أن تتوقف الفتاة فجأة قُبالة محطة أتوبيس حائلة اللون على جانب الطريق، وتشير إليه منوهة بأن عليّ الركوب من هنا إلى بلدة (كالانجوت)، ومن هناك عليّ العثور على أتوبيس آخر يحملني إلى (بانجيم).

بعد انتظار دام أكثر من عشر دقائق يصل الأتوبيس أخيرًا، بكثير من الضجة والنفير العالي، بينما تستقر خلف واجهته الزجاجية لافتة حملت بخط اليد كلمة (كالانجوت). إنه هو إذن. أرتقي الدرجات المتهالكة لأستقر فوق أحد المقاعد التي التصق جلدها بالإطار المعدني للمقعد من فرط الاستخدام. لم يكن هناك سواي، أنا وشاب هندي مهتمم الثياب، يبدو سائحًا مثلي، لا سيما مع حقيبة الظهر القماشية التي تعلو كتفيه، وسيدة عجوز، بيضاء الشعر تمامًا، شقت التجاعيد أخايد عميقة على صفحة وجهها، وقد تدرت في (ساري) هندي أصفر اللون. هذا إلى جانب سائق الأتوبيس الأرعن، الذي يقود بتهور لا مثيل له، وكأنه يقود (توكتوك) لا حافلة ضخمة، والتبّاع المصاب بفرط الحركة، الذي تبرز ضلوع جسده النحيل من وراء فائلة داخلية حال لونها الأصلي منذ زمن، بينما تظهر أسنانه الصفراء في ضحكات صاخبة، مُرعبة النبرة، في أثناء حديثه المتواصل الذي لم يتوقف طوال الطريق مع السائق الأرعن. مع اقتراب الحافلة من كل محطة، يهب التبّاع مسرعًا، ليدي بجسده من فوق درجات السلم وعبر الباب المفتوح، فيطرق على جانب الأتوبيس بيده النحيلة صائحًا: «كالانجوت.. كالانجوت». قبل أن ينطلق الأتوبيس مرة أخرى بسرعة البرق استكمالًا لرحلته المجنونة مُطوّحًا الركاب يمينًا ويسارًا مع كل عطفة وزاوية. العجوز

تتمتع بكلمات حانقة غير مفهومة وهي تلقي بنظرات نارية تجاه السائق والتباع معًا، بينما يبادلها الأخير بنظرات باردة وابتسامة ساخرة تكاد لا تفارق شفثيه.

كان الجو العام مُثيرًا للتوتر بشدة، فإلى جانب القيادة المتهورة للسائق، والتَّبَاع الشقي بتصرفاته الخارجة عن السيطرة، كان كل ما يتبادر إلى ذهني وقتها هو ذلك الحادث الشهير الذي وقع في مثل هذا الشهر، تحديدًا في ديسمبر عام 2012، واهتزت له أرجاء العالم كله. كان مسرح الأحداث هو أتوبيس نُقل عام كذلك! ففي أثناء رحلته في العاصمة (دهلي)، قام ستة أفراد من ركاب ذلك الأتوبيس المشؤوم، بما فيهم السائق، بالتعدي على فتاة بالضرب والتعذيب والاعتصاب بطريقة وحشية، مما أدى إلى وفاتها بعد ثلاثة عشر يومًا كاملين من العذاب، في حادث تداولته الصحف العالمية كلها لشهور. أثار الحادث موجة من المظاهرات والاحتجاجات ضد الحكومة الهندية، مما أدّى في النهاية إلى تغيير عدد من القوانين التشريعية فيما يخص جرائم الاعتداء على النساء، كما أنشئت سِتُّ محاكم سريعة جديدة للنظر في قضايا الاعتصاب. الحادث جرى تناوله كذلك في أكثر من عمل درامي، أشهرهم فيلم للمخرجة (ديبا ميهتا) بعنوان (تشريح العنف) Anatomy of violence، ومسلسل من إنتاج منصة (نتفلكس) بعنوان (جريمة دهلي) أو Delhi Crime.

انتزعتني صوت نفير الأتوبيس العالي من أفكاري السوداوية مع دخول الأتوبيس الملعون أخيرًا إلى محطة (كالانجوت) المنشودة. توقّف الأتوبيس الطائش، فانطلق كل من على متنه، وكان عدد الركاب قد زاد خلال الطريق ليتخطّى العشرة أو يزيد، ينفدون بجلدهم من ذلك النعش الطائر وسائقه المخبول وتبّاعه المختل!

الأتوبيس الثاني، ذاك المتوجه إلى (بانجيم) كان تحت قيادة سائق خمسيني العمر هذه المرة، فكان أكثر هدوءًا وورصانةً. على اللوحة المواجهة للمقاعد، خلف مقصورة القيادة مباشرة، توجد ثلاثة جمل إرشادية بليغة، تكفي الجملة الأخيرة منها لتخبرك عن حالة تلك الأتوبيسات وركابها:

- عدد الواقفين (وهو عدد الركاب المسموح بوقوفهم في الأتوبيس في حالة إشغال المقاعد بالكامل).

- ممنوع التدخين.
- ممنوع البصق!!!

بانجيم - ديسمبر 2019

استغرقت الرحلة ساعة كاملة، قبل أن نعبر أخيراً الكوبري المعلق إياه إلى مدينة (بانجيم) مرة أخرى، ليتوقف الأتوبيس أخيراً في المحطة الرئيسية. من هنا يحملني أتوبيس ثالث، هذه المرة يسير بمحاذاة الكورنيش ليصل إلى (شاطئ ميرامار) القريب من المنزل. أترجل منه لدى تمثال مميز من البرونز، لرجلين متمثلين؛ لذلك يعرف التمثال باسم (التوأمان)، يحتل ميداناً صغيراً بالقرب من الشاطئ. من هنا أسيّر لمسافة سبعمئة متر تقريباً قبل أن أصل إلى البيت.

أخيراً أعانقُ السرير بعد تلك الرحلة الشاقة في ثلاثة أتوبيسات محلية! لو أنني أعرف أن (أربورا) كانت على هذا البعد لطلبت من (راچيف) أن يرسل أحدهم لاستلام الموتوسيكل مني في (بانجيم) نفسها. ولكن الحق يقال: إنني لسْتُ نادمة على الإطلاق، فقد أُتيحت لي فرصة رؤية متحف (الرويال إنفيلد) و(الجراج كافييه)، وهو خير ختام لرحلة بالموتوسيكل في الهند حقاً. كما مررت بتجربة ركوب الأتوبيس المثيرة، لا مرة أو اثنتين، بل ثلاث مرات في يوم واحد! ويا لها من تجربة!

كانت الساعة قد تجاوزت السادسة حين أفقت من قيلولتي الطويلة التي استعدت بها نشاطي مرة أخرى. كان المنزل خاليًا، ولا يوجد أثر لـ(شون) أو البنات. خرجت مع بقايا شمس الغروب لأتمشّي للمرة الأخيرة على الكورنيش. قادتني قدمي إلى ساحة كبرى، تطل على البحر مباشرة، حملت شعار (مهرجان سرنديبتي للفنون) الذي أخبرتني الفتاتان رفيقتا المنزل عنه بالأمس. قررتُ الدخول لاستكشاف المكان.

كان الدخول مجانيًا تمامًا. ناولني أحد الشباب المتطوعين بلجنة التنظيم على البوابة منشورًا ورقياً يحمل برنامج المهرجان في أماكنه المتعددة حول المدينة. من المفارقات المثيرة أن الراعي الرسمي للمهرجان، بل ومؤسسه الأول هو الرئيس التنفيذي لمجموعة شركات (هيرو)، المتخصصة في صناعة الموتوسيكلات، والتي تعد كبرى شركات الموتوسيكلات في العالم، وتقوم وحدها بتصنيع أكثر من ثلث موتوسيكلات السوق الهندي وحده!

ممر طويل يقودني إلى ساحة المسرح الكبيرة. مجرد رقعة كبيرة من الأرض الرملية، نصبت في صدارتها خشبة عالية للمسرح، بينما تراصت أمامها المقاعد المعدنية في انتظام. كانت خشبة المسرح خالية مظلمة، وإن استقرت جموع المتفرجين في مقاعدهم من أمامها في انتظار بداية الحفل.

بالقرب من ساحة المسرح توجد قاعة للطعام، تفترشها طاولات متعددة يُعرض من فوقها أنواع مختلفة من الأكلات والمشروبات. مضيت أتفحص قوائم الطعام حتى ميزت كلمة (شيش طاووق)، فطلبتته مع بعض الأرز البسمتي كوجبة للغداء، وكنت قد نسيت أمر الطعام تمامًا خلال يومي الحافل. في أثناء انتظاري لإعداد الوجبة المطلوبة، فوجئت بفتاة هندية جميلة الملامح تنطق باسمي في تردّد. التفت في اندهاش، مَنْ يا ترى يعرفني هنا دونًا عن كل بقاع الأرض، فلما رأت علامات الجهل التام بشخصها على وجهي، ضحكت وقالت لي: «أنا (راشمي)، أقطن معك بنفس البيت!». تذكرت أخيرًا أنها واحدة من الفتاتين اللتين قابلتهما بالأمس في بيت (شون)! اعتذرت لها في خجل، مُتعلّلة بأن شكلها قد تغير كثيرًا، مع خلعه لنظارة القراءة وإطلاقها لشعرها المضموم في الليلة السابقة! دعيتني في لطف للانضمام إليها برفقة أصدقائها لتناول الطعام قبل الحفل، فانضمت إليهم على طاولة قريبة.

(كيشاف)، فتى ممتلئ الحجم، طفولي الملامح رغم سنه الذي تجاوز الثامنة والعشرين، خجول النظرات رغم أنه لا يتوقف عن الكلام تقريبًا. يرتدي نظارة ذات

إطار أسود مستدير، يكثر من استبدال موضعها كل بضع دقائق بأصابع متعرّقة. ورفيقته (بريا) فتاة أكثر منه خجلًا وهدوءًا، يكاد لا يُسمع لها صوت، لكنها تضحك في ود بشوش في وجه الجميع. كان صديقًا (راشمي) يعملان كذلك في مجال الفنون، وهما أيضًا قد أتيا من (مومباي) خصيصًا لحضور المهرجان.

بدأ الحفل في تمام التاسعة مساءً. في البداية كانت هناك حفلة للرقص الشعبي الخاص بإقليم (جوچارات)، وهي رقصة حرّية في المقام الأول، تستخدم فيها السيوف والدروع، ليدور الراقصون في حلقات دائرية وخطوات عنيفة، على أنغام الطبول والمزامير، وآلة تشبه الأكورديون وتدعى (هارمونيوم). تلا ذلك الحفل، بعد استراحة قصيرة، حفل آخر لموسيقى الروك، قدمته فرقة موسيقية تدعى (داستان) Dastaan، وهو فريق بشتهر على ما يبدو بالرسائل السياسية الضمنية. عرفت في اليوم التالي أنه تم القبض على أعضاء الفرقة الأربعة من قبل الشرطة الهندية بعد هذا الحفل بالتحديد، وأتهموا بازدراء الأديان، على خلفية أغنية مزجوا فيها كلمة (أوم) المقدسة مع بعض الكلمات المسيئة حسب زعم المواقع الإخبارية. يبدو أن هذه التهمة جاهزة ومنتشرة في كل دول العالم إنن، حتى في أكبر دولة ديمقراطية في العالم مثل الهند!

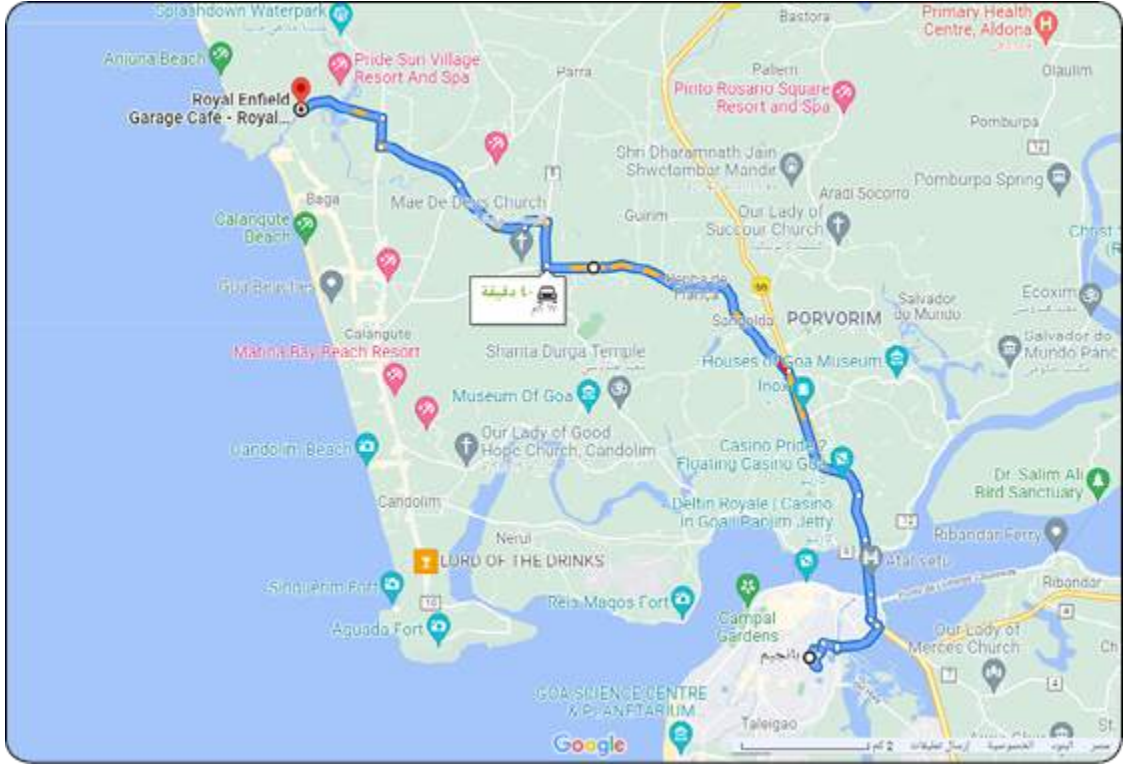
انتهى الحفل في حدود الحادية عشرة ليلاً. كان الجميع جوعى، (راشمي) ورفاقها وأنا. قرّرنا التوجه للعشاء في أحد مطاعم المأكولات البحرية التي تشتهر بها (غوا) كأى مدينة ساحلية. اقترح علينا (كيشاف) مطعم بعينه، واستوقف لنا (تاكسي) حملنا عبر شوارع المدينة الهادئة في هذه الساعة المتأخرة من المساء إلى الطرف الشمالي من المدينة.

كان المطعم مُزدحمًا رغم الوقت المتأخر، ورائحة الشواء تزكم الأنوف. اتخذنا مجلسنا حول منضدة صغيرة بالكاد تكفي عددنا، ثم انضم إلينا (شون)، الذي يبدو أنه تواصل مع (راشمي) حول موقعنا من السهرة قبل قليل، لنصير خمسة. كان الطعام

رائعًا، والصُّحبة أروع، فهم مرحون، يتبادلون النكات معي وكأننا رفاق عمر، بينما نحن قد تقابلنا حرفيًا منذ ساعات، كما يتمتعون بثقافة متنوعة سمحت بامتداد الحديث بلا مَلَلٍ أو كَلَلٍ على مدار ساعتين كاملتين. انتهت السَّهرة وقد تجاوزت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، غير أن وجود (شون) معنا منحنا الكثير من الطمأنينة للعودة إلى البيت في تلك الساعة المتأخرة. (غوا) لا تنام على كل حال، فوراء كل باب كان هناك سهرة ما، تفشي سرها الأنوار المتلألئة في النوافذ، وأصوات الضحكات الصاخبة.

انتهى اليومُ الأخيرُ لي في الهند نهايةً مُمتعةً، فكان هذا العشاء الأخير ختامًا رائعًا لرحلة لا تُنسى. في الصباح أحمل أمتعتي وأتوجه إلى المطار، لأقضي ساعات طويلة أتنقل من مطار إلى آخر في رحلة عودة شاقة، أمر خلالها بثلاثة مطارات، في (غوا) و(دلهي) و(البحرين)، قبل أن أصل أخيرًا إلى مطار (القاهرة) العزيز. تنحني (صوفيا) تحت الحاجز الحديدي لممر خروج المسافرين، لتعدو نحوي ويلتف ذراعاها الصغيران حولي، وتصيح في حماسة «مامي، جبتيلي إيه من الهند؟». أبتسم قائلة: «حكايات، حكايات كثير أوي يا صوفيا». تبدو على وجهها علامات خيبة الأمل، فأضيف ليتهلل وجهها مرة أخرى: «طيب حكايات كثير، وشوية هدايا كمان!».

# خريطة اليوم



# ألبوم الصور



رويال إنفيلد) جراج كافيه - أربورا

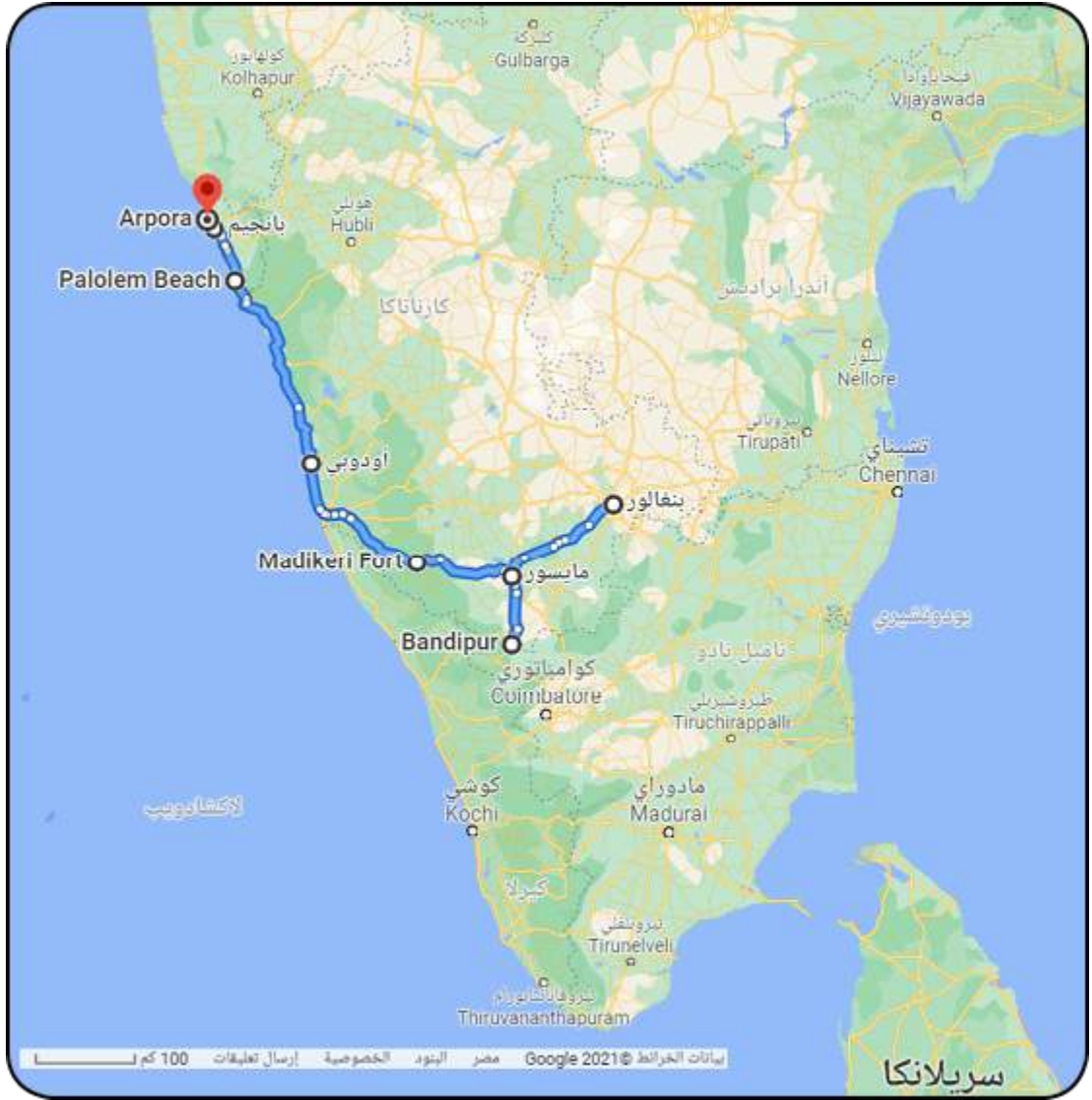


رحلة الأتوبيس من (كالانجوت) إلى  
(بانجيم)



(رويال إنفيلد) جراج كافيه - أربورا

# خريطة الرحلة



1. [الغلاف](#)
2. [رحلة الشاه كابور](#)
3. [مقدمة](#)
4. [إلى](#)
5. [طائرات ملوَّنة](#)
6. [في حضرة الشاه كابور](#)
7. [هاري كريشنا](#)
8. [خريطة اليوم](#)
9. [ألبوم الصور](#)
10. [مدينة الشيطان](#)
11. [خريطة اليوم](#)
12. [ألبوم الصور](#)
13. [سفاري](#)
14. [خريطة اليوم](#)
15. [من ألبوم الصور](#)
16. [مزرعة القهوة](#)
17. [خريطة اليوم](#)
18. [ألبوم الصور](#)
19. [في ضيافة البوذا](#)
20. [خريطة اليوم](#)
21. [ألبوم الصور](#)
22. [Route 66](#)
23. [خريطة اليوم](#)
24. [ألبوم الصور](#)

25. [بالوليم](#)
26. [خريطة اليوم](#)
27. [ألبوم الصور](#)
28. [تحية إلى الملكة](#)
29. [المدينة البرتغالية](#)
30. [خريطة اليوم](#)
31. [ألبوم الصور](#)
32. [رويال إنفيلد](#)
33. [خريطة اليوم](#)
34. [ألبوم الصور](#)
35. [خريطة الرحلة](#)